
كتابي
43
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الخامس
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اعترافات
چان چاك روسو
الجزء الخامس



الأجزاء السابقة .. فى سطور

الكتاب الأول

ولدت فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من أن يكرهنى ابى لذلك ، فإنه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمد ابى إلى اسلوب خطر ، إذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة .

اضطر ابى إلى ان يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى «برنار» ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى «لامبرسييه» ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى أخته . وكانت الآنسة «لامبرسييه» تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . وتركت الدراسة فألحقنى خالى بمكتبب موثق للعقود ، على امل ان اشق طريقى فى المحاماة ــ فيما بعد ــ ولكنى لم استسغ هذا العمل ، فرأى خالى ان من مصلحتى ان اتعلم حرفة . وألحقنى كصبى ــ أو تلميذ صانع ــ لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهنالك اختلطت بالعمال

Lalaloo www.dvd4arab.org

الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة ، لا سيما وأن معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فاننى لم اكن اسرق حبا فى المال او الحيازة .. وإلى جانب هـذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى اصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هـذه ، إلى الهرب من (جنيف) .. فانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » ، التى اشفقت على، وارسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانية ، واصبحت كاثوليكيا .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وافردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت ادعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتر » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون). وعندما عدت إلى (انيسى) ، إذا بى افاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

واقمت فترة مع « فينتور » وهو شاب كنت أعرفه من قبل ،

وكان يزعم انه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، انيقا ، مرحا ، يستهوى النساء .. وفى تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى !

انتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشى بتدريسى الموسيقى ، باذلا جهدى ــ فى الوقت ذاته ــ إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك ان اكون ملحنا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها ــ برغم ما كان عليه من تأجج وقوة ــ لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى ان اذهب إلى باريس ، ولكننى لم الق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى احلامى . على اننى ظفرت هنـاك بنبأ جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى « فاران » . وهكذا اخذت اجوب الأقاليم على غير هدى، متعرضا للتشرد، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت اخيرا ان « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت إليها .. وما كان احلاه من لقاء !

واستطاعت «ماما» أن تحصل لى على منصب فى «المساحة»، فبدأت اكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

Looloo
www.dvd4arab.com

واقمت فى دار « ماما » ، فى (شـــامبيرى) .. ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، إذ كانت موارد « ماما » فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة، اكتشفت أن «ماما» كانت على علاقة بخادها الوفى «كلود آنيه» . وكان شابا لا يكبرنى بكثير، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع اننى لم انج من الألم ، إذ أدركت أن ثمـــة من استطاع ان يعيش مع « ماما » فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا أن وفائى للسيدة امتد إلى الشـــاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شىء !

وانصرفت إلى الموسيقى ــ فى تلك الأثناء ــ فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على ان اســـتقيل من عملى فى « المساحة » ، وان استعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى، وإلى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتى ــ التى ذهبت إلى درجة الغباء ــ كانت تفوت على الفرص . إلى ان احست «ماما» بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى احابيلها ، فأشفقت على من مخاطر شبابى، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثـــل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها ! .. وهكذا اخـــذت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية، كمـــا أنها لم تؤثر على عـــلاقة كل منا بخادمها وعشـــيقها « كلود آنيه » ، بل قامت بين « ثلاثتنا » زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض !

وما لبث « آنيه » أن مات ــ وهو فى ريعان شـــبابه ــ فحللت محله فى تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت اعمل جاهدا على ان اجنبها هاوية الافلاس . وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رأيت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف ، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقـــة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الأذنين، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . واقبلت على دراســـة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، انشد علاجا لعللى .

وفى إحدى هذه الأسـفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على اغوائى، حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل

Looloo
www.dvd4arab.com

إقبالى عليها ، لم تتورع عن أن تكون هى البادئة بالعناق والتقبيل .. واصبحت عشيقتى خلال الرحلة ! ولو أننى عشت مائة عام ، لما استطعت أن افكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون أن يطغى السرور على ! .. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. أما مع السيدة دى لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا غيرى قد حل محلى اثناء غيابى .. وكان جاهلا ، مغرورا ، استطاع ان يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم استطع ان أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت ان اهجر الدار ، وأن ارحل إلى باريس ، لأعرض على « الاكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى « الاكاديمية » برسالتى التى قدر لى ان يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من ان استسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة .

واخرجنى الأب « كاستيل » من استسلامى للكسل ، إذ عرفنى بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة

« دى بروجلى » ، وبالسيدة «دوبان» .. وكن يملن إلى الموسيقى .. ولقد ابدت لى السيدة « دى بروجلى » عطفا خاصا ، ونصحتنى بتعلم «الاتيكيت»! .. أما السيدة «دوبان»، فكانت فاتنة الشخصية . وقد تعرفت لديها على السيد « دى فرانكويى » ، ابن زوجها . وقد اطمعنى لطفها ، فهمت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها إلى مع تأنيب جمد له دمى ! .. وارتد عقلى إلى ــ بعد ذلك ــ فقنعت بصداقتها والتردد على دارها .

وفى تلك الأثناء ، اقبلت على وضع « اوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء ، هم «تاس»، و«أوفيد» ، و«اناكريون» .. وقد اسميتها « عرائس الشعر اللطاف » . وقبل ان افرغ منها، التحقت بالعمل كسكرتير للسيد الكونت « دى مونتيجى » ، سفير فرنسا فى البندقية .. ورحلت إلى هناك .

واستطعت فى هذا المنصب ان ابدى مهارة وحكمة ، وان اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين فى (البندقية) ، وإن اكتسبت عداء السفير، إذ كان رجلا احمق، جاهلا، جشعا ، اسلم قياده لمستشارين من الإيطاليين استغلاه اشنع استغلال ، واوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك .. واستطاعا ان يوغرا صدره على لأننى كنت مخلصا لعملى ، جادا فى مسلكى ، معتزا بكرامتى . وكان من جراء ذلك ان راح السفير يضايقنى ويكثر من مشاكستى ، حتى اضطررت ــ فى النهاية ــ إلى أن اترك العمل فى السفارة ، برغم أن السيد « دى مونتيجى » أبى أن يسوى حسابى ، وان يدفع إلى استحقاقى

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى (باريس) ، رحت أشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ ، فكان كل امرىء يقرنى على أننى أوذيت وظلمت ، ولكن أحدا لم يحاول أن ينصفنى .. على أن الرجل لم يلبث أن جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء ، فاستدعى إلى باريس ، واقصى عن منصبه ، واوعز إليه أن يرد إلى ما كنت أستحق من نقود لديه .. على أن عدالة شكاياتى ، وعدم اكتراث أحد بانصافى طيلة تلك الفترة ، خلفت فى نفسى بذور السخط على المدنية الحمقاء ، التى تضحى نظمها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحقة ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

وتفرغت لاستكمال « الأوبرا » التى كنت قد بدأتها .. وفى تلك الأثناء ، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل فى الفندق الذى نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى .. واعترفت لى بزلة وحيدة تعرضت لها فى فترة مراهقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

واكتملت « أوبراى » ، فعرضتها على « رامو » ـ الذى كان واسع النفوذ فى الوسط الفنى ـ ولكنه تحامل عليها ، وأذكت تحامله تلميذته ـ السيدة ديلا بوبلينيير ـ فراح يتهمنى بأننى سرقت الألحان .. على أن السيد «ريشيليو» شجعنى، وسألنى أن أغير الفصل الأخير من « الاوبرا » ، ليسعى لعرضها على مشهد من الملك . وما لبث أن شغلنى عنها بأن أناط بى تعديل « أوبرا » كانت من تأليف « فولتير » وتلحين « رامو » . وأدى اشتراكى مع هذين العظيمين فى عمل كهذا ، إلى إذكاء روحى

المعنوية . غير أن « رامو » استطاع ـ بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينيير ـ أن يحول دون أن يعرف الرأى العام نصيبى فى ذلك العمل !

وادت كل هذه الظروف إلى تثبيط عزيمتى نحو الرقى . فلم أعد أفكر فى أكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكويى .. واقبلت فى تلك الأثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير .

انتجت علاقتى بتيريز ثمرة أسلمناها إلى ملجأ اللقطاء .. وكذلك فعلنا بأبنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة !

وما لبثت أن قرأت صدفة عن الموضوع الذى حدده المحفل العلمى بديجون لمباراته فى العام التالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » .. وانتابتنى شبه غيبوبة ، وأتانى خلالها إلهام أوحى إلى بمقال فى الموضوع أرسلته إلى المحفل .

وفى تلك الأثناء كنت قد أثثت لنفسى مسكنا خاصا ، ضممت فيه «تيريز» إلى .. وسرعان ما أقبلت أسرتها تعيش معنا . وبقدر ما سعدت بلحظات هانئة مع فتاتى ، فاننى شقيت بأهلها الذين كانوا يستنفدون مواردها ـ من عملها ـ ومواردى .

وقدر لمقالى أن يفوز فى العام التالى ـ ١٧٥٠ ـ بجائزة محفل ديجون ، فأيقظ ذلك فى نفسى حب التحرر من خدمة الغير ، والسعى إلى أن أكون إنسانا فاضلا ، ذا استقلال ذاتى.

leeloo
www.dvd4arab.com

واضمحلت صحتى ـ فى هذه الفترة ـ فأوحى إلى طبيب شهير بأننى لن أبقى فى الحياة لأكثر من ستة أشهر . فقررت أن أعيشها حرا مستقلا ، ولو اضطرنى هذا إلى حياة الكفاف .. واشتد عزمى على ان اتمسك باستقلالى، فاستخدمت كل قواى الروحية فى تحطيم أغلال الرأى العام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل بآراء الناس . فأوغر مسلكى هذا صدور أصدقائى .

وعملت كناسخ للقطع الموسيقية ، بعد أن استقلت من خدمة السيدة دوبان والسيد دى فرانكويى .. واخذت انحو نحو التقشف لأصلح من امر نفسى . وكان مقالى قد احدث فى تلك الأثناء ضجة فكثرت شواغلى الأدبية ، حتى الهتنى عن عملى فى نسخ الموسيقى .. واثار المقال انتقادات مريرة ، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندى بنفسه ، فانصرفت إلى الذود عن آرائى فى جراة خشى على بعض اصدقائى منها .

وما لبثت ان ادركت ان العيش فى فقر وحرية ، ليس بالسهولة التى يتصورها المرء دائما ! .. ولقد حاول بعض المعجبين بى أن يعوضونى عن ذلك بالهدايا ، ولكنى رحت ارفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء .. ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيدة لوفاسير ـ أم تيريز ـ ولا افلح ما اتسمت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهرى ، ومن إغرائها ابنتها على أن تقبلها هى الأخرى ، او أن تكتم عنى أمرها ، على الأقل !

ومن هنا اشتد الخلاف بينى وبين السيدة لوفاسير التى راحت تحرض ابنتها على ، وتذمنى لدى أصدقائى ، وتتآمر مع من كانوا يحاولون منهم ان ينالوا منى .. ولقد أدى اندماجى فى المجتمع إلى ان اعمل على إذكاء اعتدادى بنفسى ، فأحالنى الحياء إلى هجاء لاذع ، وإلى ان ازدرى آداب اللياقة .. فاضطر الساخرون إلى ان يحدوا من سخريتهم .

وادت قصة « عراف القرية » إلى تألقى فى المجتمع ، فكثر معارفى .. وكانت هذه « الأوبرا » من طراز جديد ، وقد استطاعت ان تكتسب إعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها فى البلاط . ولقيت من التكريم ما اثار خجلى، حتى أننى عندما دعيت إلى القصر الملكى ، وقيل لى إن من المعتقد ان الملك قد ازمع ان يعلننى بأنه قرر منحى معاشا سنويا ، بادرت إلى التهرب من المناسبة ، وتخليت عن المعاش .

وزاد النجاح من تنكر أصدقائى لى ، وتألبهم على .. وفى تلك الأثناء ، وضعت رسالتى عن : « حديث فى عدم المساواة »، التى اثارت فيما بعد ضجة كبيرة، واجتلبت على نقمة الحكومات، لا سيما حكومة (جنيف) .

وفى ذات يوم ، دعتنى السيدة ديبناى إلى مرافقتها إلى ضيعتها (لاشيفريت) ، حيث كان العمل جاريا فى إضافة جناح إلى القصر .. وهناك ، وجدتها قد جددت بناء كوخ صغير كان فى طرف المتنزهات الملحقة بالقصر، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) .. وكنت قد ابديت من قبل إعجابى به لقيامه فى موقع منعزل

Looloo
www.dvd4arab.com

جميل ، فعملت السيدة على إعداده لسكناى ، ودعتنى للإقامة فيه . وبالرغم مما أثاره هذا من تخرصات « أصدقائى » ! الذين راحوا يروجون أننى أعيش على كرم السيدة ديبيناى ، فاننى لم أتردد فى هجران باريس ، والاقامة فى (ليرميتاج) ـــ كما كان ذلك الكوخ يسمى ـــ مصطحبا « تيريز » وأمها .

وهناك ، تفرغت للانتاج الأدبى . ومع أننى بدأت أشعر بأن إقامتى على مقربة من السيدة ديبيناى ، وفى ضيافتها ، قد حد بعض الشىء من حريتى ، إلا أن هذا لم يحد من إقبالى على الإنتاج .

وفى هذه الفترة بالذات ، اشتد توثق العلاقات بينى وبين « تيريز » ، وازداد فهم كل منا للآخر .. وقد يعجب القارىء لهذه الرابطة التى توجتها فى شيخوختى ـــ وبعد خمس وعشرين سنة من المعاشرة ـــ بالزواج .. قد يعجب القارىء لهذه الرابطة ، إذا صارحته بأننى لم أحب يوما « تيريز » ولا اشتهيتها .. ومع ذلك فانها كانت « وماما » أعز امرأتين لدى ! .. الواقع أن ما دفعنى إلى التعلق بتيريز ـــ من البداية ـــ هو أننى كنت أتوق إلى زميلة اندمج معها روحا وقلبا .. وكان لطفها وسذاجتها وأخلاقها كفيلة بأن توحى إلى بأنها خير من تصلح لذلك . ولكن ولاءها لأمها وأسرتها ، وجشع هؤلاء ، كانا يفسدان علينا هناءنا .. وكانا يجعلان تيريز ملكا لأهلها ، أكثر مما كانت ملكا لى ، أو ملكا لنفسها !

وكنت أشعر بحاجة إلى صديق يملأ فراغ قلبى بوده ، ويحفزنى على التخلص من كسلى المعتاد ، فرحت أعزز علاقاتى

بديدرو ، والراهب دى كونديلاك ، وغيرهما .. وما لبثت أن وجدتنى مرتميا فى أحضان الأدب ، الذى كنت قد هجرته . وأفضى بى هـــذا إلى دنيا جديدة من الفكر ، فلم أعد أرى فى فلسفاتنا سوى خطل ، ولا فى نظامنا الاجتمـــاعى سوى ظلم وشقاء .. وانتهيت إلى أن أوثر الحياة فى عزلة ـــ فى الريف ـــ متبعا سنن الطبيعة ، فلم يغتفر لى أصدقائى المزعومون هذا المسلك !

وقضيت أربع سنوات فى هذه الفورة ، لم أعتنق خلالهـــا سوى كل جليل وجميل . ومن هنا نبعت بلاغتى المفاجئة ، وتولد ذلك اللهب السماوى الصادق ، الذى الهبنى وانتشر فى كتبى الأولى .. وازدريت أخلاق عصرى ومبادئه وأوهامه ، دون أن أحفل بسخرية أصحاب تلك المبادىء . فاذا معظم أصدقائى ـــ لا سيما البارون « دولباخ » وعصبته ، و «جريم» و « ديدرو » ـــ ينقلبون على ، بل إنهم استمالوا إليهم أم « تيريز » ، وحاولوا استمالة « تيريز » نفسها ، لولا أن حب الفتاة ووفاءها دفعاها إلى أن تصـــارحنى بكل شىء ، عندما أدركت الخطر الذى كان محدقا بى ، من جراء دسائس الأصدقاء المزعومين .

ولم يعكر على صفاء العيش فى مسكنى النائى ، وعزلتى الفاتنة ، سوى أننى كنت رهنا بتدبيرات السيدة « ديبيناى » ، وإزعاج الزائرين الذين كانوا يتواغدون على دارى .. وأخذت فى تلك الأثناء أحن إلى أم (شارميت) ، وإلى الماضى الهنىء ، وإلى الحسان والتلميذات اللائى عرفتهن فى شبابى الباكر ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وإذا بجان الجاد ، المتقشف ، الذى أشرف على الخامسة والأربعين ، يرتد فجأة هائما وراء الحب .. وطوحت بى استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، إلى عالم الأوهام والخيالات ، كى اغذى صبابتى من عالم خيالى ، تعمره أطياف ناتئة !

وفى أوج نشوتى بهذا العالم السحرى ، عاودنى المرض القاسى (احتباس البول). وضاعف من أساى المتاعب المنزلية. إذ كانت السيدة «لوفاسير» ــ أم تيريز ــ تؤلب ابنتها على . ورأيتها ممعنة فى التآمر مع « جريم » وعصبة « دولباخ » ، فلم اجد بدا من ان اقصيها عن دارى ، وإن كفلت لها نفقات الإقامة فى (باريس) .

على اننى لم البث ان عدت إلى عالم خيالى ، فتمثلت الحب والصداقة ــ وهما معبودا قلبى ــ فى شكل حوريتين متجانستين ، متحابتين ، ورحت اضفى عليهما كل ما كنت أعجب به من مفاتن الجنس الآخر ، ووهبت إحداهما حبيبا كانت الأخرى صديقته الحنون .. ثم اسكنتهما عالما سحريا جمعت فيه كل ما كنت أعجب به من روائع الطبيعة فى البقاع التى شهدتها .. ثم رحت أسكب خيالاتى على الورق ، مؤلفا منها كتابى : « جولى » .

وفى تلك الأثناء ، زارتنى السيدة الكونتة دوديتو ، اخت السيد ديبيناى ، فتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكانت زيارتها أشبه بفاتحة قصة غرامية .. ولم تكن السيدة دوديتو جميلة، فقد شوه الجدرى وجهها ، كما انها كانت قصيرة البصر . ولكنها اوتيت إشراقة الشباب ، وجاذبية قوية ، وقواما بديعا،

وخفرا يضاعف من بهائها . كما كانت لها اخلاق نبيلة ، وكانت شديدة الوفاء لعشيقها « دى سان ــ لامبير » ، الذى كان يستحثها على ان توثق صلاتها بى . على أن علاقتى بها تحولت إلى وجد مشبوب ، غلبنى على امرى ، فلم ارع الصداقة ، ولا السن .. ولقد حرصت هى على أن تكبح جماحى ، ولم تأب على شيئا مما يستطيع أرق الود ان يكفله ، ولكنها لم تمنحنى شيئا كان يحتمل أن يرديها فى حمأة الخيانة !

على اننى اخطىء إذا قلت ان حبى لم يلق جزاء ، بل إنه كان حبا متعادلا لدى الطرفين ، وإن لم يكن متبادلا بينهما .. كان كلانا نشوان بالهوى .. هواى إياها ، وهواها حبيبها!.. وكانت زفراتنا ودموعنا ونجوانا تمتزج فتترابط ، حتى لقد كان من المستحيل الا تتحد .. ومع اننى فى غمرة الجوى ، كنت انساق للدوافع الشهوية ، إلا أن السيدة دوديتو لم تنس نفسها لحظة واحدة .. ومع انها لم تأب على عناقا او قبلات، إلا انها ظلت طاهرة الجسد والقلب !..

ولم افطن فى افتتانى إلى ان « دولباخ » والسيدة «ديبيناى» قد لاحظا ما بيننا ، وان الأخيرة دست لنا لدى « سان ــ لامبير » الذى كان مع الجيش فى (ويستفاليا) . وانضم إلى المتآمرين « جريم » الذى كان ناقما لأن السيدة « دوديتو » صدته من قبل . واستثارنى أن جاءت السيدة ديبيناى إلى (ليرميتاج) مرة ، وحاولت ان تغرى تيريز بأن تطلعها على ما كنت اتلقاه من رسائل السيدة « دوديتو » . فاذا بى اكتب إليها فى قسوة ، كاشفا عن انتباهى إلى مؤامراتها الخبيثة . ومع ان الوئام عاد بيننا ثانية ، إلا انه لم يلبث ان تحول إلى

www.dvd4arab.com

خصام ، عندما عرضت على السيدة ديبيناى ان اصحبها فى رحلة إلى جنيف ، فأبيت .

وفى تلك الأثناء ، نشر ديدرو كتابه « ابناء السفاح » ، فأحزننى أن وجدت فيه تلميحات غير كريمة ، لا سيما قوله انه « لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث » . وكتبت إليه عاتبا فى رفق .. ولكن هذا لم يزده إلا تحاملا . واستولت الضجة التى أخذ خصومى يثيرونها ـ باسم الصداقة ـ على اذهان الناس ، حتى اصبحت فى نظرهم مخطئا . بل ان السيدة دوديتو ، لم تلبث ان حملتنى على ان اذهب إلى (باريس) ، لأسعى إلى صلح معه . ولكن هذا الصلح لم يقدر له دوام !

ولم تكن الأيام تزيدنى إلا يقينا من غدر « جريم » وخداعه . على انه أضاف إلى ذلك استعلاء غريبا ، مذ اصبح خليلا لمدام ديبيناى . ثم تطورت الأحوال وتفاقمت بعد أن أقصيت مدام لوفاسير عن دارى ، إذ انها كانت عينا له ولزمرة المتآمرين .. واستفحل الأمر ، حتى انتهى بى إلى ان غادرت (ليرميتاج) ، واقمت فى دار صغيرة فى (مون لوى) بمونمورنسى .

وما لبثت مدام دوديتو ان بارحت الريف ـ هى الأخرى ـ فانتهت بذلك علاقاتى الشخصية بها . واقسم بأن هواى التعس لم يفقد شيئا من عنفوانه ، ولكن كرم «سان ـ لامبير» ، وولاءها له ، تركا اثرا قويا فى نفسى ، حتى ان شهواتى فارقتنى ، ومن المحتمل أن الوجد الذى اذكته فى قلبى ، هو اقوى وجد شعر به اى رجل عن الاطلاق . وسيبقى دائما ممجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الفذة ، والأليمة ، التى قدمناها فى سبيل الواجب ، والشرف ، والحب ، والصداقة .

وبدا أن مقامى فى (مونمورنسى) قد ساء السيدة ديبيناى وجريم ، فعقدا العزم على أن يقضيا على قضاء مبرما . فراحا وحلفاؤهما يشهرون بى ، ويبذرون الاتهامات الخبيثة ضدى . وهم يتظاهرون بالعطف والاشفاق على ، فسرعان ما خدع الرأى العام بحيلهم ، واعتقد أننى كنت غادرا بأصدقائى ، جاحدا لأفضالهم ، ونظموا حملة بارعة لتشويه سمعتى ، وليس ما يوغرهم ضدى سوى اننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية، وتشبثت بمبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة والاستقلال ، فلم اتملق أو أتزلف على حساب العدالة والحق .

واقبل الشتاء ، فلم اعد اغادر الدار ، وفى عزلتى هذه ، أتممت قصة « جولى » وارسلتها إلى الناشر .. وفى تلك الأثناء ، تعرفت بالسيد المارشال دوق دى لوكسمبورج والسيدة زوجته . وكانا من المع نجوم البلاط الملكى .. كما كان الدوق صديقا شخصيا للملك . وقد غمرانى بلطفهما ومجاملاتهما ، وقربانى إليهما .. وسرعان ما وجدتنى أسير سحر الدوقة الفاتنة ، لا سيما حين رحت اقرأ عليها قصة « جولى » ، وهى فى مخدعها .. واستولى على الدوقة شغف طاغ بـ « جولى » وبمؤلفها ، فأصبحت لا تتكلم إلا عنى ، ولا تفكر إلا فى . وكانت تعانقنى عشر مرات فى النهار ، ولا تجلس إلى مائدة إلا إذا كنت معها .

وطلبت الدوقة نسخة من قصتى الجديدة « هيلويز » ، فخطر لى أن أضم إلى القصة صفحات كنت كتبتها بعنوان « مغامرات اللورد ادوارد » . وكأنما كان القدر يسوقنى إلى ما أكره ،

Lololoo
www.dvd4arab.com

إذ كان فى تلك المغامرات ذكر لمركيزة رومانية متهتكة . وكانت فكرة خرقاء ، إذ أنها أوحت للدوقة بأن ثمة شبها بينها وبين بطلة القصة ــ وهو مالا بد قد آذى شعورها ــ وما حدست الأمر إلا بعد أمد طويل ، وبسبب ظواهر أخرى ترتبت عليه . فقد حدث أن اقيل المراقب العام للمالية الفرنسية من منصبه ، لأنه اتخذ إجراءات شديدة لإنقاذ الدولة من طغيان رجال المال ، فكتبت اهنئة بهذه الإقالة المشرقة ، واستطاعت الدوقة ان تحصل على صورة من هذا الخطاب ، دون أن افطن إلى أنها من فريق « جامعى المال » . . وما لبث الفتور ان دب بينى وبينها ، وإن ظل زوجها وثيق العلاقة بى !

وباتصالى بالدوقة دى لوكسمبورج ، تعرفت إلى السيدة دى بوفلير ، أختها . . كما أننى لم البث أن غدوت مدينا لها ، عندما تنازل السيد الأمير « دى كونتى » بزيارتى مرتين فى دارى ، وبإسباغ عطفه على . وقد كدت ارتكب حماقة جديدة ، بأن اغدو منافسا له فى حب السيدة دى بوفلير ، لولا اننى كنت ــ وقد بلغت الخمسين ــ احكم منى عندما تدلهت فى هوى السيدة دوديتو ، فعرفت كيف أقاوم وجدى .

وهنا تنتهى مجموعة الرسائل التى كانت بمثابة دليل لى فى الكراسات السابقة ، وأصبح على أن أعتمد على ذاكرتى فيما بقى .

والآن . . تعال نواصل قراءة هذا الجزء الباقى من الاعترافات ، وهو أهمها . .

الكراسة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

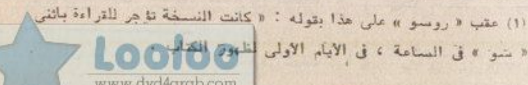
ومع أن قصة « جولى » ــ التى استغرقت طباعتها أمدا طويلا ــ لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠ ، إلا أنها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى . فان السيدة دى لوكسمبورج راحت تتحدث عنها فى البلاط ، كما أن السيدة دوديتو كانت تتحدث عنها فى باريس . بل إن هذه الأخيرة استأذنتنى ، باسم سان ــ لامبير ، فى قراءة القصة ــ من النسخة المخطوطة ــ على ملك بولندا ، الذى فتن بها . وعمد ديكلو ــ الذى كنت قد سمحت بقراءاتها عليه ــ إلى الحديث عنها فى المجمع (الاكاديمية) . فكانت باريس بأسرها تتحرق شوقا فى انتظار هذه القصة ، وحوصرت متاجر الكتب فى شارع (سان جاك) و (باليه رويال) بالناس الذين كانوا يتساءلون عن أنبائها !

وظهرت أخيرا ، فكان نجاحها الخارق متمشيا مع الشوق الذى كانت ترتقب به ! (١)

وتحدثت السيدة زوجة ولى العهد ــ التى كانت من أوائل من اطلعوا عليها ــ إلى السيدة دى لوكسمبورج عنها، فوصفتها

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت النسخة تؤجر للقراءة باثنى عشر « سو » فى الساعة ، فى الأيام الأولى لظهور الكتاب » .



بأنها مؤلف يسلب الألباب . ولقد انقسمت الآراء بين أهل الأدب . أما لدى الجمهور ، فلم يكن ثمة سوى رأى واحد .. وافتتنت النساء ـ بوجه خاص ـ بالكتاب وبالمؤلف ، إلى حد أنه لم يكن بينهن من لم يكن فى وسعى أن أغزو قلوبهن ، لو أننى شئت ، سوى القليلات .. حتى فى الأوساط الراقية!.. ولدى على ذلك أدلة لا أبغى نشرها ولكنها تؤيد قولى ، دون ما حاجة إلى ذلك . ومن العجيب أن هذا الكتاب كان أكثر نجاحا فى فرنسا منه فى بقية أوربا ، بالرغم من أن الفرنسيين ـ رجالا ونساء ـ لم يجدوا منى معاملة طيبة جدا فيه . ولقد كانت ضآلة نجاحه فى سويسرا ، وعظم نجاحه فى باريس ، مناقضين لكل ما توقعت . أفهل كانت الصداقة والحب والفضيلة أكثر سلطانا فى باريس منها فى أى مكان آخر ؟ .. لا ، بلا شك ، وإنما كان لا يزال يغلب عليها ذلك الشعور العارم ، الذى ينتشى به القلب ، عندما تصور له الأحاسيس النقية ، الناعمة ، الفاضلة .. والذى يحدونا إلى أن نعتز بما لدى الغير من هذه الأحاسيس التى لم يعد لدينا منها شىء !.. ان الفساد يشيع اليوم فى كل مكان ، فلا وجود لأخلاق ولا لفضيلة فى أوربا . فماذا قدر أن يكون ثمة حب باق لها ، فان باريس هى المكان الذى يجب أن نبحث عنه فيه(١) .

وفى غمرة هذه الأباطيل والترهات العاطفية ، كان لا بد من الإلمام بتحليل القلب البشرى تحليلا صحيحا ، حتى لا يخلط

(١) أضاف « روسو » فى هامش كتابه : « كتبت هذا فى سنة ١٧٦٩ » .

المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها . كان لا بد ـ للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التى اشتمل عليها هذا الكتاب ـ من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقى ، إذا جاز لى أن أقول هذا . وانى لأشبه الجزء الرابع من هذا المؤلف بكتاب « أميرة كليف » ، دون ما تورع .. وأؤكد أن هذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى ، لو أن قراءتهما اقتصرت على الأقاليم وحدها . لذلك فلا عجب من أن أعظم نجاح ظفرت به « جولى » كان فى البلاط الملكى . فقد أثارت هناك أهواء عارمة ـ ولكنها مستترة ـ كانت خليقة بأن تحظى بالإعجاب ، لأن أفراد الحاشية كانوا على دراية ومران بأن يستشفوا ما وراءها . على أنه لا بد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة .. تلك هى أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات ، لا يلائم ـ يقينا ـ أولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم إلا إلى المكر ، والذين لم يؤتوا من اللماعية إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا السوء .. والذين لا يبصرون شيئا على الاطلاق ، حيث لا يتبدى للأبصار سوى كل ما هو طيب وحسن ! .. فلو أن « جولى » نشرت فى بلد معين يخطر ببالى ـ مثلا ـ لما أقبل أحد على قراءتها حتى نهايتها ، ولماتت فى يوم مولدها !

ولقد جمعت معظم الرسائل التى كتبت إلى عن هذا المؤلف، فى حزمة عهدت بها إلى السيدة « دى ناداياك » (١) . فماذا قدر

(١) كانت السيدة دى ناداياك رئيسة لدير (جومير فونتان) ، الذى كان يقسم بتيمات مدينة (روان) ، والذى كان يقع على مقربة من قصر « شاتو

Looloo
www.dvd4arab.com

لهذه المجموعة ان ترى النور ، فانها ستكشف عن كثير من الغرائب ، وعن تناقض فى الرأى ، يبين ما يلقاه المرء إذا ما تعرض لمسألة تهم الرأى العام . على ان اقل ما فطن إليه القوم ، هو عين الميزة التى ستجعل هذا المؤلف فريدا فى نوعه دائما .. ميزة بساطة الموضوع ، وتسلسل السياق الذى اقتصر على ثلاثة أشخاص ، وتتابع فى ستة مجلدات دون ما استعانة بأحداث ، أو مغامرات خيالية ، أو شوائب من أى نوع ، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة أو بتصرفاتهم !.. وكان « ديدرو » قد أطرى « ريتشاردسن » (٢) كثيرا ، للتنوع الهائل الذى تجلى فى مواقف قصته ، ولتعدد الشخصيات التى قدمها. وليس من شك فى ان « ريتشاردسن » كان موفقا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة. على أنه عمد ـ فيما يتعلق بصددها ـ إلى ما هو شائع لدى القصصيين غير الناضجين الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع . إذ أن من السهل استثارة الاهتمام ، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة ، التى

=

دى تير » ـ قلعة مدينة صور ـ حيث نزل « روسو » فترة من الزمن . ومما يذكر ، أن روسو كتب قطعة من الموسيقى الدينية . بوحى من هذه السيدة . ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة فى المكتبة الملكية . بالمتحف الفرنسى :.

(٢) « ريتشارد سن » مؤلف « أميرة كليف » التى يتيسها روسو بقصته « جولى » :.

تتوالى وكأنها أطياف مصباح سحرى .. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام ، بنفس الأشياء ، ودون ما وقائع غريبة مدهشة ، امر بالغ المشقة !.. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات ، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب .. ومن هنا نرى أن قصص « ريتشاردسن » ، وإن تفوقت فى كثير من الاعتبارات ، إلا انها لا تقاس ، من هذه الناحية ، بقصتى . وإذا كانت هذه قد ماتت ـ وإنى لأدرك هذا ، وأعرف السبب ـ إلا انها لن تلبث أن تبعث من جديد !

وما كنت اخشى سوى أن يكون تطور القصة مملا ، بحكم بساطته ، وأن اكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام، يظل مستمرا حتى نهايتها ، ولكنى لم ألبث أن اطمأننت ، بفضل واقعة هزت مشاعرى اكثر مما هزتها جميع التهانى والمديح التى اجتلبها على هذا الكتاب :

ذلك ان القصة ظهرت فى بداية أعياد المرافع (الكرنفال). فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيدة الأميرة « دى تالمون » (١) ، فى احد الأيام التى اقيمت بها الحفلات الراقصة بدار « الاوبرا » . وبعد أن تناولت السيدة العشاء ، ارتدت ثيابها تأهبا للذهاب إلى الحفلة . حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة ، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة ، وعند منتصف الليل، امرت بأن تشد الجياد إلى عربتها ، ثم واصلت القراءة . واقبل

(١) استدرك « روسو » فى هامش كتابه قائلا : « لم يكن هى ، وانما كانت سيدة اخرى ، لا اعرف اسمها » . بيد اننى تأكدت من الواقعة ذاتها ».

Looloo www.dvd4arab.com



وإذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها ، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحًا ..

Looloo
www.dvd4arab.com

من أعلنها بأن العربة معدة ، ولكنها لم تجب . وإذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها ، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحا . فقالت وهى مسترسلة فى القراءة : « لا داعى بعد للعجلة ! » . وبعد فترة ، تبينت أن ساعتها كانت قد توقفت عن العمل ، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت ، فقيل لها أن الساعة كانت الرابعة . فقالت : « إذن فالوقت جد متأخر ، ولا سبيل إلى الذهاب إلى المرقص ، فأطلقوا الجياد ! » . وخلعت ثيابها ، ثم قضت بقية الليل فى القراءة !

ومذ رويت لى هذه الواقعة ، أصبحت مشوقا دائما إلى رؤية السيدة دى تالمون ، لا لكى أعرف منها ـ بالذات ـ أن الواقعة صحيحة ، فحسب ، وإنما لأننى لم أكن أظن قط أن من الممكن أن يشعر أى شخص بمثل هذا الاهتمام المحتدم نحو « جولى » ، دون أن يكون قد أوتى الحاسة السادسة .. حاسة الإدراك الخلقى والأدبى التى لم تحظ بها سوى قلوب قلائل ، والتى لا سبيل بدونها إلى فهم قلبى !

ولقد كان الأمر الذى جعل النساء يؤثرننى بهذه الدرجة ، هو الاعتقاد الذى داخلهن بأننى أودعت الكتاب سيرتى الحقيقية ، وأننى بالذات ، كنت بطل هذه القصة . ولقد بلغ من تغلغل هذا الاعتقاد ، أن كتبت السيدة دى بولينياك إلى السيدة دى فرديلان ، لترجونى أن أسمح لها بأن ترى صورة « جولى » . فلقد اقتنع الناس جميعا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الإبداع ، دون أن أكون قد شعرت بها .. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج ، ما لم تكن

منبعثة من الفؤاد مباشرة . ولقد كان الناس على حق فى ذلك ، فمن المحقق اننى كتبت هذه القصة وأنا فى أشد حالات الجوى استعارا .. على أن من الخطأ الظن بأنه لا بد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهيب .. كما أن من أبعد الأمور عن الإدراك ، تصور مدى الوجـد الذى كانت تذكيه فى فؤادى مخـلـوقات خيالية موهومة ، ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا ، ومن السيدة دوديتو ، لم يكن الشوق ــ الذى كابدته ووصفته ــ قائما إلا نحو أطياف الخيال السابحة فى الهواء .

ولم أشأ أن أعزز أو أن أهدم خطأ كان فى صـالحى . ومن الميسور للمرء أن يتبين من المقدمة التى صـغتها على شكل حوار ، والتى طبعتها على حدة ، كيف تركت الرأى العام فى شك إزاء هذه النقطة. وقد يقول المتزمتون إن الواجب كان يقتضينى أن أعلن الحقيقة بجلاء تام . على أننى ــ من ناحيتى ــ لا أرى التزاما كان يحدونى إلى أن أفعل ذلك ، وأعتقد أننى كنت خليقا بأن أبدو غبيا ، أكثر منى صريحا ، لو أننى أقدمت على هذا البيان ، دون ما ضرورة تدعو إليه !

***

وظهر حوالى ذلك الوقت ــ تقريبا ــ « السلام الدائم » ، الذى كنت قد عهدت ، فى العام السابق ، بمخطوطه إلى شخص ــ يدعى السيد « دى باستيد » ــ كان رئيس تحرير صحيفة تدعى « لومونـد » ، أى العالم ، وقـد رغب فى أن ينشر كل مخطوطاتى فى هذه الصحيفة ، رضيت أم لم أرض ! .. ولقـد كان من معارف السـيد ديكلو ، فراح يلح على باسـمه فى أن

أساعده على ملء صفحات « لوموند » . وكان قـد سمع عن « جولى » ، فأرادنى على أن أنشرها فى صحيفته ، كما ود لو أنشر فيها « اميل » . وكان خليقا بأن يرغب فى أن أنشر فيها « العقد الاجتماعى » لو أنه حدس وجوده . فلما ضقت بإلحاحه ــ فى النهاية ــ قررت أن أنزل له عما خرجت به من « السلام الدائم » فى مقابل اثنى عشر « لوى » . وكان الاتفاق بيننا على أن ينشره فى صحيفته ، ولكنه لم يكد يستولى على المخطوط ، حتى رأى أن يطبعه فى كتاب مستقل ، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب . ترى ما الذى كان خليقا بأن يحدث ، لو أننى كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائى وتعليقاتى على الكتاب الأصلى ؟ أننى لحسن الحظ لم أتحدث عنهـا إلى السيد دى باستيد ، ومن ثم فانها لم تدخل ضمن صفقتنا !.. ولا تزال هـذه الآراء بين أوراقى ، مسـجلة بخط اليـد (١) . وإذا قدر لها أن تظهر ، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات « فولتير » وآراؤه الممتدة ، فى هذا الموضوع ، خليقة بأن تضحكنى .. أنا الذى أدرك تمام الادراك مدى ذكاء هذا المسكين ، فيما يتعلق بالأمور السياسية التى جرؤ على أن يقحم نفسه فيها !

وفى غمرة نجاحى لدى الرأى العام ، والحظوة التى نلتهـا لدى السيدات ، رحت أشعر بأننى كنت أفقد مكانتى فى قصر دى لوكسمبورج ، لا لدى السيد المارشال ــ الذى كان يبـدو

(١) اقرأ عن أصل هذا الكتاب فى صفحات ٢١٢ و ٢١٣ و ٢١٤ من الجزء الثالث .

Looloo
www.dvd4arab.com

انه راح يضاعف بره بى وصداقته لى ، يوما بعد يوم ــ وإنما لدى السيدة المارشالة !.. فان مخدعها لم يعد يفتح كثيرا فى وجهى ، بعد ان لم يعد لدى ما اقرؤه عليها . ومع اننى كنت اتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زياراتهما لمونمورنسى ــ إلا اننى أصبحت نادرا ما اراها ، فى غير أوقات اجتماعنا حول المائدة . بل ان المقعد المجاور لها ، لم يعد قاصرا على وحدى، كما كان العهد من قبل !.. وإذ لم تعد السيدة تعرضه على ، واصبحت تقسط فى الحديث إلى ، ولم يعد لدى ــ انا الآخر ــ الكثير مما يقال لها ، فإننى ارتحت كثيرا إلى اتخاذ مكان آخر حول المائدة ، كنت اشعر فيه بالحرية ، لا سيما فى المساء ، إذ وجدتنى اتعود ــ دون أن افطن ــ الجلوس على مقربة من السيد المارشال .

وبمناسبة « المساء » ، اتذكر اننى قلت اننى لم اكن أتناول العشاء فى القصر . وقد كان هذا صحيحا ، فى بداية التعارف. على انه لما كان السيد دى لوكسمبورج قد اعتاد الا يتناول غداء قط ، بل ولا إلى ان يظهر حول مائدة الغداء ، فقد ترتب على ذلك اننى لم اتناول الطعام معه قط ، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا ، كنت فيها قد الفت التردد على الدار . وكان من الكرم بحيث اشار إلى ذلك ، مما دعانى إلى ان اقرر الذهاب لتناول العشاء هناك ، فى بعض الأحيان التى لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون . وكنت أستمتع بذلك كثيرا ، إذ اننا كنا قد اعتدنا ــ تقريبا ــ تناول الغداء فى الهواء الطلق ، و « دون ما كلفة » ــ كما يقال ــ فى حين ان العشاء كان يستغرق وقتا طويلا ، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة

الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام .. وكان الطعام جد شهى، لأن السيد دى لوكسمبورج كان أكولا .. كما كانت المائدة مستحبة ، لأن السيدة دى لوكسمبورج كانت تقترح الأنخاب، فى كثير من الجلال واللطف الساحرين . وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التى وردت فى ختام إحدى رسائل السيد دى لوكسمبورج (الملف « ج » ــ رقم ٣٦) ، إذ قال السيد انه كان يتذكر نزهاتنا بكثير من السرور ، لا سيما حين كنا نعود إلى القصر فى المساء ، فلا نجد أثرا لعجلات العربات فى ساحة القصر . ذلك لأنه لما كانت الرمال ــ التى يكتسى بها الفناء ــ لا تسوى إلا فى الصباح ، فاننى كنت أستطيع أن أحدس من عدد الخطوط التى تخلفها عليها العجلات ، عدد الضيوف الذين وصلوا فى فترة الأصيل !

* * *

ولقد اترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التى حاقت بهذا السيد الكريم مذ كان لى شرف التعرف إليه ، وكأنما كانت الشرور التى راح القدر يعدها لى ، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذى شعرت نحوه بأصدق الود ، والذى كان جديرا بكل ولاء .. ففى العام الأول لتعارفنا ، فقد أخته : السيدة الدوقة دى فيلروى .. وفى العام الثانى ، فقد اخته السيدة الأميرة دى روبيك .. وفى الثالث ، فجع فى ابنه الأوحد ــ الدوق دى مونمورنسى ــ وفى حفيده الكونت دى لوكسمبورج ، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها . ولقد تحمل السيد المارشال كل هذه النكبات بجلد باد ــ فى الظاهر ــ ولكن قلبه ظل ــ فى

Loolee www.dvd4arab.com

الخفاء ـ داميا ، ما تبقى من حياته ، وراحت صحته تضمحل . وكانت ميتة ابنه ـ المفجعة ، غير المتوقعة ـ جديرة بأن تكون أشد تأثيرا عليه من كل شىء ، إذ انها حدثت فى عين اللحظة التى كان الملك قد منح فيها ابنه ـ ووعد بأن يمنح حفيده ـ الحق فى ان يخلفه فى قيادة الحرس الخاص . وقدر عليه ان يتعذب برؤية حياة هذا الطفل ـ حفيده ـ الذى تركزت فيه كل هذه الآمال ، تذوى رويدا أمام عينيه ، من جراء ما كان لأمه من ثقة عمياء بالطبيب الذى تسبب فى وفاته .. فقد مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء ، إذ انه لم يكن يتغذى على غير العقاقير !

واحسرتاه ! .. ليتهم أخذوا برايى ، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة ! .. فكم قلت وكم كتبت للسيد المارشال .. وكم جلوت الراى للسيدة دى مونمورنسى ، بصدد نظام التغذية ، الذى كان يتجاوز حدود التقشف ، والذى كانت تتبعه نحو ابنها ، بسبب ثقتها بالطبيب ! .. ومع أن السيدة دى لوكسمبورج كانت تشاطرنى الراى ، إلا أنها لم تشأ ان تتدخل فى سلطة الأم ، كما أن السيد دى لوكسمبورج كان لطيفا ، لينا ، فلم يشأ أن يعارضها ! .. وكانت السيدة دى مونمورنسى تكن للطبيب « بوردو » ثقة انتهت بأن راح ابنها ضحية لها ! .. لشد ما كان الصغير المسكين يغتبط ، كلما استطاع ان يحصل على إذن بالحضور إلى (مون ـ لوى) مع السيدة دى بوفلير ، إذ كان يطلب إلى تيريز بعض الطعام، فيودع امعاءه الخاوية شيئا من الغذاء ! .. لكم كنت أرثى

ـ فى دخيلتى ـ لتعاسات العظمة ، كلما رأيت هذا الوريث الأوحد لمثل هذه الثروة الواسعة ، ومثل هذا الاسم الرفيع، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة ، يلتهم فى نهم المتسول كسرة صغيرة ، متواضعة ، من الخبز ! .. على أن الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت .. ومات الصغير جوعا !

وهذه الثقة فى الدجالين وادعياء الطب ـ التى أهلكت الحفيد ـ هى ذاتها التى حفرت قبر الجد ، فضلا عن انه كان من ضعف العقل ، بحيث راح يحاول أن يخفى على نفسه علل الشيخوخة . فلقد كان السيد دى لوكسمبورج يعانى ـ بين آن وآخر ـ آلاما فى الأصبع الكبرى لقدمه . وقد تعرض ـ أثناء وجوده فى مونمورنسى ـ لنوبة حرمته النوم ، وجعلته شبه محموم . وإذ جرؤت على أن ألفظ كلمة « النقرس » ، انهالت السيدة دى لوكسمبورج على تأنيبا ، فقد أعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من النقرس فى شىء، وراحا يسبغان على العضو الموجوع بلسما ، وهدأ الألم ـ لسوء الحظ ـ فلما أخذ يعود بعد ذلك ، كانوا يلجأون ، دون ما تردد ، إلى عين الدواء الذى أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل .. وباضمحلال صحة السيد المارشال ، أخذت آلامه تزداد ، فكانت العقاقير تزداد معها ! .. وعندما تبينت السيدة دى لوكسمبورج ـ فى النهاية ـ ان النقرس هو الذى كان مصدر الآلام ، عارضت هذا العلاج الأخرق . فراحوا يكتمون عنها ـ بعد ذلك ـ حاله ، حتى مات السيد دى لوكسمبورج بعد سنوات قلائل ، بفضل خطئه ، ومن جراء إصراره على أن يعالج نفسه بنفسه ، وفق هواه . ولكن ..

looloo www.dvd4arab.com

ليس لنا أن نمعن فى استباق المصائب ، فكم لدى من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك !

* * *

ولقد كان من النحس العجيب حقــا أن كل شىء كنت أقوله أو أفعلــه ، بدا وكأنه مسوق إلى أن يسوء السيدة دى لوكسمبورج ، ولو كنت فى أشد الشوق إلى أن أحتفظ برضاها !.. ولم تكن الآلام التى احتملها السيد دى لوكسمبورج ـــ من الصدمات التى تعاقبت عليه ـــ تزيدنى إلا تعلقا به ، وبالتالى ، بالسيدة دى لوكسمبورج ، إذ كانا يبدوان دواما صادقى الاتحاد إلى درجة أن العواطف التى تخالج المرء نحو أحدهما ، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر !.. ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيد المارشال . كان حضوره المتواصل فى البلاط الملكى ، والواجبات التى يتطلبها ذلك ، ورحلات الصيد المتتابعة ، والارهاق الذى كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد ، كل هــذه كانت تتطلب قوة الشباب ، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التى يتطلبها منصبه . وإذ لم يكن ثمة بد من أن توزع رتبه على الغير ، وأن ينطفىء بريق اسمه بعد موته ـــ لعدم وجود وريث له ـــ فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يستمر فى حياة عملية مرهقة ، كانت الغاية الرئيسية منها هى أن يستبقى لأبنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل !

وفى أحد الأيام ، كنا نحن الثلاثة معا ، ولا غريب بيننا ، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب واجباته فى البلاط ، بروح الرجل الذى ثبطت المصائب عزيمته . فجرؤت على أن

أحدثه عن التقاعد ، وازجيت إليه النصيحة التى قدمهــا «سينياس» إلى «بيروس»(١) . فتنهد ولم يجب برأى قاطع. ولكن السيدة دى لوكسمبورج راحت ـــ فى أول لحظة رأتنى فيها على حدة ـــ تلومنى فى عنف على نصيحتى التى أزعجتها.. على ما بدا لى . وأضافت إلى ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بعدالتها ، ولم تلبث أن حولتنى عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع .. تلك هى أن اعتياد العيش فى البلاط الملكى طويلا، أصبح ضرورة لا غنى عنهــا . بل إنه كان ـــ حتى فى تلك الظروف ـــ ملهاة تصرف بال السيد دى لوكسمبورج عن همومه، وأن اعتزال البلاط ـــ الذى نصحته به ـــ لن يكون مبعث راحة واستجمام له ، بقدر ما يكون إقصــاء ونفيا !.. ولن يلبث الخمول والملل والحزن أن يضعا لحياته نهاية !.. ومع أنهــا رأت ولا بد أنها قد اقنعتنى ، ومع أنها كانت تستطيع أن تركن إلى الوعد الذى قطعته لها ، والذى ظللت أصونه ، فقد لاح لى أنها لم تطمئن يوما من هذه الناحية . وانى لأذكر أن اختلائى

---

(١) كان « بيروش » ملكا على (ابيرس) بين سنتى ٣١٨ و ٣٧٢ قبل الميلاد ، وقد غزا ايطاليا قبل وفاته بثمانى سنوات ، ومع أنه هزم الرومان مرتين ، الا انه تكبد خسائر جسيمة ، وكتب عليه ان ينكسر فى النهاية وأن يعود الى بلاده اليونانية ، أما « سينياس » فكان وزيره ومستشاره ، وكان الملك يقول انه بحكمته اكسبه من المدن ما لم تكسبه اياها الجيوش . على أن الوزير كان يعارض جموح الملك فى مطامعه ، وقد حاول أن يثنيه عن غزو ايطاليا بحديث سجله التاريخ مثالا للنصح البليغ ، وهو الذى أشار اليه « روسو » .

Looloo
www.dvd4arab.com

بالسيد المارشال أصبح ـ منذ ذلك الحين ـ نادرا ، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلها !

وفى الوقت الذى تعاونت فيه بلاهاتى ونحسى على الإساءة إلى ـ لدى السيدة ـ لم يكن هناك من يشفع لى لديها ، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها .. لا سيما الراهب دى بوفلير الذى أوتى أكبر قسط من الذكاء يتاح لشاب فى سنه ، والذى لم يكن يميل إلى البتة ! .. ولم يقتصر أمره على أنه كان الوحيد ـ فى حاشية السيدة المارشالة ـ الذى لم يكن يبدى أتفه احتفاء بى ، على الاطلاق ، بل إننى لاحظت ـ فى كل زيارة يؤديها إلى مونمورنسى ـ أننى كنت أفقد شيئا من حظوتى لدى السيدة . على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدى إلى ذلك ، دون أى تعمد من ناحيته .. فإن سخافاتى كانت تبدو معتمة ، ثقيلة ، إلى جانب لماحاته المتسمة بالجلال وبسمو الروح . ولقد كانت زياراته لمونمورنسى نادرة ، خلال العامين الأولين ، وكنت بفضل تسامح السيدة المارشالة ، قادرا على أن أحتفظ بمكانتى ولكنه لم يكد يزداد انتظاما فى زياراته ، حتى وجدتنى مقصيا عن هذه المكانة، دون ما أمل فى استعادتها !

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوى تحت جناحه ، وأن أتخذ الوضع الذى يحمله على مصادقتى ، لولا أن حرج موقفى ـ الذى جعل من رضاه عنى ضرورة لازمة لى ـ كان هو عين السبب الذى منعنى من أن أكسب هذا الرضى ! .. وإذا كل ما رحت أبذل فى هذا الصدد ؛ يطيش فيؤدى إلى القضاء على ما كان لى من حظوة لدى السيدة المارشالة ، دون

أن يجدينى أى نفع فى التقرب إليه ! .. وكان فى وسعه أن يوفق فى كل شىء ، بفضل ذكائه ، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار فى الدأب ، وميله إلى النزق واللهو ، لم يمكناه من أن يكتسب سوى حذق غير مكتمل فى كل عمل . ولقد أتيح له ـ على سبيل التعويض ـ أن يؤدى كثيرا من هذه الأعمال، فكان هذا ـ فى حد ذاته ـ هو كل ما يلزمه لكى يلمع فى المجتمع الراقى ، الذى كان يصبو إلى التألق فيه ! .. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة ، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة ، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة ، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة. وقد أبدى رغبة فى أن يرسم لوحة للسيدة دى لوكسمبورج ، فجاءت اللوحة بشعة ، وقالت السيدة إنها لم تكن تشبهها فى شىء ، وقد كانت محقة تماما فى ذلك . ولقد سألنى الراهب الغادر رأيى ، فإذا بى ـ كأى غبى كذاب ـ أزعم أن اللوحة كانت تشبهها . وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب ، ولكننى لم أتملق السيدة المارشالة ، فسجلتها ضدى فى قائمة الأخطاء ، بينما راح الراهب يضحك منى ، بعد أن نجحت خدعته ! .. ولقد تعلمت ـ بفضل نتيجة هذه المحاولة ، التى جاءت متأخرة، فى الملق والمداهنة ـ ألا أقدم مختارا على الرياء والتملق ، بالرغم من منيرفا(1) !

❋ ❋ ❋

---

(1) « بالرغم من منيرفا » : مثل اصطلح عليه ، فى الحديث عمن يصر على عمل لم يؤت موهبة تمكنه من اتقانه ، وكان يطلق أصلا على الشاعر الذى يمارس النظم وان لم يؤت ملكة الشعر .

Looloo
www.dvd4arab.com

لقد كانت ميزتى التى فطرت عليها ، هى أن أقول للناس حقائق مفيدة ــ ولكنها جافة قاسية ــ فى كثير من التحمس والشجاعة . وكان خليقا بى أن أظل على ذلك . . إننى لم أخلق قط لكى أطرى ــ ولن أقول : أتملق ــ الغير . ولقد كان سوء توجيه الاطراء الذى حاولت أن أزجيه ، أكثر ايذاء لى من أقسى لوم قدر لى أن أصدره . وانى لأذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتى فحسب ، بل إنها ربما أثرت على سمعتى كذلك ، عبر الأجيال !

فلقد اعتاد السيد « دى شوازيل »(١) أن يفد إلى القصر لتناول العشاء ، فى بعض الأحيان ، خلال فترات إقامة السيد والسيدة دى لوكسمبورج فى مونمورنسى . وأقبل ذات يوم ، وأنا أغادر القصر . فدار الحديث عنى ، وروى له السيد دى لوكسمبورج قصتى فى (البندقية) مع السيد دى مونتيجى . فقال السيد دى شوازيل إنه كان من الخسارة حقا أن هجرت العمل الديبلوماسى ، واننى إذا رغبت فى العودة إلى هذا العمل ، فلن يجد ما يسره أكثر من أن يستخدمنى . وأبلغنى السيد دى لوكسمبورج بالأمر ، فتأثرت به أكثر مما ينبغى ، إذ أننى لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية مجاملة . وليس بوسعى أن

---

(١) الدوق اتيين ـ فرانسوا دى شوازيل ، كان وزيرا للخارجية فى عهد لويس الخامس عشر ، وأبدى براعة فى اصلاح النتائج السيئة التى ترتبت على حرب السنوات السبع . وتدين له فرنسا بكثير من الأفضال العسكرية والدبلوماسية . وقد عاش بين عامى ١٧١٩ و ١٧٨٥

أجزم بأننى لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسى أحمق ، مرة أخرى ــ بالرغم من قراراتى السابقة ــ لو أن صحتى كانت تتيح لى أن أفكر فى الأمر ! إن الطموح لم يعتد أن يتملكنى إلا فى الفترات الموجزة التى كانت كل الشهوات الأخرى تفارقنى خلالها . ولكن فترة واحدة من هذه الفترات ، كانت كفيلة بأن تذكى عواطفى مرة أخرى . ومن ثم فإن هذه النية الكريمة من السيد دى شوازيل ، ملكت على شعورى ، ودعمت التقدير الذى كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتنى على أن أكنه له . فقد كان « حلف الأسرة » بالذات ، يبدو ــ فى نظرى ــ دليلا على أن الرجل كان سياسيا من ساسة الصف الأول (١) . وقد ازددت تقديرا عندما قارنت أعماله بأعمال من سبقوه فى المنصب ، دون أن أستثنى منهم السيدة دى بومبادور التى كنت أعتبرها بمثابة « رئيس للوزراء » ! . . وعندما كان يشاع أن واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء ، فأعتقد أننى كنت أدعو بالنصر لفرنسا ، عندما كنت أدعو بالنصر للسيد دى شوازيل .

ذلك لأننى كنت أستشعر دائما نفورا من السيدة دى بومبادور ، حتى عندما رأيتها ــ قبل أن يرتفع نجمها ــ لدى السيدة ديلا بوبلينير ، وكانت إذ ذاك ما تزال تحمل اسم السيدة ديتوال . ومنذ ذلك الحين ، أحنقنى منها صمتها إزاء

---

(١) حلف الأسرة : معاهدة تحالف عسكرى ، أبرمت فى سنة ١٧٦١ ، بين الأسرتين الملكيتين فى فرنسا وأسبانيا ، وكانتا تنتميان إلى آل بوربون .

Looloo
www.dvd4arab.com

موضوع « ديدرو »(١) ، ومسلكها نحوى ، سواء فيما يتعلق بتمثيليتى « أعياد رامير »(٢) أو « عرائس الشعر اللطاف »(٣)، أو أوبرا « عراف القرية »(٤) التى لم تعد على بأى دخل أو نفع يتناسب مع نجاحها . ففى كل هذه المناسبات، كنت أجد السيدة دى بومبادور قليلة الحرص على أن ترضينى . على أن هذا لم يمنع الشيفالييه دى لورنزى من أن يقترح على أن أؤلف شيئا فى مديح هذه السيدة ، فى تلك الآونة ، موحيا إلى بأن هذا قد يجدينى نفعا . ولقد أثار هذا الاقتراح استنكارى، لا سيما إذ رأيت بجلاء أنه لم يكن صادرا عنه شخصيا . . وقد أدركت تماما أن هذا الرجل ، الذى لم يكن ذا قيمة — فى حد ذاته — لم يكن ليفكر أو يعمل قط ، إلا بإيعاز من سواه . ولم أوت قط من القدرة ما يمكننى من كبح نفسى لكى أخفى عنه ازدرائى لاقتراحه . . أو لكى أخفى عن أى امرىء آخر عدم

---

(١) كان « ديدرو » قد سجن ، وكتب « روسو » الى السيدة دى بومادور كى تعمل على اطلاق سراحه (صفحة ١١٦ — الجزء الثالث) .

(٢) أوبرا كان « فولتير » قد وضع كلماتها ، كما وضع « رامو » الحانها، ثم عهد الدوق ويشليو الى « روسو » بأن يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما (انظر صفحة ٩٣ ، من الجزء الثالث) .

(٣) أوبرا كان قد شرع فى تأليفهما فى أول عهده بالاقامة فى باريس (صفحة ٢٤ — الجزء ٣) ، وعرضت فى حفلة خاصة حضرها ريشيليو (صفحة ٩٢ — جزء ٣) .

(٤) أوبرا من تأليف روسو ، عرضت على مسرح القصر الملكى بحضور الملك . (صفحة ١٦٠ — الجزء ٣) .

ميلى إلى الحظوة الموعودة . ولقد أدركت هى ذلك ، وإنى لموقن من ذلك . . كل هذه الاعتبارات وحدت بين مصلحتى الذاتية وميولى الطبيعية ، فى الأدعيات التى كنت أرجو فيها النجاح للسيد دى شوازيل . . وكنت قد شعرت — قبل ذلك — بتحبيذ لمقدراته ومواهبه ، التى كانت كل ما أعرفه عنه . . كما إننى كنت مفعما بالعرفان لما أبداه نحوى من نوايا طيبة ، جاهلا — فى عزلتى — بأذواقه ومسالكه فى الحياة ، ومن ثم فقد رحت أتطلع إليه كأنه المنتقم للجمهور ولى ! . . ولما كنت — فى ذلك الحين — منصرفا إلى وضع الخطوط النهائية فى مؤلفى « العقد الاجتماعى » ، فاننى وضعت فى فقرة واحدة رأيى فى الوزارات السابقة ، وفى هذه الوزارة أوشكت أن تطغى عليها. ولقد أغفلت — فى هذه المناسبة — أكثر مبادئى رسوخا فى نفسى ، ولم يخطر ببالى أن المرء إذا أراد أن يتحمس فى المديح وفى اللوم ، فى مقال واحد — دون أن يورد أسماء ما — فمن الواجبأن يقصر المديح على أولئك الذين يقصدهم به ، بأسلوب لا يجعل مجالا لأشد النفوس أنانية ، لأن تسىء فهمه . ولقد كنت من الحماقة بحيث ظننتنى فى مأمن من هذا ، فلم يخطر ببالى قط أن من الممكن تأويل ما قصدت إليه . ولسوف يتجلى فيما بعد ما إذا كنت قد أصبت !

ومن مظاهر سوء طالعى ، أننى كنت دائما على اتصال ببعض الكاتبات من النساء . وقد خلت أننى لن ألبث أن أتفادى ذلك ، بعلاقاتى بسيدات الطبقة الراقية على الأقل . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، بل إن حظى ظل يلاحقنى . ومع أن السيدة دى لوكسمبورج لم تتعرض قط لهذه النزوة — فيما

Loolaa www.dvd4arab.com

كنت أعرف ــ إلا ان السيدة الكونتة دى بوفلير كانت مصابة بها . فقد كتبت مأساة ــ تمثيلية نثرية ــ قرئت فى البداية ، ثم اديرت على حاشية السيد الأمير دى كونتى فقوبلت بإطراء . ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الإطراء ، فشاءت أن تستشيرنى انا الآخر ، لتحظى بالثناء منى . وقد منحتها هذا الثناء ، ولكن فى عبارات معتدلة ، بقدر ما كان المؤلف يستحق . وفوق ذلك، فقد رايت ان من واجبى أن أطلعها على أن تمثيليتها ــ التى كانت بعنوان « العبد الكريم » ــ شديدة الشبه جدا بمسرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع ، ولكنها ترجمت إلى الفرنسية ، وكانت تحمل اسم « اورونوكو » . ولقد شكرت لى السيدة دى بوفلير رأيى ، واكدت لى لفورها الا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى . ولم ابح قط بهذه السرقة الادبية لمخلوق من البشر سواها ، وما صارحتها ــ هى ــ إلا اداء لواجب القته على عاتقى . بيد أن هذا لم يصدنى عن أن اكثر من التفكير ــ منذ ذلك الحين ــ فى الطريقة التى ادى بها « جيل بلا » واجبه نحو الأسقف الواعظ ، وما ترتب على ذلك . (1)

***

(1) قصة « جيل بلا » من أكمل المؤلفات الخلقية ، وقد وضعها « لوساج» فى سنة ١٧١٥ ، وجعل بطلها يعيش مثالا للأخلاق ، برغم ما كانت الحياة تطوح به اليه من أحداث . والحادث الذى أشار اليه « روسو » ، دار بين «جيل بلا» و « أسقف غرناطة » ، وقد رسم فيه « لوساج » صورة رائعة للكتاب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة ، ولكنهم لا يفون لها فيما بينهم وبين أنفسهم !

وإلى جانب الراهب دى بوفلير ــ الذى لم يحبنى قط ــ والسيدة دى بوفلير ، التى ارتكبت نحوها اخطاء لا تغتفرها امراة ولا كاتبة ، فان بقية أصدقاء السيدة المارشالة كانوا دائما قليلى الميل إلى ان يكونوا أصدقاء لى . وكان منهم السيد دى « هينو » رئيس البرلمان ، الذى لم يعفه انضمامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم .. والسيد « دوديفان » ، والآنسة « دى ليسبيناس » ، اللتان كانتا على صلة وثيقة بفولتير ، وعلى صداقة حميمة بدالمبير ، الذى انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه . بكل شرف وصلاح طبعا ، فيجب الا يؤول هذا على اى محمل آخر !.. ولقد بدأت بشعور قوى نحو السيدة دوديفان ، التى أثار ضياع بصرها إشفاقى . ولكن منهجها فى المعيشة كان يناقض منهجى تماما ، حتى أن ساعة استيقاظ احدنا من النوم ، كانت هى ساعة هجوع الآخر تقريبا .. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة ، والأهمية التى كانت تضفيها ــ سواء بالحق أو بالباطل ــ على كل خلاف كان يظهر ، والعنف الغاشم الذى كانت تطلق به تعليقاتها فى لهجة خطابية، ومغالاتها فى التعصب لكل شىء أو ضد كل شىء ــ مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم فى موضوع إلا بانفعال ــ وتحيزها الذى كان يفوق المعقول ، وعنادها الذى لا يلين ، وتحمسها غير الحكيم الذى كان يحملها عليه التعنت لآرائها المستوحاة من العاطفة .. كل هذه لم تلبث أن حولتنى عن الاهتمام الذى كنت على استعداد لأن اوليها إياه ! .. فاهملتها . ولقد لاحظت ذلك ، فكان هذا كافيا لأن يثير شخطها . ومع انني شعرت

Looloo
www.dvd4arab.com

بمدى ما ينبغى أن يخشاه المرء من امرأة لها هـذه الشخصية ، إلا اننى كنت أوثر أن أعرض نفسى لسعار حقـدها ، على أن اعرضها لودها !

وكانما لم يكف ان يكون لى أصدقاء قليلون فى حاشية السيدة دى لوكسمبورج ، فاذا لى أعداء فى أسرتها .. ومع ان هؤلاء الأعداء انحصروا فى واحد، إلا انه كان ـ فى الموقف الذى أصبحت اجد نفسى فيه ـ يعادل مائة . ومن المحقق أن هذا الشخص لم يكن اخاها ، السيد الدوق دى فيلروى ، الذى لم يكتف بأن زارنى فى دارى ، بل دعانى عدة مرات إلى ضيعة (فيلروى) .. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب ، فانه اخذ هذا الجواب على محمل القبول ، ودبر مع السيد والسيدة دى لوكسمبورج رحلة تستغرق حوالى خمسـة عشر يوما ، كان على أن أرافقهم فيها . وكانت التدابير التى تتطلبها صحتى ، لا تسمح لى بأن أنتقل من دارى دون ما تعرض للضرر ، فرجوت السيد دى لوكسمبورج بأن يتكرم بالاعتذار عنى . ويرى من جوابه (الملف « د » ـ رقم ٣) انه أدى ذلك ابدع اداء ممكن، ولم يبد لى السيد الدوق دى فيلروى عطفا يقل عما عهدت منه. ولكن ابن اخيه ، ووريثه ـ المركيز دى فيلروى الشاب ـ لم بشاطر ما شرفنى به من عواطف كريمة .. واعترف اننى ـ بدورى ـ لم اوله ما كنت أولى عمه من احترام . وكانت مظاهره المتعجرفة ، الفاسدة تجعله ـ فى نظرى ـ لا يطاق . فاذا فتورى نحوه لا يجلب على سوى بغضائه .

وفى ذات مساء ، ذهب إلى درجة أن سبنى على المـائدة ،

فأسأت تلقى الاهانة ، لأننى غبى ، ولست حاضر البديهة ، بل ان الغضب يسلبنى القدر الذى أوتيته من الذكاء ، بدلا من أن يرهفه ويشحذه . وكان لدى كلب تلقيته هدية ـ وهو بعـد صغير ـ عقب وصولى إلى (ليرميتاج) مباشرة ، واطلقت عليه اسم « دوق » . ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلا ، إلا انه كان من سلالة نادرة ، وقد جعلته صـديقى وصاحبى ، وكان ـ يقينـا ـ اكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين استحلوه لأنفسهم ، فلم يلبث أن غدا محبوبا فى قصر مونمورنسى بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة ، وبفضـل تعلق كل منا بالآخر ، بيد أننى فى لحظة من لحظات الضعف الأحمق ، غيرت اسمه إلى « تركى » ، وكأنما لم تكن هناك مئات من الـكلاب تدعى « مركيز » ، دون أن يشعر أى « مركيز » بإهانة فى ذلك. ولقد راح المركيز دى فيلروى ـ الذى علم بهذا التغير فى الاسم ـ يلح على ، حتى اضطرنى إلى أن أروى ما فعلت ، فى حضور القوم .. ولم تكن الاهانة التى نشأت عن اسم «دوق» ـ فى القصـة ـ ممثلة فى إطلاقه على كلب ، وإنما فى أننى لم البث أن جرمته منه . وكان أسـوأ ما فى الأمر ، هو أن كثيرا من الأدواق (١) كانوا حضورا ، وكان السـيد دى لوكسمبورج دوقا ، وكذلك كان ابنـه . وكان المركيز دى فيلروى مرشحا لأن يصبح دوقا ـ وأنه لكذلك الآن ـ فراح يلهو فى قسـوة بالحرج الذى دفعنى إليه ، وبالأثر الذى أحدثه . ولقـد تأكدت

---

(١) يفضّل المترجم أن يجمع « دوق » على « أدواق » ، تمييزا له عن « دوقات » ، وهى جمع « دوقة » .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ فى اليوم التالى ـ بأن عمته قد أنبته فى عنف على ذلك . ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التقريع كفيلا بأن يصلح علاقاتى به كثيرا ، لو أننا افترضناه صادقا !

ولم يكن لى من مدافع ضد هذا كله ـ سواء فى قصر لوكسمبورج أو فى القلعة ـ سوى الشيفالييه دى لورنزى ، الذى كان يجاهر بأنه صديقى . ولكنه كان ما يزال صديقا لدالمبير ، أكثر مما كان لى ، فقد راح ـ تحت رعايته ـ يلقى حظوة لدى النساء ، بزعم أنه عالم هندسى كبير . وكان إلى جانب ذلك ، المدلل صاحب الحظوة ـ أو بالأحرى القط الوادع ـ للسيدة الكونتة دى بوفلير ، التى كانت هى الأخرى صديقة حميمة لدالمبير .. فما كان للشيفالييه دى لورنزى من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر ، إلا بقربها . وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة دى لوكسمبورج يبدون وكأنهم يعملون معا على إيذائى فى رأيها ، فى الوقت الذى كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقى ، وتستبقى لى رضاء السيدة . ومع ذلك فانها ـ إلى جانب تكرمها بأن تتعهد كتاب « اميل » ـ ابدت لى دليلا جديدا على كرمها وعطفها ، مما حملنى على أن أعتقد بأنها كانت ما تزال تحتفظ لى ـ بل وستظل دائما تحتفظ لى ـ بالصداقة التى كثيرا ما وعدتنى بأن تؤثرنى بها إلى نهاية عمرى ، حتى وإن كانت قد بدات تسأمنى !

وما أن خطر لى أن بوسعى أن اطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها ، حتى شرعت أسرى عن فؤادى ، بأن اعترف لها بكل أخطائى نحوها . إذ كان مبدئى الوطيد ، يحملنى على أن ابين

نفسى لأصدقائى على حقيقتها ، لا أسوأ ولا أطيب . فأطلعتها على علاقاتى بتيريز ، وبنتائجها جميعا ، دون أن أغفل الطريقة التى تخلصت بها من أطفالى . وتلقت اعترافاتى فى تلطف ، بل فى تلطف بالغ ، واعفتنى من اللوم الذى كنت أستحقه .. وكان أكثر ما أثر فى نفسى ـ بوجه خاص ـ ذلك الكرم الذى أغدقته على تيريز، فكانت تمنحها هدايا صغيرة، وتستدعيها، وتشجعها على أن تزورها ، وتتلقاها بكثير من الحنان واللطف .. وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع . ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت أشاطرها إياهما يقينا .. بل إن الكرم الذى كان السيد والسيدة دى لوكسمبورج يغمرانى به خلالها ، أكثر تأثيرا فى نفسى من ذاك الذى كانا يظهرانه نحوى مباشرة .

* * *

ظلت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة ، ولكن السيدة المارشالة لم تلبث ـ فى النهاية ـ أن أمعنت فى تفضلها، فأعربت عن رغبتها فى أن تسترد أطفالى وتكفلهم (١) . وكانت قد عرفت أننى قد وضعت رمزا فى ثياب الطفل الأكبر ، فسألتنى النسخة الثانية لهذا الرمز ، فقدمتها إليها . واستخدمت فى هذا البحث وصيفها الخاص وموضع ثقتها « لاروش » ، الذى

---

(١) كان « روسو » قد أنجب خمسة من « تريز » سفاحا ، وأودعهم مع اللقطاء ، وروى المناسبات والمبررات فى الصفحات من ١٠٦ إلى ١٣٢ من الجزء الثالث .

Looloo
www.dvd4arab.com

تام بتحريات لم تؤد إلى طائل ، فلم يتمكن من العثور على شيء ، بالرغم من انه لم يكن قد انقضى على إيداع الطفل أكثر من اثنتى عشرة او اربع عشرة سنة ، ولو ان سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة ، أو لو ان التحريات كانت دقيقة ، لما عـز العثور على الرمز . ومهما يكن من الأمر ، فاننى كنت اقل استياء لهـذا الفشل ، مما كان ينبغى على لو اننى كنت قـد تتبعت آثار الطفل منذ مولده . ولو ان طفلا قدم إلى ــ على هدى البيانات التى قدمتها ــ على انه ابنى ، لـكان الشك فيما إذا كان هو ابنى حقا ، أو انه ابدل بطفل آخر ، خليقا بأن يبعث هواجس تضنى فؤادى ، ولما نعمت بالاحساس الطبيعى الصادق ، فى اكمل آيات سحره .. فلابد ــ لاستبقاء هذا الشعور وسحره ــ من توفر الألفة والاعتياد منذ مولد الطفل ، على الأقل ، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد ، يوهن شعور الأبوة والأمومة ، ولا يلبث ان يقضى عليه تماما فى النهاية . فلا سبيل هناك البتة إلى ان يحظى طفل كفلته مربية ، بحب يضـارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء .. وقد يخفف هـذا الخاطر من التبعات التى ترتبت على اخطائى ، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها !

وقد يكون من المفيد ان نلاحظ ان « لاروش » هذا ، بالذات ، قد تعرف ــ عن طريق تيريز ــ بالسيدة لوفاسير ، التى ظل « جريم » يكفلها فى (دويى) ، على مقربة من (لا شيفريت) ، وعلى مسافة جد قصيرة من (مونمورنسى) . فلما غادرت هذه المنطقة ، استعنت بلاروش فى مواصلة إرسال النقود التى لم

أكف يوما عن إمدادها بها . واعتقد انه كثيرا ما كان يحمـل إليها هدايا من السيدة المارشالة ، ومن ثم فانها لم تكن تستحق أى عطف أو رثاء ، برغم انها ظلت دائمة الشكوى. اما «جريم» ، فاننى طبعت على الا احب الكلام عمن أرى أن من واجبى ان اكرههم ، ومن ثم فاننى لم اتحدث عنه إطلاقا إلى السيدة دى لوكسمبورج ، اللهم إلا فى الحالات التى كنت اضطر فيها إلى ذلك اضطرارا . على انها ذكرت اسمه مرارا ، دون ان تنبئنى بما كان من رأيها فيه ، بل ودون ان تدعنى استشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها ، أو لم يكن . ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم ، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معى ، امرا لا يلائم مزاجى ــ لا سيما حين يكون فى أمور تخصهم ــ لذلك فاننى كثيرا ما فكرت ، منذ ذلك الحين ، فى أمـر هـذا التحفظ الذى ابدته السيدة لى .. على أن هذا التفكير لم يكن يراودنى ، إلا عندما تجعله الأحداث امرا طبيعيا !

وإذ مكثت فترة طويلة ، دون ان اسمع اى حديث عن «اميل» ــ بعد ان وكلت أمر الكتاب إلى السيدة دى لو كسمبورج ــ علمت فى النهاية ، ان الصفقة قد ابرمت فى باريس ، مع الكتبى « دوشين » ، ثم ابرمت بوساطته مع «نياولم» فى (امستردام) . وقد أرسلت السيدة دى لوكسمبورج إلى نسختى العقدين ــ مع دوشين ــ كى أوقعهما . وتبينت انهما كتبتا بنفس الخط الذى كانت تكتب به رسائل السيد دى ماليزيرب ، إذ انه لم يكن يكتبها بيده .

وحملنى تأكدى من أن الاتفاق قد عقد تحت بصر هـذا

Looloo www.dvd4arab.com

السيد وبموافقته ، إلى أن أوقع وأنا مطمئن . وإذ ذاك أعطانى « دوشين » عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك — هى نصف الحساب — ومائة أو مائتى نسخة من الكتاب المطبوع ، على ما اظن . وما ان وقعت نسختى العقد حتى ارسلتها إلى السيدة دى لوكسمبورج — وفقا لرغبتها — فأعطت إحداهما إلى « دوشين » ، واستبقت الأخرى ، بدلا من ان ترسلها لى ، فلم ارها بعد ذلك !

ومع أن تعرفى إلى السيد والسيدة دى لوكسمبورج ادخل شيئا من التعديل على شروعى فى الاعتزال ، إلا انه لم يصرفنى تماما عن هذه الخطة . بل إننى ظللت اشعر — حتى فى أوج حظوتى لدى السيدة المارشالة — باننى ما كنت لأحتمل او اطيق الأشخاص المحيطين بالسيد المارشال وبها ، لولا صدق تعلقى بهما . وكانت كل حيرتى تتمثل فى محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين نوع الحياة الأكثر ملاءمة لذوقى واقل إيذاء لصحتى . فقد كان الارهاق المستمر ، والعشاء المتاخر يجعلان صحتى غير مستقرة على حال ، برغم كل العناية التى كانت تبذل لتجنب تعريضى لأى ضرر . إذ كان السيد المارشال وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية ، شأنهما بأية ناحية أخرى . ففى كل مساء — مثلا — لم يكن السيد المارشال ليغفل أن يصحبنى بعد العشاء ، شئت أو لم اشأ ، لأحذو جذوه فى الإيواء إلى الفراش مبكرا . ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكبتى بأمد وجيز ، ولسبب لم أدر به !

بل إننى قبل ان المح فتور السيدة المارشالة ، رغبت فى أن أحقق مشروعى القديم ، حتى لا اعرض نفسى لهذا الفتور ، ولكن الوسائل اعوزتنى لهذا التحقيق ، فكنت مضطرا إلى أن انتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب « اميل » .. وفى خلال هذا الانتظار ، وضعت الخطوط الأخيرة فى كتاب « العقد الاجتماعى » ، ثم أرسلته إلى « ريى » ، محددا ثمن المخطوط بألف فرنك ، فأعطانى هذا المبلغ . وربما كان من المستحسن الا اغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور . فلقد أرسلته فى غلاف محكم الأختام إلى « ديفوازان » ، وكان كاهنا من بلاد (الفود) (١) ، وقسا تابعا لسفارة هولندا ، وقد اعتاد أن يفد احيانا لزيارتى . فتكفل بحمل المخطوط إلى « ريى » الذى كان على اتصال به . ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق ، فكان من الصغر بحيث انه لم يملأ جيبه . ومع ذلك ، فقد حدث — بينما كان يجتاز الحدود — أن وقعت الحزمة ، بطريقة لا ادريها ، فى ايدى موظفى الجمارك ، الذين فضوها وفحصوها ، ثم ردوها إليه فى الحال ، عندما طالب بها باسم السفير . وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الاطلاع على المخطوط ، كما انبأنى فى سذاجة ! .. ولقد أطنب — فى الوقت ذاته — فى إطراء المؤلف ، دون ما كلمة لوم أو انتقاد ، محتفظا لنفسه — بلا ريب — بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قدر للكتاب ان يظهر ! .. ولقد استخلص المخطوط وارسله إلى « ريى » .. هذه — فى الواقع — هى القصة التى

(١) بلاد (الفود) : المقاطعات السويسرية التى يتكلم أهلها الفرنسية .

looloo
www.dvd4arab.com



فلقد أرسلته فى غلاف محكم الأختام إلى « ديفوازان » ..

أوردها فى الرسالة التى انبأنى فيها بالأمر ، وهذا كل ما قدر لى أن اعرفه عن الواقعة .

وإلى جانب هذين الكتابين ــ « أميل » و «العقد الاجتماعى» ــ و « الموسوعة الموسيقية » التى كنت أعمل فيهـا من وقت إلى آخر ، كانت لدى مؤلفات أخرى اقل اهمية ، وكلها معدة للنشر ، فاعتزمت أن انشرها متفرقة ، أو مع مجموعة عـامة تشمل مؤلفاتى ، إذا قدر لى أن أصدر واحدة . وكان أهم هذه المؤلفات ــ التى لا يزال اغلبها مخطوطات كتبها « روبيرو » ــ « رسالة فى منشأ اللغات » ، كنت قد قراتها على السيد دى ماليزيرب والشيفالييه لورنزى الذى استحسنها . ولقد حسبت ما تدره على هذه المؤلفات جميعا ــ بعد تغطيـة كافة النفقات ــ بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنـكات ، على الأقل .. وهو مبلغ قررت أن أستثمره ليدر ريعا مـدى الحياة ، لصالحى ولصالح تيريز . على أن نذهب بعد ذلك ــ كما ذكرت لها ــ لنقيم معا فى أعماق أحد الأقاليم الريفية ، حيث لا ازعج الراى العام بنفسى ، ولا أشغل نفسى بشىء اللهم إلا أن اختم ايامى فى سلام ، مواصلا عمل الخير قدر وسعى ، فى الوسط المحيط بى .. ومستأنفا كتابة الذكريات التى كنت أفكر فيها ، على مهل !

هكذا كان المشروع الذى يسر لى تحقيقه كرم « ربى » .. هذا الكرم الذى ينبغى الا أمر به مر الصامتين . فان هـذا الناشر ، الذى سمعت عنه الكثير من السوء ، فى باريس ، كان الوحيد ــ بين كل أولئك الذين كانت لى بهم علاقات ــ الذى

Looloo www.dvd4arab.com

كنت أجد منه ما يرضينى دائما(١) . ومن المحقق اننا كنا نختلف أحيانا بشأن نشر كتبى ، إذ انه كان متلكئا ، بينما كنت أنا متعجلا . ولكننى كنت أجده جد أمين ودقيق فى المسائل المادية والإجراءات التى تتعلق بها ، بالرغم من أننى لم اعقد معه قط اتفاقا رسميا . وهو ــ كذلك ــ الوحيد الذى أقر صراحة بأنه افاد من معاملاته معى ، وكثيرا ، ما انبأنى بأنه مدين لى بثروته ، وعرض على ان يشركنى فيها . ولما كان عاجزا عن ان يظهرنى مباشرة على عرفانه ، فقد رغب فى أن يشهدنى عليه بما يبديه لخليلتى ، فرصد لها معاشا سنويا قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها ، واثبت فى عقد التسجيل ان هذا المبلغ كان عرفانا منه بالفوائد التى اتحتها له . ولقد سوى هذه المسألة معى فى غير ضجة ولا إعلان ولا من ، ولو لم اكن انا أول من تحدث عنها إلى الناس اجمعين ، لما علم احد عنها شيئا ! .. فلقد تأثرت بهذا الإجراء ، إلى درجة أننى منذ ذاك الحين أصبحت مرتبطا بريى بود صادق . ولقد رغب ــ بعد ذلك بوقت وجيز ــ فى أن أكون ابا روحيا ــ «أشبينا» ــ لأحد اطفاله ، فوافقت . وكان من دواعى أساى ، أننى ــ فى الحال التى انحدرت إليها ــ كنت محروما من كل فرصة تمكننى من أن اجعل وفائى ذا نفع لابنتى الروحية ولأهلها . ترى كيف تسنى لى ــ وانا الممتن إلى هذه الدرجة لما ابداه

(١) عتب « روسو » على هذا بقوله : « عندما كتبت هذا ، كنت بعيدا عن ان أتصور ، أو اتبين ، أو أحدس أعمال الغش التى اكتشفت ــ فيما بعد ــ حدوثها فى طبع مؤلفاتى ، والتى اضطر الى الاعتراف بها » .

هذا الناشر من كرم متواضع ــ أن أكون أقل امتنانا للعواطف الصارخة التى كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملأون الكون بالطنطنة بالخير الذى يقولون انهم رغبوا فى إسدائه إلى، والذى لم اشعر به البتة ؟.. أفكان الذنب فى ذلك ذنبهم ، أم تراه كان ذنبى ؟ .. أفكان الأمر مجرد زهو باطل منهم ، أم انه كان جحودا منى ؟ .. الا زن الأمر ــ أيها القارىء العاقل ــ واحكم .. أما أنا ، فسوف ألوذ بالصمت !

ولقد كان هذا المعاش موردا كبيرا لتيريز ، وعزاء عظيما لى. وفيما عدا هذا العزاء ، كنت ابعد من ان اطمع فى ان احصل منه ــ ولا من جميع الهدايا التى كانت تقدم إليها ــ أى نفع مباشر لى شخصيا . فكانت هى المتصرفة الوحيدة فى الجميع، على الدوام ، وعندما كنت احتفظ لها بمالها ، كنت اقدم لها عنه حسابا أمينا، دون أن اضع فلسا واحدا منه فى نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدر لها أن تكون اكثر منى ثروة . وكنت اقول لها : « إن مالى لنا معا ، أما مالك فانه لك وحدك ! » . وما كففت قط عن أن اتبع معها هذا المبدأ الذى كثيرا ما كنت اردده على مسمعها . اما اولئك الذين اوتوا من الخسة ما اباح لهم ان يتهمونى بأننى كنت اتقبل بيديها ، ما كنت ارفضه بيدى ؛ فليسوا يحكمون على قلبى إلا بما كانت عليه قلوبهم ــ دون شك ــ وانهم ليسيؤون فهمى كل الاساءة . ولقد كنت على استعداد لأن أشاطرها ــ عن طيب نفس ــ الخبز الذى تكسبه بعرقها ، ولكنى ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه إحسانا !.. وانى لألجأ إلى شهادتها فى هذه المسألة ، سواء الآن أم فيما بعد ، عندما يقدر لها أن تعيش بعدى ، وفقا لسنن الطبيعة !

looloo
www.dvd4arab.com

على أنها ــ لسوء الحظ ــ قليلة الإلمام بالشئون الاقتصادية، من كافة الاعتبارات ، قليلة الحرص على المـــال ، مسرفة .. لا عن غرور أو نهم ، وإنما عن إهمال فذ ، عجيب ! .. وليس فى هذه الدنيا من أوتى الكمال ، فإذا لم يكن ثمة بد من أن يكون لصفاتها الرائعة ، ما يقابلها فى كفة التناقض ، فاننى أوثر أن تكون لها عيوب ، على أن تكون لها رذائل .. وإن كانت هـــذه العيوب اكثر إساءة إلينا معا من الرذائل ، فى بعض الأحيان !.. ان الجهود التى بذلتها من اجلها ــ كمـــا فعلت من قبل ، من أجل « ماما » ــ كى اجمع لها بعض المدخرات التى تصبح يوما موردا لعيشها ، تفوق كل تصور .. بيد انها كانت دائما جهودا مضيعة . فان ايا منهما ــ سواء هى او ماما ــ لم تحاول يوما ان تعمل لمصلحتها، فكان كل شىء لا يلبث ــ برغم كل جهودى ــ أن يضيع بمجرد ان يأتى ! .. ومع البساطة التى كانت «تيريز» تنتهجها ، فان المعاش الذى رصده لها « ريى » لم يكن قط كافيا لحاجاتها ، كما اننى لم اكن استبقى شيئا من دخلى فى كل عام . فكلانا لم يخلق ليصبح غنيا ، فى اى يوم من الأيام ، ولست اعتبر هذا من مساوىء حظنا ، إطلاقا !

* * *

وطبع « العقد الاجتماعى » دون ما كثير إرجـــاء ، فكان على النقيض من «اميل» الذى كنت مضطرا إلى انتظار نشره ، قبل ان انفذ مشروع اعتكاف . وكان « دوشين » يبعث إلى ــ من وقت إلى آخر ــ بنماذج من الحروف لأختار منها .. وكلما اخترت ، ارسل لى نماذج اخرى غيرها ، بدلا من ان يشرع فى

الطبع ، فلما استقر راينا فى النهاية على الشكل وحجم الحروف، وبعد ان ارسل لى عدة صفحات مطبوعة ، ادخلت عليها بعض تعديلات طفيفة ، اعاد الطبع من جديد .. فوجدنا اننا ــ بعد ستة اشهر ــ اقل تقدما مما كنا فى اول يوم . وبينما كانت هذه التجارب تجرى ، اكتشفت أن الكتاب كان يطبع فى فرنسا، كما كان يطبع فى هولندا ، طبعتين مستقلتين !.. فما الذى كنت أملك أن أفعله ؟.. اننى لم أعـــد مالك مخطوط كتابى . وكنت بعيدا كل البعد عن أن تكون لى أية يد فى الطبعة الفرنسية، بل إننى كنت دائما أعارض فى إصدارها ، ولكن .. لمـــا كان طبعها جاريا على قدم وساق ، بالرغم منى ، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى ، فاننى وجدت من المستحسن ان القى نظرة على التجارب « البروفات » ، حتى لا يحرف كتابى أو يشوه . ثم ان المؤلف، كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات ، فهو الذى كان يوجه المشروع ــ بطريقة ما ــ وكثيرا ما كتب إلى ، بل إنه جاء لزيارتى بصددها فى مناســـبة معينة ، سأتكلم عنها حالا !

وبينما كان « دوشين » يتقـــدم بخطى ســـلحفائية ، كان « نياولم » ــ الذى تعمد أن يعوقه ــ يتقدم بخطى اكثر بطءا ، إذ أن الصفحات لم تكن ترسل إليه بالانتظام الذى كانت تطبع به . وقد خامره الظن فى أنه لاحظ سوء نية من جانب «دوشين»، اعنى « دى جاى » الذى كان يمثله . وإذ رأى أن الاتفاق لم يكن ينفذ ، كتب إلى خطابات إثر خطابات ، مليئة بالشكايات والتظلمات ، التى كنت اقل مقدرة على علاجها منى على علاج

Looloo www.dvd4arab.com

المشـكلات التى كانت تتعلق بمصلحتى . ولقـد كان صديقه « جيران » ـ الذى يكثر جـدا من زياراتى فى ذلك الحين ـ لا يفتأ يتحدث إلى عن هذا الكتاب ، ولكن فى كثير من التحفظ المسرف . كان يعرف ، ولا يعرف ، أن الكتاب كان يطبـع فى فرنسا .. وكان يعرف ، ولا يعرف ، أن الرقيب كان مهتمـا به بنفسه .. وكان يشفق على من الحرج الذى سـببه لى هذا الكتاب ، بينما كان ـ فى الوقت ذاته ـ يتهمنى بالخرق ، دون أن ينبئنى قط بما هنـاك من خرق .. وكان يراوغ ويداور ويمارى دون انقطاع .. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجنى إلى الكلام . وكانت طمأنينتى ـ خـلال تلك الفترة ـ مكتملة إلى درجة أننى كنت أضحك من اللهجة المتحفظـة والغامضة التى كان ينتهجها فى هذه المسألة ، وأعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية . وكنت متأكدا من أن كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كمـا ينبغى لها أن تكون ، ومقتنعا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضاء ورعاية الرقيب فحسب ، وإنما كان يسـتحق رضاء الوزير نفسه ، وقد ظفر به ومن ثم فقـد رحت أهنىء نفسى على حسن تصرفى ، وأضحك من ضعف قلوب أصـدقائى ، الذين كانوا يبدون القلق من أجلى . ولقد كان « ديكلو » من هؤلاء القلقين ، وأعترف أن ثقتى باستقامته وحصـافته كانت خليقـة بأن تنذرنى بالخطر ، لو أننى كنت أقـل اطمئنانا إلى فائدة مؤلفى وإلى شرف من كانوا يرعونه . وقد زارنى ، موفدا من السـيد « باى » ، أثناء طبع « أميل » ، فحدثنى عنـه . وقرأت عليه إعلان أسقف سافوا لإيمانه ، فأنصت فى إعجاب

بالغ ، وفى اغتباط عظيم ، على ما لاح لى . فلما فرغت من القراءة ، قال لى : « عجبا ، أيها المواطن ! .. أفهذا جزء من كتاب يطبع فى باريس ؟ » . فقلت له : « أجل .. وقد تقرر طبعه فى اللوفر ، بأمر من الملك » . فقال لى : « إننى مقتنع بذلك ، ولكن .. هل لك فى أن ترضـينى بألا تذكـر لأى امرىء أنك قرأت على هذا الجزء ؟ ! » .. وكان هذا الأسلوب الشاذ فى التعبير عما بنفسه ، خليقا بأن يدهشنى ، ولكنه لم يرهبنى . فقد كنت أعرف أن ديكلو كان كثير الالتقاء بالسيد دى ماليزيرب ، ومن ثم فقد شق على أن أدرك كيف كان رأيه يختلف كثيرا عن رأى ذاك السيد ، فى موضوع واحد .

* * *

ولقد أقمت فى مونمورنسى فوق أربع سنوات ، دون أن أستمتع بصحة طيبة ليوم واحد . فبالرغم من أن الهواء كان بديعا ، إلا أن المياه كانت رديئة ، ومن المحتمل كل الاحتمـال أن يكون هذا من الأسباب التى سـاهمت فى استفحال عللى المعهودة . وفى أواخر خريف سنة ١٧٦١ ، سقطت مريضا ، وقضيت الشتاء كله فى أوجاع لم تكن تهن تقريبا . وكان سقمى البدنى يزداد وطأة بألف هم وقلق ، مما يضاعف إحساسى به وتوجعى له . فلقد ظلت تراودنى ـ فترة من الزمن ـ وساوس خفية ، كئيبة ، لم أكن أدرى لها مأتى . وكنت أتلقى رسائل جد عجيبة ، خاليـة مما ينم عن مرسليها .. بل ورسـائل كانت تحمل توقيعات كاتبيها ، ولا تقل عنهـا غرابة . وكانت منها رسالة من مستشار بالبرلمان ، فى باريس ، لم يكن راضيا

Loolo www.dvd4arab.com

عن الوضع الراهن ، ولا مطمئنا إلى نتائجه ، فشاء أن يستشيرنى فى أن أختار ملاذا فى (جنيف) أو فى (سويسرا) يستطيع أن يأوى إليه مع أسرته .. ورسالة أخرى من السيد دى ... ، رئيس الدورة النيابية فى برلمان (...) الذى سألنى أن أوجه مذكرة استنهض بها أعضاء هذا البرلمان ، الذى كان ــ فى ذلك الوقت ــ على غير وئام مع البلاط الملكى وعرض ــ فى الوقت ذاته ــ أن يمدنى بكل الوثائق والمواد التى أحتاج إليها فى هذا الصدد .

وعندما أكون معذبا بالألم ، أغدو فريسة سهلة للانفعال . وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات ، وقد أظهرت حالى فى إجاباتى ، إذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ما سئلته ويقينا أننى لا ألوم نفسى على هذا الرفض ، إذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فخاخ أعدها أعدائى[١] ، وقد كان ما سئلته مخالفا للمبادىء التى كنت ما أزال أقل ميلا إلى التحول عنها ، منى فى أى وقت آخر . ولكنى رفضت بفظاظة ، فى حين أننى كنت أملك أن أرفض فى أدب . وقد كنت فى هذا مخطئا .

ولسوف توجد الرسالتان اللتان ذكرتهما ، بين أوراقى . ولم يدهشنى خطاب المستشار البتة ، لأننى كنت أرى ــ مثله ومثل كثيرين غيره ــ أن تداعى الدستور كان ينذر فرنسا

---

(١) أضاف « روسو » الى هذا : « كنت أعرف ــ على سبيل المثال ــ أن رئيس برلمان (...) ، كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف ، وبعصبة دولباخ » .

بخراب قريب . كانت الخسائر التى خلفتها حرب منكودة ، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة[١] .. وكان الارتباك المالى الذى يجل على التصور .. والخلافات المستمرة فى الهيئة التنفيذية التى كانت موزعة ــ حتى ذلك الحين ــ بين وزيرين أو ثلاثة ، كل منهم فى حرب مكشوفة مع الآخر ، وثلاثتهم يسعون إلى توريط المملكة فى مآزق ، ليكيد كل منهم للآخر[٢] .. والتذمر العام الذى ساد الشعب وكافة طبقات الدولة .. وتشبث امرأة عنيدة ، درجت دائما على أن تضحى مواهبها الذهنية ــ إذا كانت قد أوتيت مواهب ما ــ فى سبيل ميولها ونزواتها ، وكانت دائما ما تقصى القادرين عن مناصب الدولة ، لكى تملأها بالمقربين إليها .. كانت كل هذه العوامل ، تساهم فى تبرير مخاوف المستشار ، والجمهور ، وأنا !

ولقد حملتنى هذه الوساوس مرارا على أن أتساءل عما إذا كان من الجدير بى أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لى خارج المملكة ، قبل قيام الاضطرابات التى كان يبدو أنها تتهددها ، ولكننى كنت ــ اطمئنانا إلى تفاهة شأنى ، وإلى مسلكى الوادع ــ

---

(١) حرب السنوات السبع .

(٢) كان وزير المالية ووزير الحربية فى صراع مستمر ، على نسق الصراع الذى كان دائرا بين البرلمان ورجال الدين .. وكان البلاط الملكى ذاته منقسما الى فريقين ، أحدهما يتزعمه دوق ديجيون ، ويلتف حول ولى العهد ، والآخر يتزعمه الكونت دى ستانفيى ــ الذى أصبح دوق دى شوازيل ــ ويلتف حول محظية الملك ، مدام دى بومبادور !

Looloo
www.dvd4arab.com

اعتقد ان شيئا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلى ، فى العزلة التى اعتزمت أن أعيش فيها . ولم يكن يحزننى سوى أن السيد دى لوكسمبورج ، انصرف — فى هذه الظروف — إلى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بألا تجعله موضـــع رضى من حكومته ذاتها . وكنت أود لو انه اعد لنفسه — فى مثل هذه الحال — مخرجا ، وتأهب لكل الطوارىء ، إذا ما قدر للجهاز الضخم أن يتهدم .. الأمر الذى كان ثمة ما يبرر الخوف من حـدوثه ، تحت الظروف القائمة ، وما يزال يبـدو لى — فى الوقت الحاضر — أنه لا مجال للشك فى أنه لو لم تقع جميع أزمة الحكم — فى النهاية — فى يد واحدة(١) ، لكانت الملكية الفرنسية الآن فى النزع الأخير !

وبينما كانت حالى تزداد سوءا ، اخذ طبع « اميل » يزداد بطءا ، ثم أوقف تماما ، فى النهاية ، دون أن أتمكن من معرفة السبب ، ودون أن يتنازل « دى جاى » فيكتب لى ، أو يرد على رسائلى . ولم أستطع ان أحصل على انباء من أحد ، ولا عرفت شيئا مما كان يجرى ، إذ أن السيد دى ماليزيرب كان فى الريف ، فى تلك الآونة . وما قدر لأية محنة — مهما تكن — أن تزعجنى أو أن تربكنى ما دمت أعرف كنههـا ومبنـاها ، ولكننى فطرت على التخوف من الظلمات ، فأنا اكره وارهب مظهرها الأســود .. إن الغموض يقلقنى دائما ، فهو شـديد التناقض مع طبيعتى التى تتسم بصراحة تكاد تبلغ التهور

---

(١) الدوق دى شوازيل .

ومجافاة الحكمة . إن مرأى أفظع الهوام لا يفزعنى إلا قليلا — فيما أحسب — ولكننى اذعر إذا ما لمحت فى الليل شبحا تحت كساء أبيض ! .. ومن ثم فقد شغل خيالى — إذ اذكاه هـــذا الصمت الطويل — برسم أشباح مرعبة لى . وكنت كلمـا تحمست لنشر آخر مؤلفاتى وأفضلها ، وأمعنت فى إضناء نفسى بحثا عما قد يكون السبب فى تأخره . ولما كنت أمعن فى التطرف — فى كل شيء — فقد خيل إلى أننى ألمح وراء إيقـاف طبع الكتاب ، بوادر مصادرته !

على أننى لعجزى عن تصور السبب أو الطريقة ، لهـذه المصادرة ، ظللت فى أقسى ألوان الشك فى الدنيـا . ورحت أكتب الخطابات إثر الخطابات ، إلى « جاى » ، وإلى السـيد دى ماليزيرب ، وإلى السيدة دى لوكسمبورج ، دون أن تصلنى الإجابات قط ، أو أنها لم تكن تفد فى الأوقات التى كنت أتوقعها ، فاشتد اضطرابى ، حتى لقد رحت أهذى . وسمعت — لسوء الحظ — فى تلك الآونة ، أن الأب « جريفيه » — وكان من الجيزويت — قد تحدث عن «اميل» بل وسرد فقرات منه ، فإذا خيالى يفض — كالبرق الخاطف — هذا الغموض المحير بأسره . ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور ، كمـا لو أنها كانت قد كشفت لى .. فتمثلت أن الجزويت قـد هاجتهم لهجة الازدراء، التى تحدثت بها عن مدارسهم، فاستولوا على مؤلفى، وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره .. وأنهم قـد علموا من صديقهم « جيران » بحالى الراهنة ، فتوقعوا قرب موتى — الأمر الذى لم أكن ، أنا نفسى ، أرتاب فيه — ومن ثم فقد كانت

Loofoo www.dvd4arab.com

غايتهم هى تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة ، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكى يخدم أغراضهم هم ، بأن يعزوا إلى آراء تخالف آرائى تماما !

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التى توافدت على عقلى والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء فاكسبتها مظهر الحقيقة .. بل راحت تثبت صدقها ! وكنت أعرف أن « جيران » كان على ولاء تام للجيزويت ، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التى عرضها على من قبل ، واقتنعت نفسى بأنه ما الح على بالاتفاق مع « نياولم » إلا بواعز منهم ، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلفى ، إلا عن طريق هذا الناشر ، وأنهم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى طريقة لحمل « دوشين » على أن يوقف الطباعة ، ولعلهم استطاعوا أيضا أن يستولوا على الأصل الخطى للكتاب ، كى يعملوا على مهل فى تحريفه ، حتى يطلق موتى الحرية لهم فى أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم . ولقد كنت أشعر دائما ـ وبالرغم من ملق الأب بيرتييه ـ أن الجيزويت لم يكنوا لى شيئا من الحب ، على الاطلاق ، لا لاشتراكى فى جماعة الموسوعة أو « القاموس المحيط » فحسب(١) ، وإنما لأن آرائى ـ أيضا ـ كانت أشد عداء لمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائى ، إذ أن من الممكن للتطرف الزندقى والتطرف الدينى أن يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك ، بل إن من الممكن أن يتحدا ، كما فعلا فى الصين ، وكما يفعلان الآن فى عدائهما لى . أما

(١) تحدث « روسو » عن هذا المشروع فى صفحة ١١٥ ـ الجزء الثالث .

العقيدة القائمة على العقل والمبادىء الخلقية ، والتى تلغى كل سلطان إنسانى على الضمائر ، فانها لا تدع موردا يستغله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان !

ولقد كنت أعرف ـ كذلك ـ أن السيد المستشار(١) كان صديقا حميما للجيزويت ، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلمهم المخطوط الذى تكفل بحمايته ، تحت الشعور بالحرج أمام أبيه ! .. بل لقد زين لى الوهم أن أرى أثر هذا التخلى منه عن المخطوط ، فى تلك التحرشات التى بدىء فى توجيهها إلى ، بصدد الجزءين الأولين من الكتاب ، اللذين احتجزا ، دون تجليد لبعض أمور تافهة .. فى حين أن الجزئين الباقيين ، كانا ـ كما هو غير مجهول ـ مفعمين بآراء عنيفة ، مما كان يستدعى إعادة صوغهما بأكملهما ، إذا كان الرقيب قد انتقدهما ، كما فعل بسابقيهما . ثم أننى كنت أعرف ـ فوق هذا ، كما أنبأنى به السيد دى ماليزيرب نفسه ـ أن الراهب « دى جراف » ، الذى وكل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة ، كان هو الآخر من أتباع الجيزويت . وهكذا لم أكن أرى سوى الجيزويت فى كل مكان ، دون أن أفكر فى أنهم كانوا على أعتاب ابادتهم ، وأنهم كانوا جد منهمكين فى الدفاع عن أنفسهم ، فكان لديهم ما يشغلهم عن التآمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به أى شأن .

بل أننى لأخطىء إذ أقول : « دون أن أفكر » ، فالواقع أننى

(١) المستشار دى ماليزيرب ، والد رقيب المطبوعات .



فكرت جيدا ، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التى عنى السيد دى ماليزيرب بأن يبديها لى ، بمجرد أن فطن إلى الفكرة الواهمة التى تملكتنى . ولكننى بنزوة من تلك النزوات التى تتملك رجلا يحاول ــ من أعماق معزله ــ أن يجلو أسرار جسام الأمور ، وهو لا يعرف عنها شيئا ، لم أشأ قط أن أصدق أن الجيزويت كانوا فى خطر ، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم لتخدير أعصاب خصومهم . وكانت انتصاراتهم الماضية ــ التى لا سبيل إلى انكارها ــ توحى إلى بفكرة رهيبة عن نفوذهم ، حتى اننى رحت أنعى على البرلمان هو انه إزاءهم . وكنت أعرف أن السيد دى شوازيل قد درس على أيدى الجيزويت ، وأن السيدة دى بومبادور لم تكن على علاقات سيئة معهم ، وأن تحالفهم مع ذوى الحظوة والوزراء ، كان يعتبر دائما ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك . وكان البلاط الملكى يبدو متباعدا عن الزج بنفسه فى هذه الأمور . . ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع إذا تعرض يوما لأية هزة عنيفة ، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه الهزة ، فقد اتخذت من هذا الاعراض عن العمل من جانب البلاط ، أساسا لثقة الجيزويت واطمئنانهم إلى الفوز .

وقصارى القول ، اننى لم اكن ارى فى كل شائعات تلك الفترة ، سوى تعمية وشباك من جانب الجيزويت ، ولما كنت مؤمنا بانهم ــ فى موقفهم الأمين ــ قد أوتوا الوقت الكافى لكى يعدوا عدتهم لكل شىء ، فإننى لم اكن أرتاب قط فى انهم لن يلبثوا ان يسحقوا اليانسيين ، والبرلمان . وأصحاب الموسوعة ،

وكل من لم ينصاعوا لربقتهم . . وانهم إذا اتاحوا لكتابى ان يظهر ــ فى النهاية ــ فلن يكون ذلك إلا بعد ان يحولوه إلى سلاح ، وأن يستغلوا اسمى فى التغرير بقرائى .

ولقد كنت اشعر بأننى موشك على الموت ، ومن ثم فإننى لا اكاد ادرى ، كيف أن هذا التهوس لم يقض على ! . . فشد ما جزعت لفكرة أن ذكراى قد تشوه بعد موتى ، فى افضل كتبى واجدرها بالمجد ! . . ابدا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذى تولانى إذ ذاك ، واعتقد انه لو كان مقدرا لى أن اموت إذ ذاك ، لقضيت نحبى وانا فى يأس قاتل . بل إننى اليوم ، وانا ارى اسود وابشع مؤامرة دبرت ضد ذكرى امرىء ، تسير قدما نحو غايتها ، اشعر بأننى سأموت اكثر طمأنينة ، إذ اترك خلفى ــ فى كتاباتى ــ شاهدا لن يلبث ان ينتصر ــ إن عاجلا او آجلا ــ على مؤامرات البشر !

سنة ١٧٦٢

وكان السيد دى ماليزيرب هو شاهد انفعالى ، ومستودع سرى بشأنه ، فبذل فى سبيل التسرية عنى جهودا نمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين . ولقد ساهمت السيدة دى لوكسمبورج فى هذا العمل الطيب ، وزارت « دوشين » عدة مرات ، لكى تتبين مدى تقدم سير الطبعة . وأخيرا ، استؤنفت الطباعة ، وراحت تتقدم أسرع من ذى قبل ، وما قدر لى قط أن أعرف سر توقفها من قبل . ولقد تجشم السيد دى ماليزيرب عناء الحضور إلى (مونمورنسى) كى يهدىء من

Looloo www.dvd4arab.com

هواجسى ، ووفق فى ذلك ، إذ ان ثقتى التامة باستقامته ، تغلبت على تخبط فكرى ، فجعلت كل مجهود منه ـ ليعيد إلى ذهنى اتزانه ـ مجهودا مثمرا . وكان من الطبيعى ان يجدنى جد جدير بالرثاء ، بعد كل الذى شهده من شجونى وآلامى . ولقد عاودته فكرة التعنت الفلسفى التى كانت تحيط به وتردد على سمعه باستمرار . فلقد قيل للملأ ، عندما ذهبت للاقامة فى (ليرميتاج) ـ كما ذكرت من قبل ـ إننى لن اطيق البقاء طويلا ، فلما رأى المتقولون أننى بقيت هناك ، زعموا ان بقائى إنما كان بدافع من عنادى ، وكبريائى ، واستحيائى من ان اتراجع .. واننى كنت فى الحقيقة اعانى ضيقا قاتلا ، وشقاء بالغا . ولقد صدق السيد ماليزيرب ذلك ، وكتب إلى . فكان شعورى مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت اكن له كثيرا من التقدير ، ومن ثم كتبت له أربع رسائل تباعا ، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكى ، ووصفت له بإخلاص ميولى ، ونزعاتى ، وشخصيتى ، وكل ما يخالج فؤادى .. هذه الرسائل الأربع ، التى كتبت دون تحضير ولا مسودات ، وإنما بسرعة ، وبجرة قلم ، ودون ما مراجعة ، قد تكون المؤلفات الوحيدة ـ فى حياتى ـ التى كتبتها بسهولة .. والأعجب من هذا اننى كتبتها وسط آلامى والتداعى المفرط الذى كنت أعانيه . وإذ كنت أشعر بأن قواى كانت فى اضمحلال ، فقد تنهدت حسرة إذ فكرت فى اننى سأخلف ورائى ـ فى أذهان الرجال الأشراف ـ مثل ذاك الرأى الظالم عن نفسى ، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التى

رسمتها فى الرسائل الأربع ، أن أسد الفراغ الذى كان يجب ان تملأه المذكرات التى اعتزمت من قبل ان اكتبها ! .. إن هذه الرسائل التى اعجب بها السيد دى ماليزيرب ، والتى أطلع عليها أهل باريس ، تعتبر ـ إلى حد ما ـ ملخصا لهذا الذى أعرضه هنا بالتفصيل ، ومن ثم فهى جديرة بأن تصان . ولسوف توجد منها ـ بين أوراقى ـ نسخة نقلها برجاء منى ، وارسلها إلى بعد ذلك بسنوات .

واصبح الشىء الوحيد الذى يكربنى ـ منذ ذلك الحين ـ كلما فكرت ، اننى كنت موشكا على الموت ، هو اننى كنت محروما من اى أديب اركن إليه ، واستطيع ان اضع بين يديه أوراقى ، لكى يراجعها ويفرزها بعد وفاتى ! .. وكنت منذ رحلتى إلى (جنيف) ، قد اتصلت بـ « مولتو » برباط من المودة ، فقد شغفت بهذا الشاب ، وكنت اتمنى لو أنه جاء ليغمض عينى عندما اموت . ولقد اطلعته على هذه الرغبة ، واعتقد أنه كان على استعداد لأن يؤدى هذا الواجب الإنسانى ، وهو راض ، لو ان شئونه واسرته سمحت له بذلك . اما وقد حرمت من هذا العزاء ، فقد رغبت فى ان اهبه دليلا على ثقتى به ـ على الأقل ـ بأن أرسلت إليه « إعلان أسقف سافوا إيمانه » ، قبل النشر . ولقد سر بها ، ولكنى لم اشتم فى لهجة رده ما ينم عن انه كان يشاطرنى الاطئمنان إلى الثقة التى أردت بعملى أن أشعره بها . فقد رغب فى الحصول على بضع قطع أدبية لم يقدر لسواه أن يحرزها . ومن ثم أرسلت إليه : « رثاء الدوق دورليان عند وفاته » ، وكنت قد كتبت هذا الرثاء

Loolooo www.dvd4arab.com

للراهب دارتى ، بيد انه لم يقدر له ان يلقيه ، إذ عهد بمهمة رثاء الفقيد إلى سواه ، على غير ما كان يتوقع !

وما أن استؤنف طبع « اميل » ، حتى مضت العملية قدما وانتهت فى هدوء ، وقد لاحظت فى هذه المرة ظاهرة عجيبة ، فبعد الصفحات التى حذفت فى قسوة من الجزءين الأولين ، أجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض ، ودون أن يتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر . وكنت ما ازال احتفظ ببعض التوجس الذى ينبغى الا اغفله هنا . فبعد أن كنت فى خوف من الجيزويت ، إذا بى فى خوف من اليانسيين ومن الفلاسفة . إذ اننى كعدو لكل ما يسمى تحزبا ، أو تعصبا ، أو تعنتا ، لم اكن اتوقع قط أى خير من أولئك الذين اتوا شيئا من ذلك .

وكان « الثرثاران »(١) قد خلفا ــ قبل ذلك بزمن ــ مقرهما القديم ، واستقر بهما المقام جد قريب منى ، حتى لقد كان من الممكن أن يسمع فى غرفتهما كل ما يقال فى غرفتى او شرفتى ، كما كان من السهل جدا تسلق السياج القصير الذى كان يفصل حديقتهما عن شرفتى المغلقة الجوانب ، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب ، فأقمت فيها منضدة تكدست عليها « بروفات » وصفحات « اميل » و « العقد الاجتماعى » . ولقد اعتدت أن اخيط هذه الأوراق بعضها إلى بعض ، عندما ترسل إلى ، وبهذا كنت احصل على نسخ من كتبى قبل ظهورها

---

(١) أورد « روسو » ذكرهما فى الجزء الرابع .

بوقت طويل . وكان غبائى وإهمالى وثقتى بالسيد متى(١) ، واطمئنانى إلى الحديقة التى كانت تحيط بمسكنى .. كل هذه كثيرا ما كانت تجعلنى أنسى إغلاق الشرفة فى الليل ، فكنت أجدها فى الصباح مفتوحة .. وما كان هذا ليسبب لى أتفه شاغل ، لولا ان خيل إلى اننى لاحظت ان اوراقى لم تكن كما رتبتها . وإذ لاحظت هذا عدة مرات ، اصبحت اكثر عناية بإغلاق شرفتى . وكان القفل رديئا ، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة . وإذ ازددت انتباها ، وجدت ان العبث بأوراقى اصبح أكثر مما كان عندما كنت اترك الباب مفتوحا .

وأخيرا ، اختفى أحد كتبى يوما وليلتين ، وعجزت تماما عن أن اتبين ما جرى له ، إلى ان كان صباح اليوم الثالث ، إذ وجدته ثانية على المنضدة ! .. ولم اشعر إذ ذاك ــ ولا شعرت يوما ــ بأى ارتياب فى السيد متى ، ولا فى ابن أخيه السيد دومولان ، إذ كنت أعرف أن كلا منهما كان يحبنى ، ومن ثم فقد كنت أوليهما كل ثقة . وبدات اشعر باطمئنانى إلى « الثرثارين » يتضاءل . وكنت اعرف أن لهما علاقة بدالمبير ــ برغم أنهما كانا من اليانسيين ــ كما أنهما كانا يقيمان معه فى مسكن واحد فى باريس . وقد سبب لى هذا شيئا من عدم الارتياح ، وجعلنى أكثر حذرا . فنقلت أوراقى إلى مخدعى ، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين ، لا سيما واننى

---

(١) صاحب (مون لوى) ، الدار التى سكنها « روسو » فى (مونمورنسى) بعد أن غادر (ليرميتاج) .

Looloo www.dvd4arab.com



وإذ ازددت انتباها ، وجدت أن العبث بأوراقى أصبح أكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحا ..

سمعت كذلكَ أنهما عرضا ـ فى عدة بيوت ـ الجزء الأول من « اميل » ، الذى كنت من عدم الحكمة بحيث أننى أعرتهما إياه . ومع أنهما ظلا يجاورانى فى السكنى إلى أن غادرت المكان ، إلا أننى لم اتصل بهما قط منذ ذلك الحين !

***

وسبق « العقد الاجتماعى » كتاب « اميل » إلى الظهور ، بشهر أو شهرين . وكان « ريى » ـ الذى اعتدت دائما أن أحرم عليه تحريما باتا إدخال أى كتاب من كتبى إلى فرنسا ـ قد أرسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بأن يدخل « العقد الاجتماعى » إلى فرنسا ، عن طريق « روان » ، حيث كان قد أرسله بحرا . ولم يتلق « ريى » ردا ، فظلت طروده فى (روان) عدة أشهر ، ثم ردت إليه ، بعد أن بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرت اصحاب المحاولة إلى ردها ليه . على أن الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من (امستردام) ، تدوولت فى غير ضجة تذكر . ولقد حدثنى « موليون » ـ الذى كان قد سمع ، بل ورأى بعض هذه النسخ ـ عن الأمر ، فى شىء من الغموض الذى ادهشنى ، وكان خليقا بأن يثير قلقى ـ كذلك ـ لولا أننى فى تأكدى من أننى اتبعت القانون فى كافة الاعتبارات ، ولم آت ما أؤاخذ نفسى عليه ، رحت اطمئن نفسى مستندا إلى مبدئى العظيم . ولم يخالجنى شكّ فى أن السيد دى شوازيل ـ الذى كان قد أبدى ميلا طيبا نحوى ، ورضاء عن المديح الذى دفعنى تقديرى إياه إلى أن أورده فى هذا الكتاب ـ لن يتردد عن مؤازرتى ، فى

Looleo
www.dvd4arab.com

هذه المناسبة ، ضد النوايا السيئة التى تصدر عن السيدة دى بومبادور !

وكان من المؤكد ان بوسعى إذ ذاك أن اركن إلى افضال السيد دى لوكسمبورج ، اكثر من ذى قبل ، وان اطمئن إلى تعضيده لى عند الضرورة . إذ انه لم يبد لى يوما ما يفوق ما كان يبديه لى إذ ذاك من دلائل الود والصداقة . ومع أن حالتى الصحية المحزنة لم تكن تتيح لى أن اسعى إلى القصر ـ عندما قدم فى رحلة عيد الفصح ـ إلا أنه لم يكن يدع يوما يمر دون أن يزورنى . وإذ رأى أن آلامى لا تنقطع ، اقنعنى ـ فى النهاية ـ بأن اعرض نفسى على الأخ « كوم »(١) . وأرسل يبحث عنه ، ثم احضره بنفسه ، واوتى الجلد على أن يبقى معى أثناء العملية التى كانت مؤلمة وطويلة ، وهو أمر نادر ـ وجدير بالتقدير ـ لدى نبيل عظيم الجاه مثله . على أن العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد أننى لم اكن يوما قادرا على تحملها ، حتى على يدى « موران » الذى حاولها عدة مرات ، ولكنه باء بالفشل باستمرار . على أن الأخ « كوم » ـ الذى أوتى مهارة وخفة يد لا تضارعان ـ وفق فى النهاية ، إلى إنفاذ مسبر جد صغير ، بعد أن سبب لى الما عظيما لأكثر من ساعتين ، كنت خلالهما ابذل قصارى جهدى لأكتم صرخاتى ، حتى لا أمس الفؤاد الحساس الذى أوتيه

---

(١) الأخ « كوم » ، هو جان باسيلاك ، الذى عاش بين سنتى ١٧٠٣ و ١٧٨١ ، وكان حجة فى « الحصوة » وعلل المثانة والكلى . وكان راهبا .

المارشال الطيب ! .. وخيل إلى الأخ كوم ـ بعد الفحص الأول ـ أنه قد اهتدى إلى « حصوة كبيرة » ، وانبأنى بذلك . بيد أنه لم يستطع العثور عليها فى الفحص الثانى . وبعد أن اجرى فحصا ثانيا ، وثالثا ، فى عناية ودقة جعلتانى اشعر بالوقت يستطيل كل الطول ، اعلن ان لا « حصوة » هناك البتة ، ولكن « البروستاتا » كانت متحجرة ، ومتضخمة إلى درجة غير عادية . ووجد ان المثانة كبيرة وفى حال جيدة ، وانتهى بأن ابدى لى اننى سأعانى كثيرا ، ولكننى سأعيش طويلا . وإذا كان قد قدر للنبوءة الثانية أن تكتمل ، كما اكتملت الاولى ، فان آلامى لم تقترب بعد من نهايتها !

وهكذا انتهى بى الأمر ، بعد أن عولجت طيلة هذه السنين المتتابعة من علل لم تكن بى ، إلى ان اعرف ان دائى لم يكن منه شفاء ، وإن لم يكن مميتا ، وانه خليق بان يظل ما ظللت انا على قيد الحياة . ولم يعد خيالى ـ بعد أن كبحته هذه المعرفة ـ يصور لى وفاة اليمة قاسية ، تتم وسط الأوجاع الناشئة عن « الحصوة » . ومن ثم فقد كففت عن الخوف من أن تكون نهاية مسبر كسرت ـ منذ أمد طويل ـ فى القناة البولية ، قد غدت نواة تكونت حولها « حصوة » . وإذ تحررت من شرور الوهم ـ التى كانت اقسى من أوجاع الحقيقة ـ رحت اتحمل هذه الحقيقة فى جلد وصبر . وليس من شك فى أننى منذ ذلك الحين ، اصبحت اقل توجعا من مرضى ، من ذى قبل . وما تذكرت مرة أننى كنت مدينا بهذه الراحة إلى السيد دى لوكسمبورج ، دون أن تهتز مشاعرى من جديد ، تأثرا لذكراه!

Laaloo www.dvd4arab.com

وإذ عدت ـ بهذا ـ إلى الحياة، كما ينبغى أن يقال، اصبحت اكثر من ذى قبل انشغالا بإنجاز ما تبقى من مشروعى(١) . ولم اكن انتظر ـ لهذا الانجاز ـ سوى ظهور « اميل » . وفكرت فى (تورين) التى كنت قد زرتها من قبل ، والتى راقت لى ، نظرا للطف جوها واهلها .

« فالأرض الحنون ، الخصبة ، البهيجة
واهلها يشبهونها فى كل شىء » (٢) !

وكنت قد تحدثت عن مشروعى إلى السيد دى لوكسمبورج، فحاول أن يثنينى عنه . وعدت إلى أن اكلمه بصدده كأمر استقر الرأى عليه . وإذ ذاك اقترح على قصر « ميرلو » ـ الذى كان يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من باريس ـ كملجأ قد يناسبنى ، واعرب عن اغتباطه وزوجته بأن يريانى استقر فيه . ولقد صادفت الاقتراح هوى من نفسى ، فلم أر فيه ما يضير . وكان لا بد من رؤية المكان ، قبل كل شىء ، فاتفقنا على أن يرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلنى إلى هناك فى يوم محدود . ولكنى شعرت ـ فى ذلك اليوم ـ بوعكة شديدة ، ومن ثم ارجأت الرحلة . ثم تكاثفت عدة عوائق بعد ذلك ، على أن تحول بينى وبين القيام بها . وإذ قدر لى ـ فيما بعد ـ أن اسمع أن ضيعة (ميرلو) لم تكن من املاك السيد دى

---

(١) مشروع اعتزال الادب والناس .

(٢) بيت من الشعر اللاتينى للشاعر تاسو .

لوكسمبورج ، وإنما كانت من أملاك زوجته ، فإننى لم أجد كثير عناء فى أن اعزى نفسى لعدم ذهابى إلى هناك !

* * *

وظهر « اميل » اخيرا ، دون أن أسمع أى نبأ جديد عن حذف شىء آخر ، أو عن اية عقبات . وكان السيد دى لوكسمبورج قد طلب إلى ، قبل ظهور الكتاب ، كل رسائل السيد دى ماليزيرب التى تتعلق بهذا المؤلف . ولقد حالت ثقتى بكل منهما ، وشعورى بالطمأنينة التامة ، دون أن أرى فى هذا الطلب اية غرابة أو شبهة . ومن ثم فاننى اعدت الخطابات ، فيما عدا واحد أو اثنين ، تخلفا عفوا بين صفحات بعض الكتب . وكان السيد دى ماليزيرب قد أشار ـ قبل ذلك بفترة من الزمن ـ إلى أنه قد يسحب الرسائل التى كتبتها إلى « دوشين » ، عندما كنت فى جزع بشأن الجيزويت . ومن الواجب أن أعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلى وتفكيرى . ولكنى أنبأته بأننى لم اكن تواقا إلى أن أظهر بمظهر يفضل حقيقتى باية حال ، وأن من الخليق به أن يدع الرسائل لدوشين . . ولست ادرى ما إذا كان قد فعل .

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا أن يحفا بظهور كل مؤلفاتى . بل إن كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة ، ومن استحسان واهن من العامة . فان كل ما كتبه وقاله لى اقدر الناس على الحكم، عزز رايى فىّ انه افضل مؤلفاتى واهمها قيمة . ولكن كل الذى قيل لى قيل فى أغرب مظاهر التحوط والحذر ، وكأنما كان من

Leoloo
www.dvd4arab.com

المهم تكتم الاستحسان واعتباره سرا ! . . فالسيدة « دى بوفلير » ، التى ذكرت لى أن مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بأن تقام له تماثيل ، وأن يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة ، رجتنى فى نهاية رسالتها — فى غير ما مواراة — بأن أرد إليها الرسالة ! . . أما « دالمبير » — الذى كتب لى ما معناه أن الكتاب قد أقر تفوقى وسمو شأنى ، وأنه خليق بأن يجعلنى على رأس كافة الأدباء — فقد أغفل توقيع الرسالة ، مع أنه اعتاد توقيع كل الرسائل التى أرسلها إلى قبل ذلك . ولقد كان « ديكلو » صديقا جديرا بكل ثقة ، وكان رجلا صادقا ، ولكنه كان حذرا حريصا . ومع أنه قدر هذا الكتاب تقديرا عاليا ، إلا أنه تجنب إبداء أى رأى فيه كتابة ! . . ولقد حمل « لاكوندمين » على « إعلان الإيمان » ، وراح يتخبط فى أقواله . وكذلك اقتصر « كليرو » على عين هذا الجزء من الكتاب — فى رسالته — ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثره بقراءته ، فأطلعنى بعبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء فى نفسه العجوز . وكان — دون جميع من أرسلت إليهم كتابى — الوحيد الذى أعلن على الملأ جهرا وبصوت مدو ، مدى إكباره هذا الكتاب .

أما « متى » — الذى كنت قد أعطيته إحدى النسخ الأول ، قبل أن يعرض الكتاب للبيع — فقد أعار السيد « دى بلير » المستشار البرلمانى ، ووالد ممثل الحكومة فى (ستراسبورج)، هذه النسخة . . إذ كان للسيد دى بلير بيت ريفى فى (سان جراسيان) وقد اعتاد « متى » — الذى كان من معارفه

القدامى — أن يزوره من آن إلى آخر ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن ثم فقد مكنه من أن يقرأ « اميل » قبل صدوره ، فلما رد السيد دى بلير إليه الكتاب ، أفضى بهذه الملاحظة ، التى رددت على سمعى فى اليوم ذاته : « هذا كتاب جديد بديع يا سيد متى ، ولكنه لن يلبث أن يثير أحاديث تتجاوز ما قد يوده المؤلف ! » . ولقد اكتفيت ، حين ردد لى هذا القول ، بأن أضحك ، ولم أر فى هذه الملاحظة أكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين ، الذين يحبون أن يضفوا جوا من الغموض على كل شىء . وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق ، والتى نميت إلى ، سوى أثر ضئيل فى نفسى . فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التى كانت موشكة أن تحيق بى ، مقتنعا بجمال مؤلفى ونفعه ، واثقا من أنه فى حدود القانون من كل ناحية ، مرتكنا — كما خيل إلى — إلى كل ما للسيدة دى لوكسمبورج من نفوذ ، بل وإلى رضاء الوزراء كذلك . فرحت أحبذ لنفسى القرار الذى اتخذته باعتزال الأدب وأنا فى غمرة انتصاراتى ، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لى !

ولم يزعجنى من نشر هذا الكتاب سوى شىء واحد ، ولم يكن إزعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتى ، بقدر ما كان منبعثا عن رغبة فى أن أطمئن ضميرى . ذلك أننى كنت قد شهدت عن كثب ، وباستنكار — أثناء وجودى فى (ليرميتاج) و (مونمورنسى) — المنغصات التى كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين ، فيضطرهم إلى تحمل الخسائر التى كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقنص ،

www.dvd4arab.com

دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا باحداث الضجة، ويضطرهم إلى أن يقضوا الليـــالى بين فواهم وبازلائهم ، وهم يدقون على الأوانى والطبول والأجراس ، لينفروا الوعول البرية . ولقد شهدت الوحشية القاسية التى كان السـيد الكونت دى شالروا يعامل بها هؤلاء المساكين ، فحملت ـ عندما أوشكت على نهاية « اميل » ـــ حملة شعواء على هذا التصرف القاسى . وكان هذا العمل منى ، خرقا آخر لمبادئى ، ولم يقدر له أن يمضى دون ما عقاب . فقد سمعت أن رجال السيد الأمير دى كونتى، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحى أراضيه. ورحت أرتجف خشية أن يكون هذا الأمير ـــ الذى كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان ـــ قد حمل على محمل الإســاءة إليه ، ما دفعنى الشمم الإنسانى إلى أن اوجهه إلى عمه الكونت دى شارلروا . على أننى رحت أطمئن نفسى ، فقد كان ضميرى يبرر كل التبرير حملتى هذه ، وقد كنت مصيبا فى ذلك . إذ أننى لم أسمع قط أن هذا الأمير العظيم قد أبدى أتفه اهتمام لهذه الفقرة التى كتبتها قبل أن أحظى بشرف التعرف إليه ، بوقت طويل .

* * *

ولقد ظهر قبل نشر كتابى بأيام قلائل ، أو بعـــده ـــ إذ أننى لا أذكر الوقت تماما ـــ كتاب آخر فى الموضوع ذاته ، نقل بنصه عن الجزء الأول من مؤلفى ـــ كلمة بكلمة ـــ فيما عــدا بعض تعديلات نثرت خلاله . وكان هـــذا الكتاب يحمل اسم شخص من (جنيف) كان يدعى « باليكسير » ، قيل ـــ على

ما جاء فى عنوانه ـــ أنه كان قد فاز بجائزة مجمع (هارليم) . وادركت دون عناء أن هذا المحفل وهذه الجائزة ابتدعا حديثا، لتعمية الرأى العام عن السرقة . بيد أننى رأيت ـــ كذلك ـــ أن فى هذا مؤامرة داخلية ، لم أستطع أن أدرى أكانت تتمثل فى نقل مخطوطى إلى الناشر ـــ الأمر الذى لم يكن من سبيل إلى السرقة بدونه ـــ أم فى إنشاء قصة الجائزة المزعومة ، التى كانت تستدعى ضرورة إنشاء الهيئة التى منحتها ! .. ولم أستطع أن أبدد هذا الغموض إلا بعد سنوات عديدة ، وبناء على كلمة افلتت من « ديفيرنوا » فمكنتنى من أن أتبين خلال الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيد باليكسير !

وبدأت الغمغمة المكتومة التى تسبق العاصفة ، تتناهى إلى السمع ، ورأى كل من أوتى بصيرة ثاقبة ، أن ثمـــة مكيدة كانت تتفاعل ، لتحيق بكتابى وبى ، وأنها لن تلبث أن تنفجر . أما أنا ، فان اطمئنانى وغبائى كانا من الضخامة بحيث أننى لم أبصر محنتى .. بل إننى لم أحدس شيئا عن سببها ، بالرغم من أننى بدأت أشعر بآثرها . فقد تمثلت بدايتهـــا فى دهـــاء بارع ، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها أن المعاملة القاسية التى كان الجيزويت يلقونها ، ما كان ينبغى أن توحى بأى ســـبيل إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين. ولقد وجه إلى اللوم لأننى وضعت اسمى على « اميل »، وكأننى لم أكن قد وضعته على كتاباتى الأخرى دون أن يقـــال لى شىء عن ذلك ، وبدا كأنما كان ثمة خوف من أن يضطر القوم إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها ، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية ، وكانت رعونتى قد مهدت السبيل إليها !

Looloo www.dvd4arab.com

ولقد بلغتنى هذه الأقاويل ، ولكنها لم تسبب لى اقل قلق بل انه لم يخطر لى إطلاقا ان فى المسألة كلها ما يمسنى شخصيا .. انا الذى كنت أشعر بأننى فوق كل لوم ، وأننى مؤيد اشد تأييد ، وأننى بخير من كافة النواحى ، وانه لم يكن لى ان اخشى أن تتركنى السيدة دى لوكسمبورج وسط المآزق ، من اجل ذنب إذا كان قد ارتكب حقا ، فقد كانت هى منشاه الأوحد ! .. على أننى لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة — فى مثل هذه القضايا — أن السخط كان ينصب على الناشرين ، دون المؤلفين ، فقد داخلنى القلق من اجل « دوشين » المسكين، لو أن السيد دى ماليزيرب تخلى عنه !

وظللت ساكنا .. وتضاعفت الشائعات ، وسرعان ما تغيرت لهجتها ، وبدا ان الراى العام ، والبرلمان بوجه خاص ، قد اهاجهما صمتى . وبعد أيام قلائل ، اصبح الانفعال فظيعا ، وتبدل هدف التهديدات واصبحت موجهة إلى — انا بالذات — مباشرة ، وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة الا نفع يرجى من إحراق الكتب ، وإنما يجب إحراق المؤلفين ، أما الناشرون ، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم !.. وفى المرة الأولى التى رددت فيها أمامى هذه الآراء — التى كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض ، وليس عن عضو فى الشيوخ — لم يداخلنى اى شك فى انها كانت ابتكارا من عصبة دولباخ ، اريد به إثارة ذعرى ودفعى إلى الفرار . وضحكت لهذه الحيلة الصبيانية ، وقلت لنفسى وانا اسخر منهم ، إنه لو اتيح لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور ، لبحثوا عن وسيلة أخرى لإرهابى ،

بيد ان الشائعة لم تلبث ان بلغت من الوضوح ما أوحى بأنها جدية . وكان السيد والسيدة دى لوكسمبورج قد بكرا فى زيارتهما الثانية لمونمورنسى ، بحيث انهما كانا هناك فى بداية شهر يونيو . ولم اسمع فى دارهما حديثا يذكر عن كتابى الجديدين ، برغم الضجة التى أحدثاها فى باريس ، كما ان ربى الدار لم يحدثانى إطلاقا فى هذا الصدد .

ومع ذلك ، فقد تصادف أن كنت على انفراد مع السيد دى لوكسمبورج — ذات صباح — فسألنى : « هل تحدثت بسوء عن السيد دى شوازيل فى كتاب : العقد الاجتماعى ؟ » . فأجفلت دهشة ، وقلت : « أنا ؟ .. يقينا : لا ! اقسم لك . على أننى قدمت له عكس هذا .. فبقلم لم يكن يوما متملقا ، كتبت فيه ابدع إطراء حظى به وزير ، فى اى يوم من الأيام !» . وأردفت بأن تلوت عليه الفقرة كلها فعاد يتساءل : « وفى أميل ؟ » . فأجبت : « ولا كلمة .. ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد » . فهتف فى حرارة لم تكن من عادته : « آه!.. كان خليقا بك أن تفعل الشىء ذاته فى الكتاب الآخر ، أو ان تكون اكثر وضوحا فيما كتبت ! » . فأجبت : « لقد خلت اننى فعلت .. ولقد قدرته تقديرا كافيا » . وكان على وشك أن يرد إلى القول ، ولمحت انه كان يتأهب لأن يصارحنى بما كان يخفى ، ولكنه كبح نفسه ، ولاذ بالصمت . فما أتعس سياسة عضو حاشية الملك ، إذ انها تطغى على الصداقة ذاتها، فى أحسن القلوب !

ولقد أثار هذا الحديث ، على قصره ، [illegible] ، بشأن

Looloo www.dvd4arab.com

موقفى ـ أو بشأن ناحية معينة ، على الأقل ـ وجعلنى ادرك اننى كنت هدف المهاجمين . ورحت أنعى هذا النحس ـ الذى لا نظير له ـ والذى قلب إلى غير صالحى كل طيب قلته او فعلته . ومع ذلك ، فقد ظللت اشعر بأنه كان لى ان اعتمد فى هذه المسألة على السيدة دى لوكسمبورج ، والسيد ماليزيرب ، فلم أر كيف كان فى الوسع إزاحتهما للوصول إلى. إذ اننى ـ منذ تلك اللحظة ـ شعرت بجلاء ان المسألة لم تعد مسألة إنصاف او عدالة ، وانه لن يكون ثمة اكتراث بتبين ما إذا كنت مخطئا حقا ، او لم اكن . على ان هدير العاصفة اخذ يزداد شيئا فشيئا . بل ان « نياولم » نفسه ، لم يلبث ان اطلعنى خلال ثرثرته المسهبة ، على أسفه لانه اقحم نفسه فى هذا المؤلف ، وعلى يقينه من سوء الطالع الذى كان يتهدد الكتاب وكاتبه . ومع ذلك ، فقد بقى أمر واحد ظل يطمئننى دائما : فلقد كنت ارى السيدة دى لوكسمبورج جد هادئة النفس مطمئنة ، بل وضاحكة ، مما أوحى بأنها كانت واثقة من نفسها ، إذ أنها لم تبد اى قلق من ناحيتى ، ولم تنبس بكلمة إشفاق أو اعتذار ، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة فى هدوء ، وكأنما لم تكن لها يد فيها ، أو كأنها لم تكن تشعر بأتفه اهتمام بأمرى ! .. ولم يكن يدهشنى سوى أنها لم تقل لى شيئا ألبتة ، إذ لاح لى أنه كان خليقا بها أن تقول لى شيئا ما . أما السيدة دى بوفلير ، فقد تراءت اقل طمأنينة ، وكانت تروح وتغدو والاضطراب يلازمها ، وتسرف فى الحركة، وتؤكد لى أن السيد الأمير دى كونتى كان يبذل الكثير لصد الضربة التى كانت تعد لى ، والتى كانت تعزوها دائما إلى

الأحوال الراهنة ، التى كان على البرلمان فيها الا يتيح للجيزويت فرصة اتهامه بالتهاون إزاء الدين . على انها كانت تبدو قليلة الثقة فى نجاح خطوات الأمير وخطواتها . وكانت احاديثها أدعى إلى الجزع منها إلى التسرية ، فقد مالت دائما إلى حملى على مغادرة البلاد . وكانت لا تنى تنصحنى بالنزوح إلى إنجلترا ، حيث كان بوسعها ان تتيح لى كثيرا من الأصدقاء بينهم « هيوم » الشهير ، الذى كان صديقا لها منذ امد طويل. وإذ رأتنى سادرا فى سكينتى ، اتخذت نهجا آخر كان اقدر على زحزحتى من جمودى . فقد أوحت إلى بأننى قد اضطر ـ إذا قبض على ، واستجوبت ـ إلى ان اذكر اسم السيدة دى لوكسمبورج ، وبأن صداقتها لى كانت تستحق ما هو افضل من أن أعرض نفسى للاضطرار لإحراجها ! .. ولقد اجبتها بأن بوسعها أن تطمئن إلى أننى لن أقحمها فى مثل هذه الحال . فردت بأن هذا العزم أيسر قولا منه تنفيذا ، وقد كانت على صواب فى ذلك ، لا سيما معى أنا بالذات ، إذ كنت مصرا كل الاصرار على الا احلف كذبا او اقول زورا أمام القضاء ، مهما يكن الخطر الذى قد يترتب على قول الحق !

وإذ رأت ان هذه الفكرة قد اثرت فى نفسى ، وإن لم يكن بوسعى بعد أن أحمل نفسى على الفرار ، راحت تتحدث إلى عن « الباستيل » ـ بضعة أسابيع ـ كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية ، إذ لم يكن للبرلمان اى شأن بمسجونى الحكومة . ولم أبد اعتراضا على هذا الكرم العجيب ، على شريطة الا يلتمس باسمى ، ولما لم تعد

loolaa
www.dvd4arab.com

إلى الحديث عن هذا الاقتراح مرة أخرى ، أدركت أنها إنما أبدته لتبلونى ، وأن حيلة كهذه ــ تضع نهاية لكل شىء ــ لم تكن مرغوبة !

* * *

بعد ذلك بأيام قلائل ، تلقى السيد المارشال من أسقف (دويى) ــ صديق جريم والسيدة ديبيناى ــ رسالة ضمنها نبأ قال أنه من مصدر موثوق به ، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ إجراءات غاية فى القسوة ضدى ، وأن مرسوما بإلقاء القبض على سيصدر فى يوم حدده . ورأيت أن هذا النبأ فرية من عصبة دولباخ ، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات ، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن يبدأ ــ فى هذه المناسبة ــ بمرسوم بالاعتقال ، قبل أن يتثبت بالطرق المشروعة مما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأننى كنت مؤلفه حقا . وقلت للسيدة دى بوفلير : « إن أمر الاعتقال ــ المبنى على مجرد البلاغ العادى ــ لا يصدر إلا فى حالة تلك الجرائم التى تمس الأمن العام وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار . أما إذا أريد عقاب ذنب كذنبى ، لا يستحق سوى التكريم والمكافأة ، فإن العرف يقضى باتخاذ الإجراءات القضائية ضد الكتاب ، مع تفادى المساس بالمؤلف قدر الإمكان ! » . وعند ذلك نبهتنى إلى فارق دقيق ، كنت قد نسيته ، لتبين لى أنه كان من التكريم لى أن يصدر قرار بالقبض على ، بدلا من استدعائى لسماع أقوالى !

وتلقيت فى اليوم التالى رسالة من « جاى » الذى أنبأنى بأنه

كان ــ فى عين اليوم الذى كتب فيه الرسالة ــ فى زيارة للسيد المدعى العام ، فلمح على مكتبه مسودة « دعوى » ضد كتاب « اميل » ومؤلفه . ولاحظوا أن « جاى » كان شريكا لدوشين الذى طبع الكتاب ، وأنه كان مطمئنا إلى حسابه الخاص ، فتطوع لإزجاء هذا النبأ إلى المؤلف من قبيل الإحسان ! .. وكان من البسيط ، بل من الطبيعى ، أن يتاح لتاجر كتب قدر له أن يزور السيد المدعى العام، أن يقرأ ــ فى هدوء ــ المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه !! .. ولقد أكدت لى السيدة دى بوفلير وغيرها أن الأمر كان صحيحا . ومن جراء السخافات التى كانت تلقى فى أذنى دون انقطاع، أصبحت ميالا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا !

وشعرت بيقين من أن ثمة سرا وراء كل هذا .. سرا كان يحجب عنى ، فرحت أرقب فى هدوء مجرى الأحداث ، وأنا وطيد الثقة باستقامة مسلكى ، وبراءتى فى المسألة بأسرها. بل أننى كنت جد سعيد بأن أساق إلى شرف المعاناة فى سبيل الحقيقة ، مهما يكن الجور الذى يرتقبنى . وبدلا من أن أخاف واستتر ، واظبت على زيارة القصر يوميا ، وعلى التريض على قدمى ــ كعادتى ــ فى أصيل كل يوم . وفى اليوم الثامن من شهر يونيو ــ وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم ــ قمت برياضتى فى صحبة أستاذين من الوعاظ ، هما الأب المانى والأب ماندار . وحملنا معنا بعض القوت ، إلى (شامبو) ، حيث استمتعنا بوجبة شهية . وكنا قد نسينا أن نحمل معنا كوبات ، فاستعضنا عنها بأعواد من القش ، ورحنا نمتص خلالها

Loolop www.dvd4arab.com

النبيذ من الزجاجات ، متلهفين على اختيار أسمك الأعواد ، لكى نرى ايها اكثر قدرة على الامتصاص . وما كنت يوما اكثر منى طربا فى ذلك اليوم !

ولقد ذكرت كيف أننى كنت أعانى من الأرق فى صباى . ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرا فى السرير — فى كل ليلة — حتى أشعر بعينى تغفوان ، فأطفىء الشمعة ، واحاول ان انام لبضع دقائق ، لم تكن تدوم طويلا . وكانت مطالعاتى الليلية المعتادة هى « التوراة » ، واستطعت بهذه الطريقة ان اقراه خمس مرات أو ستا ، على الأقل . وفى مساء ذلك اليوم بالذات ، وجدت نفسى اكثر يقظة من المعتاد ، فواصلت القراءة فترة اطول ، حتى أتيت على السفر الذى ينتهى بقصة اللاويين وافرايم ، وهو سفر القضاة إذا لم تخنى الذاكرة ، إذ أننى لم انظر إليه قط منذ ذلك الحين . ولقد تأثرت كل التأثر بهذه القصة . وكنت مستغرقا فى التفكير فيها ، بين النوم واليقظة ، عندما انتبهت فجأة إلى ضجة وضوء . وكانت « تيريز » هى التى حملت الضوء ، وتقدمت تقود السيد « لاروش » ، الذى قال إذ رآنى اجفل مذعورا : « لا تنزعج ! .. لقد اقبلت من لدن السيدة المارشالة ، التى كتبت لك ، كما أرسلت إليك خطابا من السيد الأمير دى كونتى » . وفعلا وجدت داخل رسالة السيدة دى لوكسمبورج ، رسالة من الأمير حملها إليها احد رسله ، وقد ضمنها انه قد تقرر — برغم كل جهوده — اتخاذ اقسى الاجراءات ضدى . ومما ذكره : « أن الانفعال بالغ الشدة ، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة ، فالبلاط يطالب بها ،

والبرلمان راغب فيها . وفى الساعة السابعة صباحا ، سيصدر المرسوم بإلقاء القبض ، وسيجرى تنفيذه فى الحال . وقد توصلت إلى انه لن يطارد إذا بادر إلى الابتعاد ، اما إذا اصر على رغبته فى ان يسلمهم نفسه ، فسيلقى القبض عليه » ! ..
وراح « لاروش » يستحلفنى — باسم السيدة المارشالة — أن أبادر فأذهب للتشاور معها . وكانت الساعة الثانية صباحا ، وقد اوت إلى مخدعها ، ولكنه اضاف : « إنها فى انتظارك ، ولن تنام حتى تراك » . فبادرت إلى ارتداء ثيابى ، واسرعت إليها!

وبدت لى مضطربة ، لأول مرة . ومس قلقها مشاعرى . وما كنت بمنجى من الانفعال — انا الآخر — فى هذه اللحظة المفاجئة — فى جوف الليل — ولكنى نسيت نفسى حين رايتها ، فلم اعد افكر إلا فيها ، وفى الدور المحزن الذى كان عليها ان تؤديه ، إذا اسلمت نفسى . ذلك لأننى فى شعورى بأننى أوتيت الشجاعة على الا اقول سوى الحق — ولو ادى ذلك إلى الاضرار بى وإلى إهلاكى — لم اتوقع ان يكون لدى من حضور الذهن ، أو الدهاء ، بل ولا ان يكون لدى الجلد الكافى على ان اتحاشى إقحامها ، إذا ما اشتد الضغط على . ودفعنى هذا إلى ان اقرر ان اضحى بسمعتى فى سبيل راحة بالها ، وان افعل من اجلها — فى هذه المناسبة — مالم يكن فى وسع اية قوة ان تغرينى على ان افعله من اجل نفسى . وما ان استقر رايى ، حتى أعلنته لها ، غير راغب فى ان احط من قيمة تضحيتى بأن امكنها من ان تشتريها ! وانى لواثق من انها ما كانت لتخطىء فهم الحافز الذى دفعنى إلى ذلك . بيد انها لم تفه لى بكلمة توحى بانها

looloo
www.dvd4arab.com

تدرت هذا الحافز . ولقد بهتت لهذا التغافل ، حتى لقد وجدتنى أوازن بين المضى والتراجع . ولكن السيد المارشال اقبل ، كما وصلت السيدة دى بوفلير من (باريس) بعد لحظات ، ففعلا ما كان خليقا بالسيدة دى لوكسمبورج ان تفعله . واستسلمت لإطراءاتهما، فقد استحييت من أن اتراجع،

ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذى ألوذ به ، وموعد رحيلى . وعرض السيد دى لوكسمبورج ان ابقى أياما مستخفيا فى داره ، لأن هذا يتيح لى وقتا للتدبير والبت فى بحبوحة من الوقت . ولم اقبل هذا إطلاقا ، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا إلى قلعة الأسرة ، بل اصررت على رغبتى فى الرحيل فى اليوم ذاته ، مفضلا هذا على البقاء مستخفيا فى أى مكان !

* * *

ولما كنت قد شعرت بأن لى أعداء مستترين واقوياء فى المملكة ، فقد رايت ان لابد لى من أن اغادر فرنسا — برغم حبى إياها — لأضمن راحة بالى . وكانت رغبتى الأولى هى أن ألجأ إلى (جنيف) ، ولكن لحظة تفكير واحدة ، كانت كافية لأن تحولنى عن ارتكاب هذه الحماقة . فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسية — التى كان لها فى جنيف نفوذ يفوق ما لها فى باريس — لن تدعنى فى سلام فى أى من هاتين المدينتين ، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادى . وكنت أعرف أن كتابى: « حديث فى عدم المساواة » قد أثار ضدى — فى المجلس — كراهية كان يزيد من خطورتها ان هذه الهيئة لم تكن تجسر على أن تكشفها علانية . ثم اننى كنت أعرف أن المجلس كان

شديد التحمس لتحريم تداول كتابى « هيلويز الجديدة » ، عند ظهوره — بناء على تحريض الدكتور ترونشان — ولكنه حين تبين ان اية هيئة اخرى لم تحذ حذوه — ولا فى باريس ذاتها — خجل من خسته ، ورجع عن التحريم . لذلك لم يخالجنى شك فى أن المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعا فى استغلالها . وكنت ادرك أن ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل جنيف ضدى — برغم كل المظاهر الجميلة — وأن هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشبع نهمها . ومع ذلك فان الشعور الوطنى كان يدعونى إلى العودة إلى وطنى ، ولو اننى استطعت أن اقنع نفسى بأنه كان فى وسعى ان أعيش فى سلام هناك ، لما ترددت لحظة . أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران ان ألوذ بوطنى كلاجىء ، فقد عزمت، على أن اقيم على مقربة منه فحسب ، فأمكث فى سويسرا فى انتظار ما قد يجرى فى (جنيف) بشأنى . ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلا !

وعارضت السيدة دى بوفلير هذا القرار طويلا ، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملى على ان انتقل إلى إنجلترا . ولكنها لم تزعزع عزيمتى ، فما أحببت قط إنجلترا ولا الإنجليز . وبدلا من ان تتغلب لباقة السيدة دى بوفلير على نفورى ، بدا أنها راحت تضاعفه ، دون أن أدرى السر فى ذلك .

وإذ اعتزمت الرحيل فى اليوم ذاته ، فقد شرعت فى ذلك منذ الصباح ، واعتبرتنى مسافرا بالنسبة للجميع ، ومن ثم فان « لاروش » — الذى كنت قد أرسلته ليحضر إلى أوراقى — لم

www.dvd4arab.com

يشأ أن يقول لتيريز نفسها ما إذا كنت قد رحلت أو لم أرحل. وكنت منذ اعتزمت يوما ان اكتب ذكريات حياتى ، قد جمعت عددا من الرسائل والأوراق ، ومن ثم فقد أضطر إلى أن يذهب إلى دارى عدة مرات لنقلها . وكانت هذه الأوراق ـ التى فحصتها من قبل ـ قد جمعت على حدة ، لذلك قضيت بقية الصباح فى فحص الأوراق الأخرى ، معتزما الا آخـذ معى إلا ما يكون ذا نفع لى ، وأن أحرق الباقى . ولقد رغب السيد دى لوكسمبورج فى ان يساعدنى فى هذا العمل ، الذى استغرق وقتا طويلا ، حتى أننا لم نستطع أن نفرغ منه فى فترة الصباح، ولم أجد متسعا من الوقت كى أحرق شيئا . فعرض السيد المارشال ان يتكفل بفحص الأوراق المتبقية ، وأن يحرق بنفسه الفضلات ـ دون ان يدع هذه المهمة لأحد سواه ـ وأن يرسل إلى كل ما يستبقيه . ولقد قبلت هذا العرض وأنا جد مغتبط بأن اتحرر من هذا الشاغل ، حتى اتمكن من أن أقضى الساعات القلائل التى ما زالت باقية لدى ، مع أولئك الذين كانوا جد أعزاء على ، والذين كنت مزمعا فراقهم إلى الأبد ! .. وأخذ السيد المارشال مفتاح الحجرة التى تركت فيها هذه الأوراق ، وارسل ـ تحت إلحاحى الدائب ـ فى استدعاء « عمتى » المسكينة ، التى كانت تكتوى بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى لى ، وما هو موشك أن يجرى . والتى كانت ترتقب الجنود ـ فى كل لحظة ـ دون أن تدرى كيف تعاملهم ، ولا ما ينبغى أن تجيبهم به !

وأحضرها « لاروش » إلى القصر ، دون أن يذكر لها شيئا.

وكانت تظننى قـد أصبحت على بعد شاسع . فما ان رأتنى، حتى أطلقت صرخاتهـا الحبيبـة ، وارتمت بين ذراعى . فيا للمودة ، ويا لتجاوب القلوب ، ويا للمعاشرة ، ويا للألفة ! .. لقد تجمعت فى تلك اللحظة ـ العذبة والقاسية ـ كل الأيام الهنيئة ، الناعمة ، الوادعة ، التى قضيناها معا ، لتزيدنى شعورا بوطأة اول فراق لنا ، بعد أن كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يوما واحدا ، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عاما ! .. ولم يقو المارشال ـ الذى كان يشهد هذا العناق ـ على كبح دموعه ، فتركنا ! .. ولم تشأ تيريز أن تفارقنى ، فأوضحت لها ما فى مرافقتها إياى ـ فى تلك الظروف ـ من صعاب ، وضرورة بقائها لكى تسوى شئونى ، وتحصل أموالى . ولقد كان من المعتاد ـ عند إصدار مرسوم بالقبض على امرىء ـ أن يستولى على اوراقه ، أو أن توضع الأختام على مقتنياته ، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصى لحراستها. ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هى ، لكى تراقب ما يجرى، وتبذل قصارى وسعها . ووعدتها بأنها لن تلبث أن تلحق بى فى القريب . وقد عزز السيد المارشال وعدى ، ولكنى لم أشأ قط أن أنبئها بالمكان الذى كنت أعتزم الذهاب إليه ، حتى إذا سألها أولئك القادمون للقبض على ، كان بوسعها أن تعرب عن جهلها بذلك صادقة . وعندما احتضنتها فى لحظة الفراق ، شعرت بانفعال عاطفى غير عادى . فقلت لهـا فى حرارة ، وكأنما كنت ـ وا أسفاه ! ـ اتنبأ بما يضمره المستقبل : « عليك أن تتذرعى بالشجاعة يا بنيتى ! .. لقد قاسمتنى نعيم الأيام الحلوة ، وبقى عليك ـ ما دامت هـذه رغبتك ـ أن تشاطرينى محنى ،

Loolo0 www.dvd4arab.com

فلا تتوقعى سوى الاهانات والنكبات إذا تبعتنى . إذ أن الحظ الذى يبدأ معى اليوم ، سيتعقبنى إلى آخر ساعة فى حياتى!» .

ولم يبق لى ما افعله سوى أن أدبر أمر رحيلى . . كان من المتوقع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا فى الساعة العاشرة ، ولكن الساعة كانت الرابعة ـــ بعد الظهر ـــ عندما انطلقت ، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد . وكان الراى قد استقر على ان أسافر بعربة البريد ، ولكنى لم أجد محفة تقلنى إلى هناك ، فأهدانى السيد المارشال عربة خفيفة ذات عجلتين ، وأعارنى جوادين وحوذيا ريثما ابلغ المحط التالى ، حيث لم أجد عناء فى الحصول على جياد ، بفضل التدبيرات التى كان قد اتخذها.

ولم أكن قد تناولت غدائى على المائدة ، ولا أظهرت نفسى فى القصر ، فجاءت السيدات لوداعى ، فى الطابق القائم بين الطابقين الأرضى والأول (الأنترسول)، حيث قضيت اليوم كله. وعانقتنى السيدة المارشالة عدة مرات فى حزن باد ، ولكننى لم المس فى عناقها الحرارة التى كانت قد غمرتنى بها قبل سنتين او ثلاث . كذلك عانقتنى السيدة دى بوفلير ، ووجهت إلى اعذب القول . وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع . . ذلك هو عناق السيدة دى ميربوا ، التى كانت هناك ، هى الأخرى! فان السيدة حرم المارشال دى ميربوا ، سيدة فاترة العواطف إلى أبعد مدى ، شديدة التكلف والتحفظ ، ولا تخلو ـــ كما يبدو لى ـــ من الكبرياء والترفع اللذين يفطر عليهما أبناء اسرة « لورين » . ولم تكن قد أعارتنى ـــ من قبل ـــ اى انتباه . وسواء كنت إذ ذاك ميالا إلى أن أضاعف من قيمة هذا الشرف

غير المرتقب ـــ وقد استخفنى أن أحظى به ـــ أو أنها مزجت حقا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة ، فاننى لمست فى حركاتها ونظراتها قدرا من الصدق ، مما أحدث فى نفسى أبلغ الأثر . وكثيرا ما خيل إلى ـــ عندما كنت افكر فى ذلك ، فيما بعد ـــ أنها كانت على دراية بالحظ الذى قدر لى ، فلم تقو على مقاومة إشفاق عابر ، إزاء المصير الذى كان يرتقبنى .

أما السيد المارشال ، فلم ينبس ببنت شفة . . وكان فى شحوب الموتى . ورغب ـــ فى إصرار ـــ فى أن يرافقنى حتى المركبة التى كانت تنتظرنى عند حوض المياه . فقطعنا الحديقة بأسرها معا ، دون أن نتبادل كلمة واحدة . وكان لدى مفتاح للمتنزه ، استخدمته فى فتح الباب ، وبدلا من أن أضعه فى جيبى بعد ذلك ، رددته إلى السيد المارشال ، دون أن اتفوه بشىء . فتناوله فى لهفة مدهشة ، لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التفكير فيها كثيرا ، منذ ذلك الحين . ونادرا ما عانيت فى حياتى لحظة أمر من لحظة هذا الفراق . وكان عناقنا طويلا ، صامتا . . فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير !

وصادفت فى الطريق بين (لابار) و (مونمورنسى) ، عربة مستأجرة ، كانت تقل اربعة رجال فى ثياب سوداء ، حيونى مبتسمين . ومما أنبأتنى به تيريز ـــ فيما بعد ـــ عن مظهر الضباط ، وساعة وصولهم ، ومسلكهم ، لم يداخلنى اى شك فى أنهم كانوا نفس ركاب العربة ، لا سيما وأننى علمت ـــ بعد ذلك ـــ أن مرسوم إلقاء القبض على ، لم يصدر فى الساعة

Looloo www.dvd4arab.com

السابعة صباحا ، كما قيل لى من قبل ، وإنما أصدر فى منتصف النهار . وكان لا بد لى من ان أمر خلال باريس بأسرها ، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار فى مركبة صغيرة مكشوفة . ورأيت فى الطرقات أشخاصا كثيرين ، حيونى شأن من كانوا يعرفوننى ، وإن كنت لم اتعرف على واحد منهم ! .. وفى مساء اليوم ذاته، انحرفت عن طريقى فى دورة ، لأعرج على (فيلروى) .. ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات ، أن يسعوا إلى « حكمدار » المدينة ، فى (ليون) . وكان هذا أمرا محرجا بالنسبة لمسافر كان غير راغب فى أن يكذب ، ولا فى أن يغير اسمه ، ومن ثم فاننى ذهبت بخطاب من السيدة دى لوكسمبورج لأرجو السيد دى فيلروى أن يعمل على إعفائى من هذا الالتزام . فأعطانى السيد فيلروى رسالة لم افد منها ، لاننى لم امر بمدينة (ليون) . ولا يزال هذا الخطاب ــ بأختامه ــ بين أوراقى . ولقد الح السيد الدوق كثيرا ، كى انام ليلتى فى (فيلروى) ، ولكننى استحسنت ان أواصل السفر ، وبذلك قطعت مرحلتين اخريين ، فى اليوم ذاته .

وكانت مركبتى خشنة ، كما اننى لم احظ بقدر من الراحة يمكننى من المضى فى الرحيل أياما بطولها . وإلى جانب ذلك ، لم يكن لى من فخامة المظهر ما يمكننى من ان أحظى بالخدمات . ومن المعروف فى فرنسا ان خيل البريد لا تشعر بالسوط إلا عبر كتفى الحوذى ، ومن ثم فقد خيل إلى اننى كنت استطيع ان استعيض بالسخاء فى عطاء الأدلاء والمرشدين ، عن كلمات

وإشارات الوعيد . ولكن هذا زاد الأمر سوءا ، فقد ظنوا أننى أفاق موفد فى مهمة ، وإننى لم اعتد سوى السير على القدمين، وإننى كنت أسافر مستخدما خيل البريد ، للمرة الأولى فى حياتى . ومن ذلك الحين لم أعد احصل إلا على ضعاف الخيل، كما أصبحت العوبة الحوذية . وانتهى بى الأمر إلى ما كان يجب ان أتبعه من البداية ، فآثرت الصبر والصمت ، وتركتهم يتصرفون وفق هواهم !

وكان لدى ما يصوننى من السأم خلال الرحلة ، إذ اسلمت نفسى إلى الخواطر التى راحت تصور كل ما جرى لى . غير ان هذه لم تكن محور فكرى ، ولا ملتقى ميول فؤادى . فان السهولة التى انسى بها كل سوء انقضى ــ مهما يكن حديث العهد ــ تدعو إلى العجب !.. وبقدر ما يزعجنى ترقب المحن التى اتمثلها فى المستقبل ، فانها لا تعاود ذهنى ــ بمجرد وقوعها ــ إلا فى وهن ، ثم تتلاشى دون عناء !.. ذلك لأن خيالى القاسى ، الذى يضنى نفسه ــ بلا انقطاع ــ فى ارتقاب النوائب قبل أن تحين ، لا يلبث ان يشتت ذاكرتى ، ويحول دون أن استرجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب . فلا حيلة هناك إزاء ماولى ، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به. والواقع اننى استنفد محنى مقدما ، بطريقة ما ، فكلما اشتد عنائى فى ارتقابها ، سهل على نسيانها .. فى حين أننى ــ على العكس من ذلك ــ لا انفك اشغل بالتفكير فى ماضى هنائى ، فاتذكره وأجتره ــ كما ينبغى أن يقال ــ إلى درجة أننى استطيع ان أستمتع به من جديد عندما يحلو لى ! .. واعتقد اننى مدين لهذا

Loolao
www.dvd4arab.com

الطبع السعيد بأننى لم أعرف قط ذلك المزاج الناقم الذى يتخمر فى قلب حقود ــ من جراء التفكير المستمر فى الإساءة التى حاقت ــ والذى يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعدوه !.. وإذ كنت بطبيعتى حاد المزاج ، فاننى اشعر بالغضب ، بل وبالهياج ، فى عنفوان اللحظة ، ولكن الرغبة فى الانتقام لم تتغلغل قط فى فؤادى . فما أقل ما أفكر فى الاهانة، وما أكثر ما أفكر فى صاحبها ، ولست أفكر فى الضرر الذى تلقيته منه ، إلا تقديرا لما قد أتلقاه من ضرر جديد منه ، فاذا ما وثقت من انه لن يلحق بى مزيدا من الضرر ، فان الضرر الذى الحقه بى من قبل ، لا يلبث ان يروح فى ادراج النسيان ! .. إننا كثيرا ما نوعظ بالصفح عن الإساءات ، وهى فضيلة جد بديعة ولا ريب ، بيد انها لا تصلح لى . فأنا اجهل ما إذا كان قلبى قادرا على إيواء البغضاء، لأنه لم يحس بشىء منها قط .. كما اننى اقل تفكيرا فى إعفائى من ان اكتسب فضيلة الصفح عنهم !.. ولن اقول إلى اى مدى يعذب اعدائى انفسهم لكى يعذبونى . فأنا تحت رحمتهم ، ولديهم كل السلطان ، وانهم ليستخدمونه ! .. على أن ثمة شيئا واحدا فوق سلطانهم ، وانى لأتحداهم ان يفعلوه .. ذلك هو انهم لا يملكون ــ مهما يعذبون انفسهم بسببى ــ ان يضطرونى إلى ان اعذب نفسى من اجلهم !

ومن ثم فاننى ــ فى غداة رحيلى ــ نسيت كل ما جرى ، والبرلمان ، والسيدة دى بومبادور ، والسيد دى شوازيل ، وجريم ، ودالمبير ، والمتآمرين معهم والمتآمرات ، حتى اننى

ما كنت لأفكر ثانية فيهم ، لولا الاحتياطات التى كنت مضطرا إلى ان اتخذها .. ووافتنى ــ بدلا من كل هذا ــ ذكرى أخرى مطالعاتى ، فى عشية اليوم السابق على رحيلى . كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر « جيسنر » التى ترجمها « هوبير » وارسل إلى نسخة منها منذ زمن . ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكرى ، وتمتزجان بشتى الأشكال فى عقلى ، حتى اعتزمت أن احاول الجمع بينهما ، بأن أعالج موضوع قصة « اللاويين وافرايم » ، على طريقة «جيسنر» . على أن أسلوب قصائد الرعاة بدا ــ فى بساطته ــ قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة ، كما أن من العسير تصور أن حالى الراهنة كانت كفيلة بأن تمدنى بأفكار جديدة تخفف من قتامة الموضوع . ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة ، لمجرد التسلية فى مركبتى ، ودون ما أمل فى التوفيق . فما ان بدأت ، حتى ذهلت لسلاسة أفكارى ، والسهولة التى أخذت أعبر بها عنها . وفى ثلاثة أيام ، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى فى هذه القصيدة التى لم البث ان أتممتها فى (موتيير) . واعتقد اننى لم أؤلف فى حياتى شيئا يفوقها فيما سادها من رقة مؤثرة ، ومن نضارة اللون ، وطرافة التصوير وبساطته ، ودقة الوصف ، والسذاجة العريقة التى شاعت فى كل شىء .. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة ، التى كانت فى جوهرها منفرة . ومن ثم فقد كان لى الفضل فى التغلب على هذه العقبة ، إلى جانب الصفات الأخرى . وإذا لم يكن ديوان « لاويو افرايم » هو أفضل مؤلفاتى ، فانه سيظل دائما أحبها إلى !.. فما قرأتها ثانية ، ولن يقدر لى أن أقرأها مرة أخرى ، دون أن ألمس

www.dvd4arab.com

فيها إشراقة قلب خال من السخط ، لا يوغره النحس ، بل إنه يجد العزاء فى نفسه ، ويستمد العوض والجزاء من دخيلته ولو ان جميع أولئك الفلاسفة الذين يتمالون على الشدائد ولما يعرفوها ، حشدوا ، ووضعوا فى موقف كموقفى ، وقدم إليهم ـ فى أولى فورات الكرامة والشرف الجريح ـ مهمة مشابهة لهذه التى أنجزتها ، وسئلوا أن يعكفوا عليها ، لتبدى كيف انهم سيبادرون إلى التهرب !

* * *

وكنت ـ عند مغادرتى (مونمورنسى) إلى سويسرا ـ قد عزمت على أن أذهب للاقامة فى (ايفردون) ، مع صديقى القديم الطيب ، السيد « روجان » ، الذى كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات ، والذى كان قد دعانى إلى زيارته . وسمعت فى طريقى أن (ليون) ستكون بمنأى عن خط سيرى ، الأمر الذى حال دون أن أمر خلالها . ولكننى من ناحية أخرى ـ اضطررت إلى أن أمر ببيزانسون ، وهى بلدة محصنة ، ومن ثم فإنها عرضتنى لعين المضايقة التى كنت أخشاها فى ليون . لذلك قررت أن أنحرف إلى اليسار ، وأن أواصل سفرى عن طريق (سالان) ، بحجة زيارة السيد دى ميران ـ ابن أخ السيد دوبان ـ الذى كان يعمل فى مصانع الملح ، والذى كثيرا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره . ووفقت حيلتى ، إذ اننى لم أجد السيد دى ميران ، فاغتبطت لأن هذا جنبنى التأخر ، فاستأنفت رحلتى دون أن يقول لى أى امرىء كلمة واحدة .

وإذ اجتزت حدود (بيرن) استوقفت ، فهبطت من المركبة ، وارتميت على الأرض ، ورحت أحتضنها وأقبلها .. وهتفت فى فرحتى : « أحمدك أيتها السماء ، يا حامية الفضيلة .. إننى لأطأ الآن موئلا للحرية ! » . وهكذا اعتدت ـ فى ثقتى العمياء بأمانى ـ أن أتحمس لما قد يجلب لى الشقاء . ولقد ظن الحوذى المشدوه أننى جننت ! .. وعدت أستقل المركبة ، فان هى إلا سويعات قليلة ، حتى كنت أحظى بالغبطة النقية العارمة ، التى غمرتنى إذ وجدت نفسى فى أحضان « روجان » الوفى . آه !.. لنتنفس الصعداء لبضع لحظات ، لدى مضيفى الكريم . فلا بد لى أن أسترد شجاعتى وقوتى ، إذ أننى لم ألبث أن أحتاج إليهما معا !

وما أسهبت ـ دون داع ـ فى ذكر تفصيلات كل الظروف التى قدر لى أن أتذكرها ، فى رواية الأحداث السالفة . ومع أن هذه الظروف قد لا تبدو جد براقة ، إلا أنها قد تلقى ضوءا على مجرى الأحداث ، إذا ما أمسك المرء مرة بخيط المؤامرة . مثال ذلك ، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التى نشأت عنها المشكلة التى سأعرضها ، إلا أنها تساعد كثيرا على حلها !

فلو أننا افترضنا ، أن إقصائى كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التى كانت مدبرة لى ، لكان كل شىء مسوقا إلى أن يحدث بنفس الشكل الذى حدث به ـ تقريبا ـ لكى يتسنى للمؤامرة أن تتم .. أما لو أننى كنت قد واصلت صمودى ـ كما فعلت فى بادىء الأمر ـ بدلا من أن أسمح للذعر بأن يستولى على ، من جراء الرسالة الثنية التى بعثت بها

Loolee www.dvd4arab.com

وهتفت فى فرحتى : « أحمدك أيتها السماء ، يا حامية الفضيلة » ..

السيدة دى لوكسمبورج ، وبدلا من أن اضطرب لاضطرابها .. ولو اننى ــ بدلا من البقــاء فى القصر ــ عدت إلى سريرى ، واستغرقت فى النوم حتى الصباح .. فهل كان سيقدر لأمر القبض أن يصدر بالطريقة التى صدر بها ؟.. إنه سؤال عظيم ، يتوقف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة .. ولن يكون من غير المجدى ــ فى دراسته وبحثه ــ أن نلاحظ الساعة التى أنذرت بأن مرسوم القبض على سيصدر فيها ، والساعة التى صدر فيها فعلا . هذا مثال غير مصقول ــ ولكنه معقول ــ لأهمية أتفه التفصيلات فى عرض الوقائع التى نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة ، حتى يتسنى لنا أن نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء والاستنتاج !



الكراسة الثانية عشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير ، التى اتخبط فيهـا منـذ ثمـانى سنوات ، دون ان يتسنى لى — مهما تكن حيلتى وجهدى — أن أنفذ خـلال الظلام الرهيب .. إننى لأحس — فى غياهب التعاسات التى اكتنفتنى — بإيذاء الصفعات التى توجه إلى ، وانى لألمح الأداة المباشرة التى توجهها، ولكننى لا أقوى على أن ارى اليد التى تصدرها، ولا الوسائل التى تحركها وتستخدمها، إن العار والمحن لتهوى على ، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها، دون ان يفطن إليها أحد . وعندما يفلت قلبى الممزق شيئا من الانين ، ابدو فى مظهر الرجل الذى يشكو دون ما مبرر للشكوى، فان مبتدعى دمارى ، وفقوا إلى الفن الذى يفوق كل إدراك .. الفن الذى استطاعوا به أن يحولوا الراى العـام إلى شريك فى مؤامرتهم ، دون أن يحدس الراى العـام ذلك ، أو يفطن إلى نتائجه !.. ومن ثم فاننى إذ أروى الأحداث المتعلقة بى، وألوان المعاملة التى عانيتها ، وكل ما جرى لى ، ارانى فى حال لا تمكننى من أن أكشف عن اليد المحركة ، ولا من ان اعين الاسباب وانا اذكر الأفعال .. فان هذه الأسباب الأولية تلمس جميعـا فى الكراسات الثلاث السابقة ، حيث تكشفت كل الالتفاتات التى وجهت نحوى ، والميول المتعلقة بى ، وكل البواعث المستترة . اما ان اذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتباينة، لتخلق الأحداث العجيبة فى حياتى ، فهذا ما لا سبيل لى إلى شرحه وتعليله ، ولو بالحدس والتكهن !.. وإذا كان بين قرائى من أوتوا من

كرم النفس ما يحفزهم على الرغبة فى الغوص إلى أعماق هذه المعميات للكشف عن الحقيقة ، فليعودوا إلى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية ، وليفيدوا من كل واقعة يقرأونها ، ومن المعرفة التى يستخلصونها منها، فى متابعة الوقائع التى تليها.. وليرجعوا القهقرى من مكيدة إلى مكيدة ، ومن عميل إلى عميل، حتى يصلوا إلى المحركين الأوائل لكل شىء.. وإنى لأعرف موقنا ما سوف تنتهى إليه أبحاثهم ، ولكنى تائه أتخبط فى الطـريق المظلمة المتعرجة الضاربة فى أعماق الأرض ، حيث قادونى !

* * *

تعرفت — خلال إقامتى فى (ايفردون) — جميع أفـراد أسرة السيد (روجـان) ، ومنهم ابنة أخيه السـيدة « بوى ديلاتور » ، وبناتها اللائى تعرفت أباهن فى (ليـون) ، كمـا أحسبنى قد ذكرت من قبل(١) . وكانت السـيدة قد جاءت إلى (ايفردون) لتزور عمها وشقيقاتها . ولقد أطربتنى ابنتها الكبرى — التى كانت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها — بمداركها الواسعة وشخصيتها الرائعة . وسرعان ما ارتبطت بالأم والابنة ، بأرق روابط الود . وكان السـيد روجان قـد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن أخت له « كولونيل » ، كان قد تجاوز السن المعقولة ، وكان يولينى — هو الآخر — أعظم الود. ولكن .. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج ، ومن أن ابن الاخ كان راغبا فيه ، ومن أننى اهتممت — فى حرارة — بأن أرضى كلا

---

(١) أرجع الى صفحة ٧٦ من الجزء الثالث

Looloo
www.dvd4arab.com

منهما ، إلا أن الفارق الكبير فى السن ، والنفور المسف من ناحية الفتاة ، حملانى على أن أعاون الأم فى عرقلة هذا الزواج ، فلم يقدر له أن يتم . وما لبث الكولونيل أن تزوج من الآنسة « ديللان » ، وهى من قريباته ، وكانت سيدة ذات، جمال وخلق يروقان لفؤادى ، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء . ومع ذلك فان السيد « روجان » لم ينس لى قط أننى عارضت رغباته ، فى هذه المناسبة . ويعزينى فى ذلك يقينى من أننى أديت ــ سواء نحوه أو نحو أسرته ــ أقدس واجبات الصداقة، وهو ما لا يتطلب من المرء أن يجعل نفسه مرغوبا على الدوام ، ولكنه يتطلب منه أن يكون ناصحا فلا يشير دائما إلا بما فيه الخير !

ولم يطل بى الشك فيما قد ينتظرنى من استقبال فى (جنيف)، إذا أنا ملت إلى العودة إليها ، إذ أن كتابى أحرق هناك ، كما أصدر مرسوم بالقبض على فى ١٨ يونيو ، أى بعد تسعة أيام من ذاك الذى أصدر فى باريس . ولقد حشدت فى المرسوم الجنيفى كثير من السخافات التى لا يصدقها العقل ، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح ، حتى أننى لم أشأ أن أصدق الأنباء الأولى ، التى تناهت لى عنه ، فلما أيدت فعلا ، رحت ارتجف فرقا من أن يؤدى مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين ، إلى إثارة الرأى العام ، وإلى قلب جنيف رأسا على عقب !.. وما كان لى أن أنزعج ، فان كل شىء ظل هادئا !.. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس ، فانها كانت موجهة ضدى .. فقد عوملت ــ فى جميع الشائعات والتقولات التى انتشرت بين الرأى العام

فى المدينة ــ كما يعامل التلميذ الذى ينذر بالضرب بالسياط ، لأنه لم يحسن تلاوة درسه الدينى !

ولقد كان هذان المرسومان ، إيذانا بانطلاق صرخة اللعنة التى تعالت ضدى فى أوربا بأسرها ، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثيل . فاذا جميع النشرات الرسمية ، والصحف ، والكتيبات تردد أفظع إشارات التنبيه إلى الخطر . وإذا الفرنسيون بوجه خاص ، ذلك الشعب اللطيف ، المؤدب ، الكريم ، الذى يفخر بقوة ميله إلى الخير ورعايته للمنكوبين .. إذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحببة إليه ، ويمتاز على ما عداه بعدد وفداحة الإهانات التى تبارى فى قذفى بها !.. فرميت بأننى كافر ، زنديق ، معتوه ، متهوس ، وحش كاسر ، ذئب .. وشن المعلق فى « جورنال دى تريفو » ــ صحيفة الجيزويت ــ على سعارى الوحشى المزعوم حملة إضافية لم تشن إلا بسعاره هو . وفى وسعك ــ بإيجاز ــ أن تقول إن كل كاتب فى باريس ، أصبح يخشى أن يصطدم بالبوليس ــ عندما ينشر شيئا فى أى موضوع ــ إذا هو أغفل أن يحشوه ببعض الإهانات ضدى !.. وأوشكت ــ فى بحثى عبثا عن سبب هذا العداء الشامل ــ أن أعتقد أن العالم بأسره قد اختبل . يا للعجب !.. أيبث منقح « السلام الدائم » الفرقة والشقاق ؟.. أيكون مؤلف « أسقف من سافوا » كافرا ؟.. أيكون كاتب « هيلويز الجديدة » ، ذئبا ، وكاتب « اميل » ملتاثا ؟.. أواه يا إلهى !.. فماذا كنت أصبح إذن ، لو أننى نشرت كتاب « العقل » الذى وضعه مونتسكيو ، ودعا فيه إلى الإيمان بالعقل وحده) أو أى

Looloo www.dvd4arab.com

مؤلف آخر على شاكلته ؟ . . ومع ذلك ، ففى عنفوان العاصفة التى انفجرت على راس مؤلف هذا الكتاب ، لم يضم الراى العام صوته إلى صوت ظالميه ، وإنما انتقم للمؤلف بما أهاله عليه من مديح ! . . فمن لى بمن يقارن بين كتابه وكتابى ، والاستقبالين المختلفين اللذين استقبلا بهما ، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلفان فى مختلف دول اوربا ، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على أسباب لها تقنع اى أمرىء سليم الادراك ؟! . . هذا جل ما أطلب ، ولن أزيد !

❋ ❋ ❋

ووجدت من الراحة فى (ايفردون) ما جعلنى اقرر المقام هناك ، مستجيبا للالحاح الحار ، الذى انهال على من السيد روجان وأسرته . كذلك شجعنى السيد « دى موارى دى جانجان » ــ القائم على الأمن والعدالة فى هذه المدينة ــ على أن أبقى فى ظلال سلطانه ، بما أبداه لى من افضال . وأصر « الكولونيل » كل الاصرار على أن أسكن مبنى صغيرا مستقلا، بين فناء داره وحديقتهـا . وما إن قبلت ، حتى انصرف إلى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريا لحاجاتى المتواضعة . وكان « روجان » ــ صاحب الراية (١) ــ شديد الحـرص على ملازمتى ، حتى إنه لم يكن يفارقنى طيلة النهار . ولقد كنت اقدر مكرماته كل التقدير ، ولكننى كنت أضيق بها أحيانا !

---

(١) لقب كان يطلق على أى اقطاعى أوتى عددا معينا من رقيق الأرض يبيح له أن يرفع على قصره علماً خاصاً .

وكان موعد استقرارى فى المسكن الجديد قد حدد ، وكتبت إلى « تيريز » كى تلحق بى ، عندما نمى إلى أن زوبعة قامت فى (بيرن) ضدى ، وعزيت إلى غلاة المتدينين ، ولم يقدر لى قط أن اكتشف منشأها . فلقد هب مجلس الشيوخ ــ دون أن يعرف من الذى استنهضه ــ وبدا أنه غير راغب فى أن يدعنى فى سلام ، فى عزلتى . وما ان سمع حاكم المدينة بهذا الهياج ، حتى كتب فى صالحى إلى عدد من أعضاء الحكومة ، ولامهم على تعصبهم الأعمى ، وعاب عليهم الرغبــة فى أن يأبوا على رجل قدير مظلوم ، المأوى الذى يجده كثير من الأشرار فى ولاياتهم ! . . ولقد حدس ذوو العقول الحصيفة ، أن تكون حرارة لومه قد أهاجت الأفكار ، بدلا من أن تهدئها . ومهما يكن الأمر ، فان مكانته وبلاغته لم تستطيعا دفع الصدمة . وما أن تناهت إليه بادرة عن الأمر الذى كان عليه ان يعاملنى بمقتضاه ، حتى أوعز إلى به مقدما ، فقررت الا انتظر هــذا الأمر ، وأن أرحل فى اليوم التالى . وكانت الصعوبة تتمثل فى معرفة المـكان الذى أذهب إليه . فقد كانت (جنيف) و (فرنســا) مغلقتين فى وجهى ، وقد رأيت ــ مقدما ــ أن كل حكومة تقلد جارتها ، فى مثل هذه المسألة !

واقترحت السيدة « بوى ديلاتور » ان اقيم فى بيت خال ، ولكنه مكتمل الأثاث ، كان ابنها يمتلكه فى قرية (موتيير) ، فى (فال دى ترافير) بمقاطعة (نيوشاتيل) . ولم يكن على سوى أن اجتاز أحد الجبال ، كى اصل إلى هناك . ولقد كان الاقتراح جد مناسب ، إذ أننى خليق بأن أجــد ملجأ من الاضطهاد ــ

Loolooo
www.dvd4arab.com

بطبيعة الحال – فى أراضى ملك بروسيا ، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك . بيد أن عقبة خفية – لم يكن من اللائق بى أن أذكرها – حملتنى على التردد . ذلك أن حب العدالة ، الذى يتغلغل فى قلبى ويعمره دائما ، اتحد مع حبى الخفى لفرنسا ، وأوحيا إلى بنفور من ملك بروسيا ، الذى لاح لى انه – من حيث المبادىء والسلوك – كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعى والالتزامات الإنسانية ، وقد كان بين اللوحات ذات الاطارات، التى كانت تزين جدران شرفتى فى (مونمورنسى)، صورة لهذا الأمير ، كتبت تحتها بيتين من الشعر ، هذا ختامهما:

« انه يفكر بعقل فيلسوف ، ويتصرف كملك » !

هذه الشطرة التى كانت خليقة بأن تكون مديحا بديعا – إذا كتبها أى قلم آخر – كانت من قلمى توحى بمعنى غير مبهم ولا غامض ، لا يتضح إلا بالشطرة التى كانت تسبقها (١) . وكان الشيفالييه دى لورنزى قد نقل هذا البيت الشعرى وكتبه لدالمبير . وما كان لدى أى شك فى أن « دالمبير » قد عنى بأن يستغله ، وبأن يرسله قبلى إلى هذا الأمير !.. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة فى « أمل » تبدى بجلاء شخصية الملك الذى كنت أتمثله تحت اسم « ادراستى » ، ملك (داوينيان).

---

(١) تلك هى : « الشهرة والمنفعة .. هذان هما ربه وقانونه » . ولم يكن « روسو » قد كتب هذه الشطرة فوق أختها – تحت الصورة – وانما كتبها خلفها !

ولم تفت هذه التورية النقاد ، إذ رددتها السيدة دى بوفلير امامى مرارا . ومن ثم فقد كنت واثقا من أن اسمى قد سجل بمداد أحمر فى سجلات ملك بروسيا ، وإذ كنت ارى – إلى جانب ذلك – أن هذا الأمير قد أوتى ما جرؤت على ان اعزوه إليه من مبادىء، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتى ، ولا لصاحبها، بأن ينالا منه رضى .. فمن المعروف أن اهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكنوا لى دائما أشد الكراهية القاتلة ، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتى ، ولو لم يعرفونى معرفة شخصية !

ومع ذلك ، فاننى لم البث ان اقدمت على وضع نفسى تحت رحمته ، وقد خيل إلى اننى لن اتعرض لكبير خطر ، فقد كنت أعرف أن المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال، ولكنها لا تظفر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوى ، كتلك التى طالما لمستها فى شخصية هذا الأمير . وقدرت أن من سياسته فى الحكم ، أن يظهر نفسه – فى مناسبة كهذه – بمظهر الشهم العالى النفس .. وحكمت – لنفسى – بأن الانتقام الخسيس السهل ، لا يمكن أن يعدل فى نفسه – ولو للحظة واحدة – حب المجد والشهرة . ووضعت نفسى فى مكانه ، فلم ار من المستحيل عليه أن ينتهز الظرف لكى يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسىء الظن به . ومن ثم فقد سعيت إلى الإقامة فى (موتيير) ، وانا ملىء النفس بثقة خيل إلى أنه قمين بأن يدرك قيمتها . ورحت اقول لنفسى : « إذا

Looloo www.dvd4arab.com

رفع جان جاك نفسه إلى مرتبة كوريولانوس ، فهل يرضى فردريك لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك ؟ » (١)

ولقد رغب الكولونيل روجان — فى إصرار — فى أن يجتاز الجبل معى ، ويطمئن إلى استقرارى فى (موتيير) . ولم تبتهج لوصولى أخت الزوج السيدة « بوى دى لاتور » — وتدعى السيدة جيراردييه — إذ كانت تجد البيت ، الذى كنت موشكا أن أشغله ، أكثر ملاءمة لها هى . ومع ذلك فانها تركتنى أستولى عليه ، فى أدب وتلطف ، وأصبحت أتناول وجباتى لديها ، إلى أن وصلت « تيريز » وانتظمت سكناى الصغيرة وحياتى .

***

وكنت — منذ رحيلى عن (مونمورنسى) — قد أحسست بيقين بأننى سأغدو ، من ذلك الحين ، جواب آفاق ، هائما فى الأرض . ومن ثم فاننى كنت مترددا فى السماح لتيريز بأن تلحق بى ، وأن تشاركنى حياة التجوال التى رأيت أنه قد قضى على بها !.. وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل من جراء هذه الكارثة ، وأن ما كان كرما وفضلا — من ناحيتى —

---

(١) كان كوريولانوس قائدا رومانيا أدى لوطنه أجل الخدمات فى القرن الخامس ، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب ضده ، ففر لائذا بقبائل « الفولك » ، المعادية للرومان ، والتى كان قد هزمها من قبل . وقاد جيشا منها فحاصر روما وكاد يدمرها لولا ضراعات الشعب التى حملتها اليه أمه وزوجته .

من قبل ، يجب أن يصبح كرما وفضلا من ناحيتها ، بعد اليوم . وإذا كان ولاؤها قد ظل فى حصانة ضد محنى وتعاساتى ، فانها ولا بد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات . وما كان أساها ليزيدنى إلا هموما . أما إذا كانت مصائبى قد خففت من عواطفها نحوى ، فلا بد أنها مسوقة إلى أن ترى فى بقائها على ولاء مستمر لى ، تضحية من ناحيتها . وبدلا من أن تشعر بالمتعة التى كنت أحس بها إذ أشركها معى آخر كسرة من الخبز لدى ، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورا بقيمة تضحيتها إذا قدر لها أن تتبعنى إلى حيثما كان القدر يسوقنى!

ومن الواجب أن أقول : إننى لم أتستر قط على أخطاء «ماما» ولا على أخطائى . ومن ثم فلا يجدر بى أن أبدى كثير محاباة لتيريز ، بدورها . وبقدر ما يسرنى أن أكرم شخصا مثلها ، جد عزيز على نفسى ، فاننى ما كنت لأبغى التستر على عيوبها، إذا اعتبر تحول عواطف القلب — التحول غير الإرادى — عيبا. ذلك أننى كنت قد لاحظت من أمد طويل ، أن ودها لى قد فتر . وشعرت بأنها لم تعد لى كما كانت فى أيامنا الهنيئة . وقد زادنى إحساسا بذلك ، أننى ظللت دائما على حالى نحوها . وفطنت — مرة أخرى — إلى شعور بالاستياء ، كذلك الذى سبق أن فطنت إليه عندما كنت مع « ماما » ، وكان له عين النتائج . وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذى لا وجود له فى الطبيعة ، فان هذا هو عين الشعور الذى كان من المحتمل أن يراود أية امرأة أخرى ، مهما تكن

وما قدر للتصرف الذى اتخذته نحو أولادى ، مهما يكن

Looloo www.dvd4arab.com

قد لاح لى متمشيا مع العقل والمنطق ـــ ان يدع قلبى فى سلام. فبينما كنت أفكر فى كتابى : « رسالة فى التربية » ، شعرت بأننى قد أهملت واجبات لا حجة لى فى إهمالها ولا عذر . وما لبث ندمى ان اشتد ، حتى أنه انتزع منى ـــ تقريبا ـــ اعترافا علنيا بذنبى ، فى بداية كتاب « اميل » . وقد ظل هذا الندم ملحوظا بعد ذلك ، حتى ليغدو من المدهش حقا ، ان ينحى احد باللائمة على ، بعد مثل تلك الفقرة . على ان مركزى ظل ـــ فى ذلك الوقت ـــ على حاله .. بل إنه تفاقم بسبب بغضاء أعدائى ، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لى على ذنب . ومن ثم فاننى خشيت ان اكرر الذنب .. ولكى لا أتعرض لارتكابه ، آثرت أن أقضى على نفسى بانتهاج زهد شديد ، حتى لا أعرض تيريز إلى أن تجد نفسها ـــ مرة أخرى ـــ فى نفس الوضع(١) .

وإلى جانب هذا ، كنت قد لاحظت ان معاشرة النساء كانت تؤثر على صحتى تأثيرا محسوسا .. ولقد ادت كل هذه الأسباب إلى أن عقدت عزمى على أمور لم اكن أواظب على اتباعها فى بعض الأحيان ، إلا أننى ازددت إطرادا فى الداب عليها منذ سنوات ثلاث أو اربع . وفى هذه الفترة بالذات ، شعرت بالبرود يدب فى عواطف تيريز . ولقد ظلت على وفاء لى ، عن واجب وليس عن حب . وكان لابد من ان يلقى هذا

---

(١) اى انه لم يعد يعاشر تيريز معاشرة الازواج ، حتى لا تحمل ثمرة تضعه فى موضع المذنب مرة اخرى !

ظلا على بهجة تعاشرنا ، فخيل إلى أنها فى وثوقها من اننى سأواصل رعايتها أينما كانت ، تؤثر ان تظل فى باريس ، على أن تهيم معى فى أرجاء الدنيا ! .. ومع ذلك ، فانها أبدت كثيرا من الألم عند فراقنا ، وانتزعت منى وعودا مغلظة بأن نصل شملنا من جديد ، وقد عبرت عن هذه الرغبة ـــ منذ رحيلى ـــ للسيد الأمير دى كونتى ، وللسيد دى لوكسمبورج ، بحرارة لم تجعل من العسير على ان اجد الجراة على ان احدثها عن الانفصال فحسب ، بل إننى لم اكد اقوى على ان افكر فى ذلك. ومن ثم فما أن شعرت فى قرارة فؤادى بمدى استحالة استغنائى عنها ، حتى أصبحت لا افكر إلا فى ان ادعوها ، دون ما إرجاء . ولهذا فقد كتبت إليها كى تأتى !

وجاءت .. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقى إياها ، ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة ، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة . وكم اهتز قلبانا عندما تعانقنا ! .. ويا لعذوبة دموع الفرح والحنان ! .. لكم ارتوى منها فؤادى! .. فلماذا لم يتح لى أن اذرف منها بحورا ؟ !

* * *

وكنت ـــ عند وصولى إلى « مونتير » ـــ قد كتبت إلى اللورد كييث، مارشال ايقوسيا (اسكتلندا)، وحاكم نيوشاتيل، أنبئه باننى قد لذت لاجئا بالأرض التى تخضع لسلطانه ، واساله ان يبسط على حمايته . وقد أجاب بالكرم المعروف عنه ، والذى كنت أتوقعه منه . ودعانى إلى ان أزوره ، فذهبت فى صحبة السيد مارتينيه ـــ سيد ضيعة « فال ـــ دى ترافير » ـــ

www.dvd4arab.com

الذى كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته . وكان لوقار مظهر هذا السيد الأيقوسى الجليل الصالح ومهابته ، أثر فى قلبى ، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات ، بداية ود حار بيننا ، ظل دائما على قوته ـــ بالنسبة لى ـــ وكان جديرا بأن يظل كذلك، بالنسبة له ، لولا أن الغادرين الذين حرمونى كل عـــزاء فى الحياة ، استغلوا غيابى وكهولته ، فشوهوا من أمرى لديه !

وكان جورج كييث ـــ مارشال ايقوسيا بالوراثة ، وشقيق الجنرال كييث الشهير ، الذى مات ميتة مشرفة ، فى أعقاب حياة مجيدة ـــ قد هجر بلاده فى شبابه ، إذ قضى عليه ، دون محاكمة ، لولائه لآل سيتوراث ، الذين لم يلبث أن عافهم لـمـا ألفاه لديهم من روح ظالمة طاغية ، كانت دائما طابع حكمهم. ولقد أقام زمنا طويلا فى أسبانيا ، ولكن جوها لم يطب له ، وانتهى الأمر إلى ما انتهى بأخيه من قبل، فارتبط بملك بروسيا، الذى كان خبيرا بالرجال ، والذى كان يتلقاهم بما هم به جديرون . ولقد تلقى الجزاء وافيا على هذا الاستقبال ، بما أداه له المارشال كييث من خدمات جليلة ، وبما هو أثمن من هذا . . وأعنى بذلكَ ود السيد اللورد المارشال . فما كان هذا الرجل الجليل ، المفعم بالحرية والكرامة ، والذى أوتى نفسا كبيرة ، لينحنى إلا لربقة الصداقة والود . على أنه فى انحنائه للصداقة كان يسف ، إلى درجة أنه لم يعد يتطلع إلى غير « فردريكَ » ، مذ تعلق به . ولقد عهد إليه الملك بشئون هامة، وأوفده إلى باريس وإلى أسبانيا ، حتى إذا رآه ـــ فى النهاية ـــ قد طعن فى السن ، وأصبح فى حاجة إلى الراحة ، أنعم عليه

بحكم (نيوشاتيل) ، حيث راح يقضى ما تبقى له من عمر فى عزلة ، وقد وجد فى إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة !

أما أهالى نيوشاتيل ـــ الذين لم يكونوا يغرمون بغير المظاهر والسفاسف ، والذين لم يؤتوا القدرة على أن يحكموا على حقائق الأشياء والرجال ، والذين كانوا يولعون بالإطالة فى الحديث ـــ فانهم حين رأوا الرجل هادىء النفس ، بعيدا عن التظاهر ، أخذوا بساطته على أنها ترفع ، وصراحته على أنها غلظة ، وإيجازه فى الكلام على أنه غباء ، وثاروا على تدابيره وجهوده الرامية إلى الخير ، لأنه ـــ فى رغبته فى أن يكون نافعا، دون ما تشدق أو من ـــ لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدروه حق قدره . ففى قضية القس ـــ « بيتيبيير » ـــ الذى اضطهده زملاؤه من رجال الدين ، لأنه أبى أن يؤمن أنهم ملعونون إلى الأبد ، وقف اللورد فى وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال ، فاذا بهم يؤلبون عليـه كل البلاد التى كان يعمل من أجلها . ولم يكن هذا الهياج الأخرق قد سكن تماما ، فى آونة وصولى إلى هناك . إذ كان اللورد معتبرا كرجل متشبث برأيه ومعتد به ـــ على الأقل ـــ وكانت هذه أدنى الاتهامات التى كان يرمى بها إلى الظلم !

ولقد كان أول شعور خالجنى ـــ إذ أبصرت هذا الشـيخ الوقور ـــ هو الاشفاق على هذا الجسد النحيل ، الذى انهكته الشيخوخة . ولكننى لم أكد أرفع عينى إلى تلكَ الأسارير القوية ، الصريحة ، النبيلة ، حتى شـعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولى على، ويطغى على كل إحساس آخر . ولقد رد على التحية الموجزة التى رفعتها إليه ـــ حين قدمت نفسى ـــ

Loolog www.dvd4arab.com

بأن تحدث عن أمر آخر ، وكأنني كنت معه منذ أيام ثمانية . بل انه لم يأمرنا بالجلوس ، فظل سيد الضيعة ، ذو الثياب المنشاة ، واقفا . اما أنا ، فقد رأيت فى نظرة اللورد الحادة ، واللطيفة — فى آن واحد — عطفا لم ادر كنهه ، أشعرنى بارتياح وطمأنينة ، فاذا بى أشاطره أريكته — فى غير ما كلفة — فأجلس إلى جانبه . وادركت من اللهجة الأليفة — التى التزمها فورا — ان هذا التحرر منى ، صادف قبولا لديه ، وانه قال لنفسه : « هذا ليس على شاكلة ابناء نيوشاتيل ! » .

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذة ! .. وفى السن التى يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية ، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوى دفءا ، بدرجة أدهشت كل امرىء . ولقد جاء لزيارتى فى (موتيير) ، بحجة صيد السمانى ، نقضى يومين ، دون أن يمس بندقية !

* * *

وتوطدت بين الأمير وبينى صداقة — فهذه الكلمة الصحيحة — حتى لم يعد بوسع احدنا ان يستغنى عن الآخر . وكان قصر (كولومبييه) — الذى اعتاد ان يقيم فيه ، فى الصيف — على ستة فراسخ من (موتيير) ، فكنت أذهب فى كل خمسة عشر يوما — على الأكثر — لأقضى هناك أربعا وعشرين ساعة ، ثم أعود بقلب ملىء بالأمير دائما ، وكأننى كنت فى حج . ومن المحقق ان الأحاسيس التى كنت اعهدها فى طريقى من (ليرميتاج) إلى (أوبون) — من قبل — كانت تختلف عن هذه التى كنت استشعرها فى عودتى من (كولومبييه) إلى (موتيير) ، بيد

أنها لم تكن تفوق هذه لطفا وعذوبة . فكم من دموع كنت كثيرا ما انفقها — فى طريقى — حنانا ، إذ أفكر فى المكرمات الأبوية ، والفضائل الحبيبة ، والفلسفة الرقيقة التى أوتيها هذا الشيخ الجليل ! .. واعتدت أن أدعوه أبى ، فكان يدعونى ابنه . وان هذين التدائين المستعذبين ليوحيان — إلى حد ما — بفكرة عن المودة التى وحدت بيننا ، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر ، والرغبة فى ان يظل قربنا مستمرا . وراح يصر على الرغبة فى أن اقيم بقصر (كولومبييه) ، واخذ يستحثنى طويلا على ان اتخذ الجناح الذى كنت أنزل به مسكنا لى ، ولكننى — فى النهاية — انبأته بأننى كنت انعم بمزيد من الحرية فى مسكنى الخاص ، وأننى كنت أوثر ان أنفق عمرى فى السعى لزيارته . فارتاح إلى صراحتى ، ولم يعد إلى إثارة الموضوع . أواه ، يا مولاى الطيب ! .. أواه ، يا أبى الكريم ! .. لكم يهتز قلبى — حتى اليوم — كلما تذكرتك ! .. آه ، يا للقساة الفلاظ ! .. اية ضربة انزلوها بى إذ فرقوا بيننا ! ولكن ، كلا ، كلا ، ثم كلا ، ايها العظيم .. إنك اليوم — وستظل دائما — كما كنت من نفسى ! وإذا كانوا قد غرروا بك ، إلا انهم لم يحولوك قط(١) !

ولم يكن اللورد المارشال مبرءا من العيوب ، فهو إنسان ،

---

(١) من الصحيح ان اللورد المارشال ، كان وثيق الصلة بهيوم ، ومن ثم فانه تأثر للأخطاء التى ارتكبها روسو نحو الأخير . ولكنه ظل صادق الود لروسو برغم ذلك ، حتى أنه أهداء قبل موته — وقد توفى مايو سنة ١٧٧٨ ، سابقا روسو بستة أسابيع — ساعة لم يكن يفارقها .

Looloo www.dvd4arab.com

وإن كان حكيما ! .. ومع أنه أوتى أشد العقول قـدرة على الغوص فى أعمـاق الأمور ، وأرق أسلوب يؤتاه بشر ، وأعمق معارف الإنسان ، إلا أنه كان يستسلم لتغرير الغير به ، ولم يكن خداعه ليستعصى عليهم .. كان ذا مزاج فذ ، فقد كان يشوب سير عقله شىء من الغرابة والطرافة . كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان بصره يقع عليهم فى جميع الأيام ، ثم يذكرهم فى اللحظات التى لا يكاد يفكر فيهم خلالها . وكانت التفاتاته تبدو فى غير مواضعها ، وهداياه تمنح جـزافا ، دون ما مراعاة لمناسبتها. فهو يبعث أو يمنح ما يخطر له عفو اللحظة، غير حافل بعظم قدر الهدية ، أو ببخس قيمتها . ولقد قـدم إليه يوما شاب من (جنيف) ، كان راغبا فى العمل فى خدمة ملك بروسيا ، فبدلا من أن يزوده اللورد بخطاب ، دفع إليه بكيس صغير ملىء بالبازلاء ، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذى لم يكد يتسلم هـذه التوصية العجيبة ، حتى أنعم على حاملهـا بمنصب ! .. إن لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة ، لن يقدر للعقول العادية أن تفهمها ! .

وما كانت هـذه التصرفات الطريفة ، التى تشبه نزوات الحسناء ، لتزيد اللورد المارشال إلا مكانة ، ولقد كنت متأكدا – ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية – على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثر أى تأثير على أحاسيسه ، أو على الاهتمام الذى تفرضه عليه الصداقة فى جلائل الأمور . ولكن من الصحيح أنه فى تفضله ، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التى تخالط مسلكه . ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تافهة

القيمة كهذه . ذلك أنه لما كانت الرحلة من (موتيير) إلى (كولومبييه) أشق من أن أقطعها فى يوم ، فإننى اعتدت أن أقسمها إلى شطرين . فكنت أشرع فيها بعد الغداء ، وأقضى الليل فى (برو) ، القائمة فى منتصف الطريق . وكانت لصاحب النزل – ويدعى « ساندوز » – حاجة فى برلين ، يعلق عليها أهمية كبرى . فرجانى أن أسأل صاحب السعادة أن يطلبها له باسمه . ووافقت عن طيب خاطر ، فاصطحبته ، وتركته فى الحجرة الخارجية ، ثم ذكرت مسألته للورد ، الذى لم يرد بشىء ! .. وانقضى الصباح . وفيما كنت أقطع البهو ، فى طريقى إلى الغداء ، رأيت « ساندوز » المسكين ، وقد أنهكه الانتظار . وخطر لى أن اللورد قد نسى أمره ، فعـدت إلى الحديث عنه قبل أن يجلس إلى المائدة . ولكنه لم ينبس بكلمة، كما فعل من قبل ! .. واشتممت من مسلكه أنه كان يوحى بأننى قد تجاوزت حدى فى مضايقته ، فلذت بالصمت ، وأنا أرثى لساندوز المسكين فى سريرتى ! .. وشد ما كانت دهشتى حين قابلنى فى عودتى – فى اليوم التالى – بشكر دافق لما أتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة ، وشهى الطعام ، فضلا عن تكفله بأوراقه . وبعد ثلاثة أسابيع ، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التى كان يسعى وراءها ، وقد أعدها الوزير ووقعها الملك .. كل هذا دون أن يبدى أقل رغبة فى الحديث إلى ، ودون أن يرد على أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذى خيل إلى أنه كان غير راغب فى أن يتكفل به !

وبودى ألا أكف عن الكلام عن « جورج كييث » ، فمنـه تواتينى آخر ذكرياتى السعيدة ، أما بقية عمرى فلم يكن سوى

www.dvd4arab.com

هموم وشجون تعتصر القلب . ولشد ما تبعث ذكراها الأسى فى نفسى ، فهى تواتينى مضطربة مهوشة ، حتى ليعز على أن احتفظ بانتظام سياق قصتى ، ومن ثم فسأضطر ـ منذ الآن ـ إلى أن اسوقها عفوا ، وحسب ما تخطر لى ، لا حسب ما وقعت !

***

لم يطل بى أمد القلق بشأن المكان الذى لجأت إليه ، بفضل رد الملك على اللورد المارشال الذى وجدت فيه ـ كما يسهل الحدس ـ محاميا بارعا . فان جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب ، بل إنه كلفه ـ كما ينبغى أن يقال ـ بأن يمنحنى اثنى عشر « لوى » . وإذ شعر اللورد الطيب بالحرج من مهمة كهذه ، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه فى تلطف ، سعى إلى تخفيف ما فى تنفيذها من جرح لشعورى ، بأن حول النقود إلى حاجيات مادية ، فأشار إلى انه تلقى أمرا بأن يزودنى بالخشب والفحم اللازمين لى فى بداية استقرارى فى المسكن الصغير . بل إنه اضاف إلى هذا ـ وربما صدر فى ذلك عن إيعاز من نفسه ـ بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لى ، وفق هواى ، إذا انا اخترت الموقع . ولقد اثر هذا العرض الأخير فى نفسى ابلغ تأثير ، وانسانى رذالات الآخرين. وبدون ان اقبل ايا من الهبتين ، رحت اتطلع إلى فردريك كراع لى وحام . فملت إليه بولاء صادق ، حتى اننى اهتممت بسمعته ، فوجدت ـ منذ ذلك الحين ـ كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته . وعندما عقد الصلح ـ بعد ذلك بقليل ـ اعلنت

اغتباطى بزينات مفرطة الجمال ، تمثلت فى حبل من زهور الغار زينت به الدار التى كنت أقيم فيها ، وانفقت عليه ـ بدافع من الانتقام لكرامتى ، فى الواقع ـ مبلغا يوازى ذاك الذى أراد أن يمنحنيه .

وخيل إلى ، وقد استتب السلام ، واصبح صيت الملك الحربى والسياسى فى أوجه ، انه لن يلبث أن يسعى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر ، وذلك بإنعاش ولاياته ، فيمكن للتجارة والزراعة من أن تتسعا ، ويستصلح الأراضى ويعمرها بخلق جديد ، ويحافظ على السلم مع جيرانه، ويغدو داعية الوئام فى اوربا ، بعد أن كان مصدر الذعر . . كان بوسعه أن يغمد السيف دون أن يتعرض لخطر ، وهو مطمئن إلى انه لن يضطر إلى أن يشهره من جديد . فلما رأيت انه لم يخفض من تسلحه ، خشيت أن يسىء استغلال ميزاته، وألا يمضى فى طريق العظمة إلا إلى منتصفه . فجرؤت على أن اكتب إليه بهذا الصدد ، متخذا اسلوب الألفة ـ وهو خير ما ينتهج لإرضاء الرجال الذين من نوعه ـ حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس ، الذى لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك ! . . وما استبحت هذا لنفسى إلا فى الخفاء ، وفيما بيننا فقط ، فلم اشرك احدا ، ولا سيدى المارشال ، الذى ارسلت إليه الخطاب الموجه إلى الملك مغلقا ، فأرسله بدوره إلى هذا ، دون أن يطلع على ما حواه ولم يجب الملك بشىء . وبعد ذلك بوقت قصير ، ذهب سيدى المارشال إلى برلين ، فاكتفى بأن قال له إننى عنفت فى تأنيبه ! . . وادركت من ذلك

Looloo
www.dvd4arab.com

أن خطابى لم يلق استحسانا ، وأن تحمسى الصريح أخذ على محمل التطفل الخشن ، وقد يكون الأمر كذلك ، فى جوهره . ولعلنى لم أقل ما كان ينبغى أن يقال ، ولا اتخذت اللهجة التى كان ينبغى أن أتخذها . ولكنى لا أحاسب نفسى إلا عن الشعور الذى دفع بالقلم إلى يدى !

وبعد استقرارى فى (موتيير ـــ ترافير) بوقت قصير ، واطمئنانى إلى كل الضمانات التى تكفل لى العيش فى سكينة ، اتخذت الزى الأرمنى . ولم تكن الفكرة بالجديدة على ، فقد خطرت لى مرارا فى سياق حياتى ، ثم عاودتنى كثيرا فى (مونمورنسى) ، حيث كان استخدامى المستمر للمجسات (لعلاج احتباس البول) ، يضطرنى إلى أن ألزم مخدعى فى كثير من الأحيان ، مما جعلنى أكثر شعورا بفوائد الثوب الطويل . ولقد ساقت المصادفة حائكا أرمنيا ، كان يكثر من التردد على تريب له فى (مونمورنسى) ، فأغرانى ذلك بأن أنتهز الفرصة لأتخذ الزى الجديد ، برغم ما قد يتقوله الناس ، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم . على أننى شئت ـــ قبل أن أتزيا بهذه الحلة الجديدة ـــ أن أتعرف رأى السيدة دى لوكسمبورج ، فحبذت كل التحبيذ رأيى . ومن ثم فاننى أعددت « طاقما » صغيرا من الملابس الأرمنية ، بيد أن الضجة التى أثيرت ضدى ، جعلتنى أرجىء استخدامه إلى وقت يكون أكثر هدوءا . ولم يتسن ذلك إلا بعد بضعة أشهر ، عندما اضطررت إلى العودة إلى استخدام المجسات ، مدفوعا بنوبات جديدة لعلتى .. فخيل إلى أن بوسعى أن أتخذ هذا الزى فى (موتيير)، دون أن أتعرض

لشىء ، لا سيما بعد أن استشرت راعى كنيسة المنطقة ، فأنبأنى بأن بوسعى ارتداءه ـــ حتى فى الكنيسة ـــ دون ما استحياء أو إنكار . ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان ، والقلنسوة المصنوعة من الفرو ، والحزام . وبعد أن اشتركت فى أداء الفروض الدينية بهذا الزى ، لم أر أى ضير فى أن أرتديه فى زيارتى لسيدى المارشال . وما أن رآنى سعادته فى هذا اللباس ، حتى قال ، على سبيل الملاطفة : « السلام عليكم » ، فكان فى هذا حسم الأمر ، ولم أعد بعد ذلك أرتدى زيا آخر !

* * *

ولما كنت قد هجرت الأدب تماما ، فاننى لم أعد أفكر إلا فى ممارسة حياة هادئة ، وادعة ، فى نطاق إمكانى . فما عرفت يوما ـــ حين أخلو إلى نفسى ـــ معنى الملل ، حتى عندما أكون متعطلا تماما .. إذ أن خيالى كفيل بأن يملأ كل فراغ ، وهو وحده خليق بأن يشغلنى عما سواه . ولكن الذى أعجز عن احتماله دائما ، هو الثرثرة الخاملة ، بين جدران أربعة ، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض ، دون أن يحركوا شيئا سوى ألسنتهم ! .. كذلك المشى والتريض من الأمور التى احتملها ، إذ أنهما يمكنان القدمين والعينين من أن تعمل ، على الأقل !.. أما الجلوس بذراعين معقودتين ، والحديث عن الجو ، والذباب يحلق فى المكان ، أو تبادل المجاملات ـ وهو أسوأ مما سبق ـ فهذا عبء لا يطاق بالنسبة لى . ولقد راق لى ـــ حتى لا أعيش فى عزلة وحشية ـــ أن أشغل نفسى « بالتطريز اللاسيه » ،



وما أن رآنى سعادته فى هذا اللباس ، حتى قال ، على سبيل الملاطفة
« السلام عليكم »

فكنت احمل وسادة الشغل فى زياراتى ، او انهمك فى التطريز لدى بابى ، وانا اجاذب المارة الحديث ، كما تفعل النساء !

ولقد ساعدنى هذا على احتمال اللغو الفارغ ، وعلى قضاء الوقت ــ دون ما ضجر ــ فى دور الجيران ، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف ، ولا ينقصهم الذكاء . وقد كانت من هؤلاء امراة تدعى « ايزابيل دانفرنوا » ، ابنة المدعى العام فى (نيوشاتيل) ، وقد لاح لى أنها جديرة بأن ارتبط معها برباط خاص من الود ، لم تجد فيه ما يضيرها ، بفضل النصائح النافعة التى كنت أزجيها إليها ، وبفضل الخدمات التى كنت أؤديها لها فى المناسبات الماسة .. فأصبحت اليوم اما محترمة وربة أسرة فاضلة .. ولعلها مدينة لى بحكمتها ، وزوجها ، وحياتها ، وسعادتها ! .. اما أنا ، فأدين إليها بكثير من التسرية الرقيقة ، لا سيما خلال الشتاء الكئيب ، عندما كانت عللى وأوجاعى ترقى إلى ذروتها . فكانت تأتى لتقضى مع « تيريز » وإياى السهرات الطويلة ، التى تحذق تقصيرها بروحها المرحة ، وبالثقة التى كانت متبادلة بيننا . وقد اعتادت أن تدعونى « بابا » وأناديها بيا « ابنتى » . ولا نزال نستخدم هذين اللقبين ، وانى لآمل أن اظل عزيزا عليها ــ دون انقطاع ــ كما هى عزيزة على !

ولكى اجعل لأشغالى « اللاسيه » نفعا ، اعتدت ان اهديها إلى صديقاتى الشابات عند زواجهن ، على شريطة ان يغذين أطفالهن بلبانهن . وعلى هذا ، حصلت الأخت الكبرى لايزابيل على مفرشى من « اللاسيه » ، وكانت جديرة به حقا .. ولكنها

Looloo www.dvd4arab.com

لم تسعد بحمل الأطفال ، ولم يقدر لها أن تكون أما . ولقد حرصت ـ عند إرسال « اللاسيه » إلى « ايزابيل » واختها ـ على أن اكتب لكل منهما رسالة . وقد طافت أولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم . أما الثانية ، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة .. فان الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج!

* * *

ومن الصلات التى عقدتها فى الجيرة ـ والتى لن أخوض تفصيلاتها ـ يجب أن اذكر علاقتى بالكولونيل « بورى » ، الذى كان يمتلك دارا فوق الجبل ، اعتاد أن يقضى فيها فصل الصيف . ولم أكن مشوقا إلى معرفته ، إذ كنت قد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكى ، ومع السيد المارشال ، الذى لم يزره قط . ومع ذلك ، فقد اضطررت إلى أن ازوره ، إذ زارنى وأبدى لى كثيرا من التكريم والحفاوة . وقد استمر تزاورنا ، وكنا نتناول الطعام أحيانا ، على مائدته او مائدتى . ولقد تعرفت فى داره بالسيد « دوبييرو » ، الذى لم يلبث أن غدا صديقا حميما ، حتى أننى لا استطيع ان أتحاشى الحديث عنه .

كان السيد « دوبييرو » أمريكيا ، ابن قائد (سورينام) الذى تزوجت ارملته من خليفته السيد لوشامبربيه ـ من ابناء (نيوشاتيل) ـ حتى إذا ترملت مرة اخرى ، وفدت مع ابنها ليقيما فى بلاد زوجها الثانى . وكان دوبييرو ابنا لا مثيل له ، واسع الثراء ، مشغوفا بحب أمه ، وقد نشأ فى رعاية وعناية ، وأفاد من تربيته ، إذ كان قد حصل قدرا كبيرا من

المعرفة العامة ، وكان على ميل إلى الفن ، كما كان يفخر بأنه أنمى بنفسه مداركه وعقله ، وكان مسلكه فاترا ، فيلسوفيا ، على نسق الهولنديين .. وكانت بشرته السمراء ، وخلقه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد . وكان أصم ، ومصابا بالنقرس ، بالرغم من انه كان شابا . وقد جعل هذا حركاته جد متزنة ، ومفرطة فى التثاقل . ومع انه كان يحب النقاش ـ ويطيله فى بعض الأحيان ـ إلا انه كان قليل الكلام ، بوجه عام ، لأنه لم يكن يسمع !

ولقد غرنى كل هذا المظهر ، فقلت لنفسى : « ها هو ذا رجل مفكر ، عاقل ، من الصنف الذى يسعد المرء بصداقته » . ومما زادنى اغترارا فيه ، انه كان كثيرا ما يوجه إلى الحديث ، دون اى إطراء . وكان قليل الحديث عنى وعن كتبى ، واقل من ذلك عن نفسه . ولم يكن خلوا من الآراء ، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا إلى درجة كبيرة . وقد اجتذبتنى إليه هذه الدقة ، وهذا الصواب . ولم يؤت عقله شيئا من السمو ولا من الإرهاب اللذين أوتيهما السيد المارشال ، ولكنه اوتى البساطة .. فكانت تتمثل دائما فى كل شىء .

ولم اشغف به ، ولكننى انجذبت إليه بشعور من التقدير ، وقد افضى هذا التقدير ـ تدريجا ـ إلى الصداقة . ولقد نسيت تماما ـ فى صداقتى معه ـ الاعتراض الذى كنت أبديته إزاء صداقتى مع البارون دولباخ ، وذلك انه كان واسع الثراء .. واعتقد اننى كنت فى ذلك على خطأ .. فلقد تعلمت ان ارتاب

Loloo www.dvd4arab.com

فى أن اى رجل أوتى ثروة طائلة ، يستطيع ان يحب مبادئى بإخلاص ، وان يحب صاحبها !

ولقد ظللت فترة طويلة ، لم اكن ارى « دو بييرو » فيها إلا لماما ، إذ أننى نادرا ما كنت اذهب إلى (نيوشاتيل) ، كما انه لم يكن يزور الكولونيل « بورى » ـــ فى بيته الجبلى ـــ إلا مرة فى العام . فلماذا لم اكن اذهب إلى نيوشاتيل ؟.. لسبب صبيانى ، لا ارى أن اغفله .

ذلك أننى وإن كنت ـ فى حماية ملك بروسيا والسيد اللورد ـ قد نجوت ، فى البداية ، من الاضطهاد فى البلد الذى لذت به ، إلا أننى لم انج قط من تمتمات الجمهور ، ومستشارى البلدية ، والقساوسة . وبعد المثل الذى ضربته فرنســـا ، لم يكن من المستحسن الا توجه إلى بعض الإهانات ، على الأقل . فلقد خشى القوم أن يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدى ، إذا هم لم يقلدوهم . وكانت الطبقة الممتازة فى (نيوشاتيل) ـــ واعنى جماعة القساوسة فى تلك المدينة ـــ هى البادئة ، إذ حاولت ان تؤلب مجلس الدولة ضدى . فلما لم يقدر لهذه المحاولة النجاح ، اتجه القساوسة إلى أعضـــاء المجلس البلدى ، الذين بادروا بتحريم كتبى ، وراحوا فى كل مناســـبة يعاملوننى فى ازورار ، ليوحوا إلى ـــ بالقول وليس بالإشارة فحسب ـــ بأننى إذا كنت ابغى الاستقرار فى مدينتهم ، فانهم لن يطيقوا مقامى . وملأوا أعمدة صـــحيفتهم « ميركور » بالســـفاسف المضحكة ، والانتقادات السطحية ، التى اضـــحكت ذوى الإدراك ، ولكنها لم تخفق فى إثارة الجمهور وتحفيزه ضدى .

وما كان سماعى بكل هذا ليمنعنى من ان اكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ ، إذ سمحوا لى بأن أقيم فى (موتيير) ، حيث لم يكن لهم اى سلطان .. فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشبر ، ليتقاضونى ـــ فى مقابله ـــ ثمنا باهظا ! فلقـــد كانوا تواقين إلى ان يشعرونى بأننى اسير فضل كبير لهم ، من جراء الحماية التى اضفاها الملك على بالرغم منهم ، والتى كانوا دائبين على العمل لحرمانى منها ، وإذ تبينوا ـــ أخيرا ـــ انهم لن يوفقوا فى ذلك ، وبعد ان الحقوا بى كل ما كان بوسعهم من إيذاء ، وأساءوا إلى بكل ما فى طاقتهم ، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة ، بأن راحوا يمنون على بفضلهم إذ تحملوا بقائى فى بلادهم . وكان الجواب الوحيد الذى يخلق بى ان اوجهه إليهم هو .. ان اضحك منهم ساخرا . ولكننى ـــ بدلا من ذلك ـــ كنت من الغباء بدرجة اننى غضبت ، وكنت من الحماقة بدرجة أن عقدت العزم على الا اذهب إلى (نيوشاتيل) .. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا ، وكأننى لم اكن ابدى لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الإكبار ، بما كنت ابديه من احتفال بمسلكهم الذى ما كانوا ليعتبروا مسئولين عنه ـــ سواء كان طيبا أو خبيثا ـــ لأنهم ما كانوا ليتصرفوا قط ، دون تحريض ! .. وإلى جانب ذلك ، فان العقول الخالية من الثقافة والنور ، لا تعرف هدفا تقدره سوى الصيت ، والنفوذ ، والمال .. وهى بعيدة كل البعد عن أن تحدس ان المواهب جـــديرة بشىء من الاحترام ، وان فى إهانتها عارا يحط من اقدارهم !

ولقد قال مرة احد عمداء القرى ـــ وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته ـــ لرئيس بوليس (فال ـــ دى ـــ ترافير) :

loolo www.dvd4arab.com

الذى كان زوجا لصديقتى ايزابيل : « يقال ان هذا الـ «روسو» رجل واسع العقل ، فهاته لى ، كى أتبين مدى صدق هذا !» . ومن المؤكد ان عدم رضاء رجل يتحدث بهذه اللهجة ، لا يستحق ان يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم !

* * *

وعلى ضوء الطريقة التى عوملت بها فى باريس ، وجنيف ، وبيرن ، ونيوشاتيل ذاتها ، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار ، من الراعى الدينى للمنطقة . ومع ذلك فان السيدة «بوى ديلاتور» كانت قد أوصته بى خيرا ، وكان قد استقبلنى فى حفاوة بالغة . ولكن المجاملات لم تكن تعنى شيئا ، فى هذا البلد الذى كان النفاق يسوده . على اننى بعد عودتى الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية ، وإقامتى فى بلاد بروتستانتية ، لم أعد املك إهمال إبداء إيمانى للملأ بالدين الذى عدت إليه ، وإلا كنت ناكثا بعهودى ، مغفلا واجباتى كمواطن . ولهذا أخذت احضر الطقوس الدينية . ولكنى من ناحية أخرى ، كنت اخشى ان يؤدى حضورى المأدبة الربانية ، إلى ان اتعرض للاهانة بأن يرفض القس السماح لى بتناول القربان . فما كان من المحتمل إطلاقا ــ بعد الضجة التى اقامها المجلس ضدى فى جنيف ، وتلك التى اثارها رجال الدين فى نيوشاتيل ــ أن يقوم القس بطقوس المناولة لى ، فى هدوء ، فى كنيسته . ولما كان موعد المناولة يقترب ، فقد قررت ان اكتب إلى السيد « دى مونمولان » ــ وهذا اسم القس ــ معربا عن حسن نواياى ، ومعلنا إليه اننى كنت مرتبطا بقلبى بالكنيسة البروتستانتية دائما . وقلت له فى الوقت ذاته ــ تفاديا لكل خلاف على

نصوص العقيدة ــ إننى لم اكن راغبا فى أى شرح خاص لأسس العقيدة . وإذ أوضحت موقفى ــ بهذا الشكل ــ لزمت الهدوء ، والشك لا يخامرنى فى أن السيد دى مونمولان لن يأبى ان يعفينى من المناقشات الأولية ــ التى تسبق المناولة عادة ، والتى كنت مصرا على الا أخوضها إطلاقا ــ وأن المسألة ستسوى على هذا الوضع ، دون ما لوم ينصب على .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ! . ففى اللحظة التى لم اكن اتوقع فيها هذه المفاجأة ، إذا بالسيد دى مونمولان يقبل . . لا لينبئنى بأنه كان راضيا عن مناولتى القربان ــ بالشرط الذى ذكرته ــ فحسب ، وإنما ليخبرنى فوق هذا ، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن فى وجودى عضوا بين رعاياهم شرفا لهم! . . ابدا لم افاجأ فى حياتى كما فوجئت بذلك ، وابدا لم أجد فى شىء ما وجدت فى هذا النبأ من عزاء .

كان اضطرارى إلى العيش فى عزلة على الدوام ، يبدو لى مصيرا جد كئيب ، لا سيما فى أوقات المحنة . ففى وسط كل هذه الأحكام التى كنت أدمغ بها ــ دون ما إنصاف ــ وكل هذه الاضطهادات ، كنت أجد ترفيها بالغا فى ان استطيع أن اقول لنفسى : « ها انذا بين أخوة ، على الأقل ! » . ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلب يفيض بالانفعالات ، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة ، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله ، ويستطيع امرؤ أن يحملها إلى المائدة الربانية !

وارسل لى السيد اللورد ــ بعد ذلك بزمن ــ رسالة من السيدة دى بوفلير ، جاءت ــ كما خيل إلى ــ عن طريق دالمبير ،

loolooo www.dvd4arab.com

الذى كان يعرف السيد المارشال . وكانت هذه هى الرسالة الأولى التى كتبتهـا إلى هـذه السـيدة ، منذ رحيلى عن (مونمورنسى) ، وقد لامتنى فيها ـــ اشد اللوم ـــ على اننى كتبت إلى السيد دى مونمولان ، وعلى اننى تناولت القربان ، بوجه خاص . ولم اكد افهم داعيا للومها هذا ، إذ اننى ـــ منذ رحلتى الأولى إلى جنيف ـــ كنت اعلن جهارا اننى بروتستانتى ، وقد ترددت علانية على كاتدرائية هولندا ، فلم ير احد فى هذا اى سوء . وبدا لى من المضحك ان ترغب السيدة الكونتة دى بوفلير فى ان تقحم نفسها فى توجيه ضميرى ، فى الناحية الدينية . على اننى كنت لا ارتاب فى ان نواياها ـــ لا سيما هذه التى لم استطع ان افهمها ـــ هى خير النوايا ، ومن ثم فإننى لم استأ من هذا العتاب العجيب ، بل اجبت فى غير غضب ، واوضحت لها الأسباب .

وفى تلك الأثناء ، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة كشأنها من قبل ، وكان مؤلفوها « الكرام ! » يؤنبون السلطات لأنهـا تعاملنى فى لين فوق ما ينبغى . ولقد كان هذا النباح ـــ الذى ظل قادته يعملون فى الخفاء ـــ نذير شؤم وفزع . على اننى ـــ من ناحيتى ـــ تركتهم يقولون ما شاءوا ، دون ان اتأثر . ولقد أكد لى البعض ان ثمة قرارا بلومى على كتبى ، قد صدر عن « السوربون » ، فأبيت ان اصدق ذلك(١) . إذ كيف للسوربون ان يتدخل فى هذه المسألة ؟ فهل اريد بذلك تأكيد اننى لم اكن

(١) كان « السوربون » معهدا لعلوم اللاهوت ، فى ذلك الحين .

كاثوليكيا ؟ لقد كان كل امرىء يعرف هذا بالفعل ! .. ام اريد به إثبات اننى لم اكن من اتباع « كالفن » الصالحين(١) ؟ فأى شأن للسوربون فى هذا ؟.. كان معنى هذا ان «السوربون» اخذ على عاتقه مهمة نافذة ، وأناب نفسـه عن قساوستنا . وايقنت ـــ قبل ان أرى الوثيقة ـــ انها كانت تروج باسـم «السوربون» ، للسخرية منه ، وقد ازددت إقتناعا بذلك عندما قرأتهـا .

وعندما عجزت عن ان اشكّ فى صـحة صـدورها عن «السوربون» ـــ فى النهاية ـــ لم يبق لى ما افكر فيه سوى انه كان من الواجب تحويل « السوربون » إلى مصح للأمراض العقلية !

سنة ١٧٦٣

وهناك وثيقة اخرى أثرت فى نفسى فوق تأثير هذه ، لأنهـا صدرت عن رجل كنت أقدره ـــ على الدوام ـــ وكنت اعجب بجلده وأنا أرثى لضياع بصره . واقصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التى كتبها كبير أساقفة باريس ضدى . ولقد خيل إلى ان ليس ثمة داع لأن أرد عليها . وكان بوسعى ان افعل ، دون ان انزل من قدر نفسى . فقد كانت مسألة قريبة الشبه

(١) جون كالفن مصلح دينى بسويسرى ، قام يبشر باصلاح الكنيسة منذ سنة ١٥٣٣ . ويسمى المذهب الذى قام على تعاليمه بالمذهب البريسبيترى . وهو قريب من المذهب البروتستانتى =

Looloo
www.dvd4arab.com

من مسالة ملك بولندا(١) . وما كنت يوما مولعا بالمشاحنات الوحشية ، « على طريقـة فولتير » !.. فلست أجيد سوى النزال الذى يحفظ للمرء كرامته ، ولا بد ـــ قبل ان اتنازل بالدفاع عن نفسى ـــ من ان استوثق من أن الذى يهاجمنى لن يشوه ضرباتى !

ولم يداخلنى شك فى ان هذه الرسالة الأسقفية كانت من عمل « الجيزويت » ، ومع انهم كانوا إذ ذاك منكوبين ، إلا اننى رايت فى هذا العمل مصداقا لمبدئهم القديم .. مبدأ سـحق المنكوبين » ومن ثم فقد كان بوسعى ان اتبع ـــ انا الآخر ـــ مبدئى القديم ، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب . وهذا ما اعتقد اننى وفقت فى أدائه .

ولقد وجدت إقامتى فى (موتيير) جد مستحبة ، فلم يكن يعوزنى سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش ، كى اقرر قضاء آخر ايام عمرى هناك . بيد ان الحياة كانت باهظة التكاليف ، وكانت كل مشروعاتى القديمة قـد انقلبت راسا على عقب ، بسبب نزوحى عن مكان إقامتى القديم ، والعمل على إنشـاء مقر جديد لى ، وبسبب بيع أمتعتى او تبديدها ، وبسـبب النفقات التى كنت مضطرا إلى تكبـدها منـذ رحيلى عن (مونمورنسى) . ورحت ارى راس مالى الصغير يتضاءل يوما بعد يوم ، حتى بات فى وسع عامين آخرين او ثلاثة ، أن تأتى على ما تبقى منه ، دون ان ارى موردا آخر لتعويضة ، اللهم

(١) ارجع الى صفحة ١٤٤ من الجزء الثالث .

إلا إذا شرعت فى تأليف الكتب من جديد .. وممارسة المهنـة المشئومة التى كنت قد نبذتها !

* * *

وإذ كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث ان تتطور عما قريب ، وان الراى العام لن يلبث ان يثوب من تهوسه ، وان يحمل السلطات على أن تخجل من تصرفها ، فكان همى الأوحد ، هو ان اجعل مواردى تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد ، الذى سيتيح لى وضعا ، اكون اكثر مقدرة فيه على ان أختار موردا من الموارد التى تعرض لى . وفى سبيل ذلك ، عدت إلى استئناف موسوعتى الموسيقية التى كنت ـــ بعد جهد استغرق عشر سنوات ـــ قد قطعت شوطا بعيدا فيها ، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة ، وان تنسخ نسخا نظيفا . ولقد وفرت لى كتبى ـــ التى كانت قد أرسلت إلى منذ وقت قصـير ـــ وسائل إتمام هذا المؤلف .. كما ان اوراقى ـــ التى أرسلت إلى فى الوقت ذاته ـــ مكنتنى من البدء فى مشروع مذكراتى ، التى اعتزمت أن أجعلها شاغلى الوحيد ، من ذلك الحين . وقد شرعت فى نسخ الرسائل فى مجموعة تهدى ذاكرتى إلى نظام الوقائع والتواريخ . وكنت قد اخترت تلك الرسائل التى رايت ان اعدها لهذا الغرض ، وقد نسقت فى تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا . غير اننى تبينت ـــ وانا أراجعها لأنسخها ـــ ثغرة خلالها أدهشتنى . وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر ، من اكتوبر سنة ١٧٥٦ إلى مارس التالى !

وكنت اذكر تمام التذكر اننى ضمنت مجموعتى عددا من

Looloo www.dvd4arab.com

الرسائل التى تلقيتها من ديدرو ، ودى ديلبير ، والسيدة ديبيناى ، والسيدة دى شينونسو وغيرهم ، والتى كانت تملأ هذه الثغرة ، ولم يعد لها وجود . فما الذى جرى لها ؟ . . هل عبثت يد بأوراقى أثناء بضعة الأشهر التى مكثتها فى قصر لوكسمبورج ؟ . . كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول ، إذ أننى رأيت السيد المارشال يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التى أودعت فيها هذه الأوراق . ولما كان كثير من رسائل السيدات ، وكل رسائل ديدرو ، لا تحمل تاريخا ، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة ، وكنت كمن يتلمس طريقه فى الظلام لتنسيق ترتيبها ، فقد ظننت ــ فى بادىء الأمر ــ أننى ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ .. ورحت أراجع كل الخطابات التى لم تكن تحمل تواريخ ، أو التى كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسى ، لأتبين ما إذا لم يكن بوسعى العثور على تلك التى كانت لازمة لملء الثغرة .

ولم تفلح هذه المحاولة ، فتبينت أن الفراغ كان قائما حقا ، وان الخطابات كانت قد رفعت من مكانها يقينا . فمن الذى رفعها ، ولماذا ؟ هذا ما لم أستطع إدراكه ! .. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتى الكبرى ، وتمت إلى فترة نشوتى الأولى بـ « جولى » . ومن ثم فانها لم تكن ذات أهمية لأحد . كانت تضم ــ فى الغالب ــ بعض مشاكسات من ديدرو ، وبعض سخريات من ديلبير ، وبعض تأكيدات للود من السيدة دى شينونسو ، بل ومن السيدة ديبناى التى كنت معها إذ ذاك على خير وئام . فمن الذى تهمه هذه الخطابات ؟ .. وماذا

يراد بها ؟ . . ولكننى لم أحدس الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات !

وحملنى تأكدى من هذا النقص ، على أن افحص مسوداتى لأتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر ، فوجدت عددا منها مفقودا ، ونظرا لقصور ذاكرتى ، جعلنى هذا افترض ضياع أوراق أخرى من أكداس أوراقى . وكانت المسودات التى لاحظت غيابها ، هى تلك المتعلقة بكتاب « المبادىء الخلقية الحسية »، والفقرات المستخلصة من «مغامرات اللورد ادوارد». وأعترف أن غياب هذه الأخيرة ، أوحى إلى بالشك فى السيدة دى لوكسمبورج . فلقد كان وصيفها الخاص « لاروش » ، هو الذى نقل أوراقى ، وما كنت لأتصور سواها ــ دون الناس أجمعين ــ من يهتم بمثل هذه القطعة . ولكن ، أى اهتمام كان يدفعها إلى أخذ الثانية وإلى أخذ الرسائل الغائبة ، التى ماكان بوسع أمرىء أن يفيد منها فى مضايقتى ــ مهما تكن نواياه خبيثة ــ اللهم إلا إذا زيفها ؟.. أما السيد المارشال ، الذى عهدت فيه استقامة لا تتذبذب ، وصدقا فى وده لى ، فاننى لم أملك أن أرتاب فيه لحظة واحدة . بل إننى لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيدة المارشالة !

وكان أكثر الافتراضات التى خطرت لى ، تمشيا مع المعقول ــ بعد أن أضنيت نفسى وقتا طويلا فى البحث عن مرتكب هذه السرقة ــ هو أن ألقى الوزر على دالمبير ، الذى كان قد وفق إلى اكتساب مكانة لدى السيدة دى لوكسمبورج ، كان من المحتمل أن يكون قد وفق إلى وسيلة للعبث فى أوراقى ،

Looloo www.dvd4arab.com

والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطوطات أو من الرسائل ، وسواء جريا منه وراء إثارة بعض الفتن ، أو لكى ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعا منها . وافترضت أن يكون قد أساء فهم عنوان «المبادىء الخلقية الحسية» ، فخيل إليه أنه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن « المادية » ، يستطيع أن يستغلها ضدى بالقدر الذى صوره له خيـــاله . وإذ كنت واثقا من أنه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهجر الأدب نهائيا، فإننى لم أهتم كثيرا بهذه السرقات ، التى لم تكن أول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها ، والتى احتملتها دون ما شكوى . فلقد وجدت فى كتاب دالمبير « مبادىء الموسيقى» كثيرا من الأشياء المأخوذة عما كنت قد كتبته فى هذا الفن لدائرة المعارف ، والتى كانت قد أرسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة . وإنى لأجهل ما قد يكون له من نصيب فى كتاب بعنوان « موسوعة الفنون الجميلة » ، ولكنى وجـدت فيه مقالات منقولة بالكلمـــة من مقالاتى . . قبل أن تنشر هذه فى دائرة المعارف !

وسرعان ما كففت عن التفكير فى هذه الخيانة ، وكأنما لم يرتكب ضدى قط عمل كهذا ، وشرعت أنسق المواد التى تبقت لى ، لكى أتوفر على « اعترافاتى » .

* * *

وكنت قد ظللت طويلا أعتقد أن جمـاعة القسـاوسة فى جنيف ، أو أن المدنيين وسكان المدن ـــ على الأقل ـــ لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القـانون ، فى المرسوم الذى كان قد

أصدر ضدى ، بيد أن كل شىء ظل ساكنا . . فى الظاهر على الأقل ، إذ أنه كان ثمة تذمر عام ، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده . وكان أصـدقائى ـــ أو من يسمون أنفسهم كذلك ـــ قد كتبوا لى الرسائل تلو الرسائل، يستحثوننى على أن أذهب فأضع نفسى على رأسهم، مؤكدين لى أن المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارا علنيـــا ، إذ ذاك . على أن الخوف من القلاقل والاضطرابات ، التى قـد يثيرها وجودى ، منعنى من قبول إلحاحهم . وفى وفائى للعهد الذى كنت قـد أخـذته على نفسى فى الماضى ، بألا أقحم نفسى فى أى شقاق أهلى فى بلادى ، آثرت أن يبقى انتهاك العـدالة قائما على حاله ، وأن أحرم وطنى على نفسى إلى الأبد ، على أن ألجه بوسائل عنيفة وخطرة . ومن الصـحيح أننى كنت أرتقب من أبناء المـدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التى كانت تهمهم إلى أقصى حد ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث . فإن أولئك الذين كانوا يقـودونهم ، لم يكونوا يسـعون إلى علاج الأخطـاء والمساوىء ، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم . وكانوا يسعون بالتحريض ، ولكنهم لزموا الصمت ، وأطلقـوا الزمام للشـائعات والأكاذيب التى كان المجلس يروجها ليشوه من سمعتى أمام الأهالى ، وليعـزو إساءاته إلى الحماس الدينى !

وبعد أن انتظرت ـــ دون جدوى ـــ لأكثر من عام ، على أمل أن يحتج أحد على الإجراء غير القانونى ، قر رأيى ـــ فى النهاية ـــ على قراره وإذ وجدت نفسى مهجورا من مواطنى صممت

Looloo

على أن انبذ وطنى الجاحد ، الذى لم اقم فيه قط ، والذى لم اتلق منه خيرا ولا عونا ، والذى جازانى على الشرف الذى سعيت لإضفائه عليه ، بأن وافق بالاجماع على معاملة مهينة . وإذ لم ينبس بكلمة أولئك الذين كان ينبغى عليهم أن يتكلموا ، كتبت إلى السنديك الأول (١) لذلك العام ـ وكان السيد فافر ، على ما اظن ـ رسالة نزلت فيها بشمم عن حقى فى أن اكون مواطنا، وراعيت فيها ـ إلى جانبذلك ـ الأدبوالاعتدال الذين كنت احرص عليهما فى التصرفات المتعلقة بكرامتى ، والتى كثيرا ما كانت قسوة اعدائى تدفعنى إليها فى أويقات محنتى .

وفتحت هذه الخطوة اعين المواطنين ، فاحسوا بانهم قد اذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلوا عن الدفاع عنى ، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان . وكانت لهم مظالم اخرى ضموها إلى هذه ، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة ، جد معقولة ، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها ، نتيجة للرفض الجاف المثبط الذى اخذ المجلس يقابلها بها ، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسى، ماجعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطةالتى كانت موضوعة لاستعبادهم . ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة ، لم تبت بشىء ، إلى أن ظهر فجأة « رسائل كتبت من الريف » ، وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له ، وقد افحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن . وهذا الكتاب اثر باق على ما اوتى مؤلفه من مواهب نادرة ، وهو من

---

(١) رئيس المجلس الذى كان يتولى ادارة شئون جمهورية (جنيف) .

إنتاج المدعى العام ترونشان (١) ، وقد كان رجلا ذكيا، متنورا، متبحرا فى القوانين وفى نظم الحكم الجمهورى .

سنة ١٧٦٤

وافاق المتذمرون من هزيمتهم الأولى ، فتولوا الرد ، وخرجوا من مأزقهم على خير حال . ولكن الجميع راحوا يوجهون انظارهم نحوى ، وكأننى الوحيد الذى كان يقوى على مقارعة خصم كهذا يأمل التغلب عليه . واعترف اننى كنت ارى الراى ذاته ، فلما اخذ مواطنى القدامى يستحثوننى ويبينون ان من واجبى أن اساعدهم بقلمى فى مأزق كنت انا سببه . فعكفت على دحض « رسائل من الريف » ، وقلبت العنوان إلى « رسائل من الجبل » ، وهو الذى اتخذته لردى. وقد فكرت فى هذا المشروع ونفذته فى تكتم شديد ، حتى اننى ـ فى اجتماع مع رؤساء المتذمرين فى (تانون) ، لنتشاور فى امورهم ، وليطلعونى على مشروع ردهم ـ لم اشر بكلمة إلى ردى الذى كان قد اكتمل ، خشية الا يتغلبوا على بعض العقبات فى سبيل طباعته ، لو أن أعضاء المجلس او اعدائى الشخصيين سمعوا انفه همسة عنه .ومع ذلك فاننى لماستطع أن احول دون ان يذيع امر هذا المؤلف فى فرنسا قبل نشره ، على انه رؤى تركه يظهر ، بدلا من اطلاعى بجلاء على الوسيلة

---

(١) جان روبير ترونشان ، وهو غير « تيو دور ترونشان » ، الطبيب المشهور الذى ورد ذكره فى الكراستين الثامنة والعاشرة ، وكانا ابنى عمومة .

Looloo www.dvd4arab.com

التى اكتشف بها سرى . ولسوف أبين ــ فيما بعد ــ ما علمته، وإن لم يكن بالكثير . ولن أذكر شيئا عن هواجسى وتخميناتى.

كان الزائرون يتوافدون على دارى فى (موتيير) ، بعين كثرتهم فى (ليرميتاج) و (مونمورنسى) تقريبا . ولكنهم كانوا ــ فى الغالب ــ من نوع آخر . فقد كان الساعون إلى لقائى ــ قبل ذلك الحين ــ من أولئك الذين تربطهم بى روابط المواهب، والميول ، والمبادىء . فكانت هذه مبررات لزياراتهم . وكانوا يطلعوننى على موضوعات أستطيع أن أناقشها معهم ، قبل نشرها . ولكن هذه لم تكن الحال فى (موتيير) ، لا سيما فى الجانب الفرنسى . فقد كان زائرى من الضباط أو الموظفين أو سواهم ممن لم يؤتوا أى ميل للأدب ، وممن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتى .. ومع ذلك ، فانهم كانوا ــ على قولهم ــ يقطعون ثلاثين أو أربعين أو ستين أو مائة فرسخ ليزوروننى ، وليرضوا إعجابهم برجل لامع ، شهير ، شهير جدا ، بل الرجل العظيم، الخ . ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كفوا ــ إذ ذاك ــ عن أن يقذفونى فى وجهى بأغلظ ألفاظ الملق وأوقحها ، فلم يكن يحمينى منها ــ منذ ذلك الحين ــ سوى تقدير أولئك الذين كانوا يفدون لزيارتى . ولم أكن أدرى فيم أتحدث إلى هؤلاء ، إذ كان أغلبهم لا يتفضلون بذكر أسمائهم ، ولا يطلعوننى على مراكزهم ، وكانت معرفتهم ومعرفتى لا تتسقان حول محور مشترك .. وكنت أصمت مرتقبا أن يفتحوا هم الحديث ، إذ كان عليهم أن يذكروا لى سبب زيارتهم ، لأنهم كانوا أدرى به منى . ومن السهل إدراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدى إلى حديث مشوق لى بوجه

خاص ، وإن كان من المحتمل أنه مشوق لهم ، تبعا لما جاءوا ينشدون معرفته . إذ أننى لبعدى عن أن أرتاب فى شىء ، كنت أسهب فى الحديث ــ دون تحفظ ــ فى كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه على من موضوعات . وكانوا يخرجون من هذا ــ فى العادة ــ وهم لا يقلون عنى إلماما بكل تفصيلات موقفى .

ومن أمثله هذا الصنف ، السيد دى « فيان » ، حامل سلاح الملكة ، وقائد الفرسان فى لواء الملكة ، الذى دأب على أن يقضى عدة أيام فى (موتيير) وكان يرافقنى فى نزهاتى على القدمين ، حتى (لافيرير) ، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه ، دون أن يكون ثمة ما يجمعنا ، اللهم إلا أن كلينا كان يعرف الآنسة نيل(١) ، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب . ولقد حظيت ــ قبل السيد دى فيان وبعده ــ بزيارة أخرى ، أكثر غرابة . إذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما ، وقد راح كل منهما يقود بغلا محملا بمتاعه القليل ، فهبطا فى نزل البلدة ، وبعد أن نظفا بغليهما بنفسهما ، طلبا زيارتى . وكان مظهر راكبى البغلين هذين ، يوحى بأنهما من مهربى السلع عبر الحدود ، فسرعان ما ذاع النبأ بأن المهربين يفدون لزيارتى. بيد أن الطريقة التى خاطبانى بها ، أشعرتنى بأنهما من صنف آخر . على أنهما إذا لم يكونا مهربين ، فقد كان من المحتمل أن يكونا من طلاب المغامرة ، مما جعلنى على حذر منهما فترة . ولم يطل

---

(١) الآنسة « نيل » كانت ممثلة فى « الأوبرا » الفرنسية ، ورد ذكرها فى مواقع متفرقة من الأجزاء السابقة .

Looloo
www.dvd4arab.com



وكان يرافقنى فى نزهاتى على القدمين ، حتى (لافبريير) ، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه ..

بى القلق ، فاذا أحدهما السيد « مونتوبان » ، الذى كان يعرف بالكونت ديلاتور ـ دو ـ بان ، والذى كان من سادة (دوفينيه) . أما الآخر ، فكان السيد « داستييه » ، وهو جندى قديم من (كاربنترا) ، دس وسام « صليب القديس لوى » فى جيبه ، عزوفا عن المظهر . ولقد كان هذان السيدان اللطيفان ، رقيقين واسعى العقل ، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا . وقد جعلتنى طريقتهما فى الأسفار ـ وكانت تروق لى كثيرا ، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين ـ اشعر بميل نحوهما ، ما كانت الخلطة لتزيده إلا توثقا . ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد ، بل إنه لا يزال قائما ، وقد زارانى مرارا ـ منذ ذلك الحين ـ ولكنهما لم يعودا يأتيان على الأقدام ، فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب.

على اننى كلما ازددت تلاقيا بهما ، قل ما القاه من تجاوب بين ميولهما وميولى ، وقل شعورى بأن مبادئهما هى مبادئى وبأنهما على دراية بمؤلفاتى وبأن كلا منا يكن للآخر ميلا حقيقيا! فماذا كانا يبغيان منى ، إذن ؟ ولماذا جاءا لزيارتى بهذا الشكل والمظهر ؟ ولماذا بقيا عدة أيام ؟ ولماذا تكررت زياراتهما عدة مرات ؟ ولماذا كانا شديدى الرغبة فى أن استضيفهما ؟ .. لم يخطر ببالى إذ ذاك ، أن أوجه هذه الأسئلة إلى نفسى ، ولكنى وجهتها بضع مرات ، منذ ذاك الحين !

وإزاء تقربهما ومجاملاتهما الودية ، مال قلبى ـ دون روية ـ إليهما ، لا سيما إلى السيد داستييه ، الذى سرنى منه أن كانت أخلاقه صريحة ، وواضحة .. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل

www.dvd4arab.com

معه ، وعنما اردت ان انشر كتابى « رسائل من الجبل » ، فكرت فى ان ارسل المخطوط باسمه ، لأموه على أولئك الذين كانوا يتربصون للكتاب وهو فى طريقه إلى هولندا . وكان قد حدثنى كثيرا ــ وربما عن قصد ــ عن حرية النشر فى (افنيون)، وعرض على خدماته إذا شئت أن اطبع شيئا هناك . فتقبلت هذا العرض ، وارسلت إليه الأوراق الأولى تباعا بالبريد . وبعد ان استبقاها فترة ليست بالقصيرة ، ردها ثانية ، وانبانى ــ فى الوقت ذاته ــ بأن أحدا من الناشرين لم يجد من نفسه جراة على أن يتكفل بطبعه .. واضطررت إلى ان أعود إلى « ربى » ، متخذا الحذر ، بحيث أننى كنت أرسل أوراقى واحدة بعد اخرى ، على الا ارسل واحدة ، حتى اتسلم ما ينبىء بوصول سابقتها .

وقبل ان يطبع الكتاب ، علمت انه روجع فى دوائر القساوسة ، وحدثنى « ديشيرنى » ــ من نيوشاتيل ــ عن كتاب اسمه « رجل من الجبل » ، قال له دولباخ إننى كاتبه . فاكدت له اننى لم اكتب قط كتابا بهذا العنوان ، وكنت فى ذلك صادقا . لذلك فانه اهتاج عندما ظهرت الرسائل ، واتهمنى بالغش ، بالرغم من أننى انباته بمجرد الحقيقة . وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفا . ولما كنت موقنا من امانة « ربى » فقد اضطررت إلى ان انقل شكوكى إلى اتجاه آخر ، وكان اقرب التخمين إلى المنطق ، بل كان الحدس الذى فضلته على سواه ، هو أن رسائلى كانت تفتح أثناء ذهابها بالبريد !

***

ومن تعرفت بهم ــ حوالى هذه الفترة بالذات ــ ولكن تعارفنا اقتصر فى البداية على تبادل الرسائل ، السيد « لالياود » ، من أبناء (نيم) . فقد كتب إلى من (باريس) يسألنى أن أرسل إليه صورة جانبية لوجهى لأنه ــ كما قال ــ كان بحاجة إليها فى نحت تمثال نصفى من المرمر لى ، كان قد عهد إلى « لوموان » بعمله ، رغبة منه فى أن يقيمه فى مكتبته الخاصة . وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتى ، فالحق انها افلحت تماما . فلقد خلت ان رجلا يرغب فى إقامة تمثال لى فى مكتبته ، لا بد أن يكون ملىء الراس بمؤلفاتى ، وبالتالى بمبادئى ، وانه لا بد يحبنى ، لأن روحه كانت على شاكلة روحى . وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهوينى . ولقد رأيت السيد لالياود بعد ذلك ، فوجدته تواقا إلى أن يؤدى إلى بعض الخدمات الطفيفة ، لكى يوغل فى التدخل فى شئونى البسيطة !.. وفيما عدا ذلك ، اظن كتابا واحدا من مؤلفاتى كان بين الكتب القليلة التى قراها فى حياته . وانى لأجهل ، إذا كانت لديه مكتبة ، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرد أثاث يحلو له ان يستخدمه !.. اما التمثال النصفى ، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين ، صنعه « لموان » ، وحفر عليه قسمات بشعة ، حملت برغم ذلك اسمى ، وكأنما فيها شىء من الشبه بى !

وكان الفرنسى الوحيد ، الذى بدا انه جاء يزورنى عن ميل إلى مشاعرى وكتاباتى ، ضابطا شابا من كتيبة (ليموزان) يدعى « سيجوييه‌دى سان ــ بريسون » ، كان ــ وما يزال ــ

Loloo
www.dvd4arab.com

من المتوقع أن يتألق نجمه فى (باريس) والعالم ، بفضل ما أوتى من مواهب مستحبة ، وما كان بيديه من جمال الفكر .

وكان قد وفد على (مونمورنسى) لزيارتى ، فى الشتاء الذى سبق كارثتى . ثم كتب لى بعد ذلك ، فى (موتيير) .. وسواء كان راغبا فى تملقى ، أو أن شخصية « اميل » كانت قد استهوته حقا ، فانه انبانى باعتزامه ترك الخدمة ، ليعيش حرا .. وانه لذلك اخذ يتعلم حرفة التجارة . ولقد كان له أخ يكبره ـــ « كابتن » فى الكتيبة ذاتها ـــ كان اثيرا بحب أمه ، التى كانت متطرفة فى التقوى ، وكانت ـــ فى خضوعها لسلطان راهب دجال ـــ تسىء معاملة ابنها الأصغر ، وتتهمه بالمروق على الدين ، بل وبالعيب الذى لا يغتفر .. وهو توثق العلاقة بينه وبينى . وكانت هذه هى المظالم التى أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه ، وأن ينتهج الرأى الذى ذكرته من قبل .. أن يكون « اميل » الصغير ، فى كل شىء !

وجزعت لهذا الطيش ، فبادرت إلى الكتابة إليه ، محاولا أن أثنيه عن عزمه ، مزجيا إليه أقوى المواعظ تأثيرا . ولقد أخذ بنصحى ، وعاد إلى واجبه كابن ، كما سحب من يدى قائده الاستقالة التى كان قدمها ، والتى كانت حكمة القائد قد ابت عليه أن يقبلها ، ليوسع له الوقت كى يعيد التفكير فى الأمر . وما أن شفى « سان بريسون » من هذه الحماقات ، حتى اقدم على حماقة جديدة ، لم تكن مثيرة للسخط كتلك ، ولكنها لم تصادف هوى من نفسى .. إذ جعل من نفسه مؤلفا .

فاصدر كتيبين أو ثلاثة ، تباعا ، كشف فيها عن قدر من الاستعداد .. ولكنى لا احمل وزر إطرائها بما كان كفيلا بأن يشجعه على المضى فى هذه الحرفة !

ولقد جاء لزيارتى ـــ بعد ذلك بزمن ـــ وقمنا بنزهة معا إلى جزيرة (سان بيير) . ووجدته خلال هذه الرحلة ، على غير ما رأيته فى (مونمورنسى) . كان ثمة تغير قد الم به ، لم يصدمنى فى البداية ، ولكنه كثيرا ما تمثل لخاطرى ، منذ ذلك الحين . ولقد زارنى مرة أخرى ، فى فندق (سان سيمون) ، اثناء مرورى بباريس ، فى طريقى إلى إنجلترا . وإذ ذاك سمعت ما لم يقله لى هو ، من أنه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية ، وأنه كثير التردد على السيدة دى لوكسمبورج . ولم يبد ـــ أثناء وجودى فى قلعة (تير) ـــ ما ينم عن وجوده على قيد الحياة ، ولا ابلغنى شيئا على الآنسة « سيجوبيه » ، قريبته التى كانت جارة لى . وقصارى القول ، أن شغف السيد دى سان ـــ بريسون انتهى فجأة ، كما انتهت علاقة السيد دى فيبان ، ولكن .. إذا لم يكن الأخير مدينا لى بشىء ، فان الاول كان مدينا لى ببعض الشىء ، ما لم تكن النزوات الطائشة التى صددته عن ارتكابها ، مجرد حيلة من جانبه ، وهو أمر جد محتمل !

* * *

وتردد على كذلك ، مثل هذا العدد ـــ أو اكثر ـــ من الزائرين الوافدين من (جنيف) . فاختارنى « ديلوك » وابنه ـــ على التعاقب ـــ ممرضا أسهر عليهما . فقد مرض الأب أثناء الطريق ، وكان ابنه قد مرض ـــ هو الآخر ـــ منذ غادر جنيف ،

Loolop www.dvd4arab.com

نحلا للاثنين المقام فى دارى . وتوافد من جنيف ومن سويسرا الزائرون ، من قساوسة، إلى اقارب ، إلى مرائين ، إلى نكرات .. لا لإبداء إعجابهم بى ، أو للسخرية منى ــ كما كان يفعل القادمون من فرنسا ــ وإنما ليؤنبونى ، ويعظونى !.. وكان الوحيد الذى يروق لى منهم ، هو « مولتو » الذى اقبل لقضاء ثلاثة او اربعة ايام معى ، والذى كنت ارجو ان استضيفه فترة أطول . على أن اكثرهم مثابرة ، واشدهم صلابة ، كان رجلا يدعى السيد دانفيرنوا ، استطاع ان يقهرنى بمضايقاته . وكان تاجرا من (جنيف) ، من المهاجرين الفرنسيين ، كما كان قريبا للمدعى العام فى نيوشاتيل . وكان هذا السيد دانفيرنوا الجنيفى ، يمر بموتيير مرتين فى العام ، وكله شوق إلى ان يزورنى ، ويمكث فى دارى من الصباح إلى المساء ، لعدة ايام بعد ذلك ، فيفرض صحبته على فى نزهاتى ، ويجلب إلى الف نوع من الهدايا الصغيرة ، ويقحم نفسه على اسرارى بالرغم منى ، ويتدخل فى جميع شئونى .. دون أن يجمع احدنا بالآخر اى تشابه فى الآراء، أو الميول، أو الأحاسيس، أو المدارك . وانى لأشك فى انه قرا كتابا واحدا فى حياته ، من اوله إلى آخره ، وفى انه كان يعرف ما تناولته كتبى بالذات . وعندما شرعت فى هواية النباتات، اخذ يرافقنى فى جولاتى لتفقد أنواع النبات، دون ما ميل إلى هذه الهواية ، ودون أن يملك ما يقوله لى ، كما اننى لم اكن أملك ما اقوله له . بل لقد اوتى الجلد على ان يقضى معى ثلاثة ايام كاملة ، وحيدين لا ثالث لنا ، فى مكان عام فى (جوموان) ، كنت ارجو ان اتخلص منه عنده ، بفضل العمل على إملاله وإشعاره بمدى ما كان يسببه لى من ملل . بيد اننى

لم اقو قط على ان اثبط دابه الذى لا يصدقه عقل ، ولا على اكتشاف الباعث إليه !

وبين كل هذه العلاقات ، التى لم اصلها ولم ارعها إلا غصبا، ارى من الواجب الا اغفل العلاقة الوحيدة التى كانت تروق لى ، والتى اثارت اهتماما حقيقيا فى فؤادى .. تلك هى صلتى بشاب مجرى ، جاء ليقيم فى نيوشاتيل ، ثم فى (موتيير) ــ بعد ذلك ــ عقب استقرارى هناك ببضعة اشهر ، وقد عرف فى المنطقة باسم « البارون دى سوتيرن » ، وهو الاسم الذى ورد فى التوصيات التى حملها من (زيورخ) . وكان شابا طويلا عريضا ، متناسق القوام، مليح القسمات ، رقيق الطباع دمثها. ولقد أنبأ الجميع ــ وأوقع فى روعى انا الآخر ــ بانه لم يأت إلى نيوشاتيل إلا ليرانى، وليروض شبابه على الفضيلة بالاتصال بى . وكانت اساريره ، ومسلكه ، واخلاقه ، تبدو لى مصداقة لكلماته . فكنت خليقا بأن الوم نفسى على تخليها عن واجب من اهم الواجبات ، لو اننى ابيت أن اقابل شابا لم ار فيه إلا كل مستحب ، وكان الباعث الذى حفزه على السعى للتعرف إلى، جديرا بكل اعتبار ، ولا يحذق قلبى الاستسلام الناقص ، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتى الكاملة ، وثقتى الشاملة ، واصبحنا لا نفترق .. فكان يرافقنى فى كل نزهاتى على الأقدام ، ويستمتع بها كل الاستمتاع ، ولقد صحبته إلى السيد اللورد المارشال ، الذى ابدى له الف مجاملة !

وإذ لم يكن قد اجاد بعد الحديث بالفرنسية ، فقد كان يخاطبنى ويكتب إلى باللاتينية ، وكنت اجيبه بالفرنسية بيد

looloo
www.dvd4arab.com

ان هــذا الخلط بين اللغتين ، لم يقلل من تدفق محادثاتنا ، ولا من حيويتها ، بأى حال !.. ولقــد حــدثنى عن اسرته ، وشئونه ، ومغامراته ، والبلاط الملكى فى (فيينا) ، الذى بدا على إلمام تام بدقائق الحياة فيه . وموجز القول اننى لم اجد فيه ـ خلال السنتين اللتين قضيناهما فى اشد الود ـ سوى لطف الشخصية فى كل الأحوال ، وسوى أخـلاق لم تكن كريمة فحسب ، وإنما كانت مهذبة .. وسوى نظافة تامة فى شخصه، وعفة مفرطة فى قوله .. كانت له ـ بإيجاز ـ كل صفات الرجل الطيب المنبت ، مما جعلنى ـ بغض النظر عن إعزازى إياه ـ أجله اسمى إجلال !

* * *

وفى عنفوان علاقاتى به ، كتب لى دانفيرنوا الجنيفى بأن أحذر شابا مجريا وفد للاقامة على مقربة منى ، فقد قيـل له ـ فى تاكيد ـ انه جاسوس من الوزير الفرنسى ، ليكون عينا على ! .. ولقد دبرت هذه النصيحة لكى تسبب لى مزيدا من القلق ، ففى تلك البلاد ، كان كل الناس ينصحوننى بأن اكون على حذر ، لأننى مراقب . وكان الهدف من ذلك استدراجى إلى الأراضى الفرنسية ، ثم الانقضاض على !

ولكى أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائيا ، اقترحت على سوتيرن أن يصحبنى إلى نزهة على الأقدام ، إلى (بونتارلييه) ـ دون أن أنبئه بشىء ـ فقبل . وعندما وصلنا إلى (بونتارلييه)، اعطيته خطاب دانفيرنوا ليقراه ، ثم عانقته فى حرارة ، وقلت : « ليس سوتيرن بحاجة إلى ان ابرهن له على ثقتى ، ولـكن

الجمهور بحاجة إلى دليل يبين من هو جدير بها ! » .. وكان هذا العناق عذبا جدا .. كان من تلك المتع الروحيـة التى لا يعرف الظالمون مذاقها ، والتى لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين !

ولن اصـدق قط أن « سوتيرن » كان جاسوسا ، أو انه خاننى ، بيد انه غرر بى . فعندما فتحت له قلبى فى غير تحفظ، إذا به يؤتى الجلد على أن يغلق قلبه ، ويخدعنى باكاذيبه . فقد ابتكر لى قصة لا ادرى مأتاها ، جعلنى احـدس أن وجوده فى بلاده كان امرا ضروريا ، فحضضته على الرحيل إليهـا دون إرجاء ، وقد فعل ، وعندما خيل إلى انه قد وصل إلى المجر ، سمعت انه كان فى (ستراسبورج) . ولم تكن هذه اول مرة يوجد فيها هناك . فلقد أوقع الفرقة فى اسرة بالمدينة ، فكتب لى الزوج إذ عرف أننى اعتدت ان اقابله . ولم ادخر وسعا فى رد الزوجة إلى طريق الفضيلة ، ورد « سوتيرن » إلى نطـاق الواجب . وما أن ظننت انهما قد افترقا تماما ، حتى عادا إلى اتصالهما، وأوتى الزوج من اللين واللطف ما جعله يأوى الشاب فى داره . ولم يبقَ لى بعد ذلك مجال لقول .

على أننى تبينت أن البارون المزعوم ، قد تقرب إلى بطائفة من الأكاذيب ولم يكن اسمه « سوتيرن » ـ على الإطلاق ـ وإنما « سوتير شايم » . اما لقب « بارون » ـ الذى اطلق عليه فى سويسرا ـ فلست املك ان الومه عليه ، لانه لم يستحله لنفسه قط !.. على اننى لا ارتياب فى أنه كان سيدا مهذبا راقيا حقا ، وقد اعتاد اللورد المارشال ـ الذى كان خبيرا بالرجال، والذى عرف بلاده من قبل ـ أن ينظر إليه وأن يعامله كسيد !

www.dvd4arab.com

وما أن رحل « سوتيرن » ، حتى اعلنت خادم الفندق الذى اعتاد تناول الوجبات فيه ــ فى موتيير ــ انها حامل عن طريقه. وكانت عاهرة قذرة ، فى حين ان « سوتيرن » كان محترما لدى الجميع ، وكان معروفا فى كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين ، وبانه كان جد فخور بنظافته وعفته . ومن ثم أذهلت هــذه الوقاحة جميع الناس . وهاج ســخط ابدع حسان البلد ، اللائى كن يؤثرنه بمفاتنهن دون جــدوى . كذلك ثرت انا استنكارا ، ورحت ابذل كل جهد فى سبيل الزج بهذه الفاجرة فى السجن ، عارضا ان اتكفل بجميع النفقات ، وان اكون ضامنا لسوتيرشايم . وكتبت إليه وانا اشد ما اكون اقتناعا ، لا بأن هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب ، وإنما بانه حمل مزعوم ، وان كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها اعداؤه واعدائى . ورغبت إليه فى ان يعود إلى البلد ، ليخزى هذه المجرمة ، وأولئك الذين كانوا يحرضونها . وكم بهت لميوعة رده . فقد كتب إلى راعى الابرشية التى كانت الفاجرة تتبعها ، وحاول ان يخمد المسألة . ومن ثم فقد كففت عن التدخل فى الأمر ، وانا فى اشد الدهشة من ان يستطيع رجل انحط إلى هذا الدرك ، ان يسيطر على نفســه بالشــكل الذى مكنه من ان يخدعنى بتحفظه طيلة الفترة التى كنا فيها على اوثق ائتلاف !

ومن (ستراسبورج) انتقل « سوترشايم » إلى (باريس) سعيا وراء الحظ ، فلم يفز إلا بالشقاء . ولقد كتب إلى معترفا بذنوبه ، فهفت عواطفى لذكرى صداقتنا القديمة ، وارسلت إليه بعض المال. وعندما مررت بباريس ، فى العام التالى، رايته

ــ مرة اخرى ــ فى عين الحال تقريبا ، ولكنه كان قد اصبح صديقا حميما للسيد لالياود . ولم يقدر لى إطلاقا ان أعرف كيف تعرف إليه ، وما إذا كان هذا التعارف حديث عهــد أو قديما . وما لبث « سوترشايم » أن عاد إلى (ستراسبورج)، بعد عامين ، وكتب إلى من هذا المكان . . وفيه مات !

هذه ــ بإيجاز ــ قصة علاقتى به ، ومغامراته . ولكنى ــ فى الوقت الذى انعى فيه حظ هذا التعس ــ سأظل اؤمن بانه كان طيب المنبت ، وان كل ما تبدى فى سلوكه من اضطراب ، لم يكن سوى نتيجة المواقف التى تردى فيها !

* * *

وهــكذا كانت المكاســب التى فزت بها من (موتيير) فى مجال العلاقات والصداقات . وما اكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات ، لأعوض الخسائر القاسية التى منيت بها فى تلك الفترة ذاتها . . فلقد منيت اولا بفقد السيد دى لوكسمبورج ، الذى تعذب طويلا على ايدى الأطباء ، ثم راح ــ فى النهاية ــ ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على انه مرض يسهل عليهم إبراؤه ، دون أن يعترفوا بحقيقته !.. ولو اننا اخذنا بالرواية التى كتبها لى « لاروش » ــ موضع ثقــة السيدة دى لوكسمبورج ــ بهذا الصدد ، لوجدنا فى قصته مثالا قاسيا واليم الذكرى ، لمدى مصائب العظمة !

ولقد كان لفقد هذا السيد العظيم الطيب ، وقع شديد على نفسى ، إذ انه كان الصديق الوحيد الذى بقى لى فى فرنسا . .

www.dvd4arab.com

ولقد كانت رقة شخصيته بالغة ، حتى أنها أنستنى مكانته ومرتبته ، فارتبطت به وكأننى ند له . ولم تنته وشائجنا برحيلى عن البلاد ، بل إنه واصل الكتابة إلى ، كما كان شأنه من قبل. ومع ذلك ، فاننى خلت ان غيابى أو نحس طالعى قد اخبى عواطفه نحوى . فمن العسير على عضو فى حاشية الملك ، ان يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك ان السلطات غاضبة عليه . كذلك انتهى بى التفكير إلى ان التأثير الكبير الذى كان للسيدة دى لوكسمبورج عليه ، لم يكن مواتيا لى فى شىء ، وأنها قد انتهزت فرصة غيابى لكى تسىء إلى فى نظره . بل إنها ـ بالرغم من مظاهر الود الحارة ، التى اخذت فى التضاؤل ـ لم تعد تجشم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عنى . ولقد كتبت لى اربع مرات أو خمسا ، على فترات متباعدة ـ وأنا فى سويسرا ـ ثم كفت عن الكتابة نهائيا . وكان لابد لى من كل التكهنات ، وكل الثقة ، وكل الغباء الأعمى ـ الذى كنت اتخبط فيه مرة أخرى ـ حتى لا أبصر البرود الذى شاب عواطفها إزائى !

ولقد كتب لى الناشر « جاى » ـ شريك دوشين ، الذى أصبح كثير التردد على قصر لوكسمبورج بعد رحيلى ـ ينبئنى بأن اسمى ورد فى وصية السيد المارشال . ولم يكن فى هذا ما يدعو إلى العجب ، أو ما يجل على التصور ، ومن ثم فاننى لم أرتب فيه . وقد حملنى هذا على ان اتدبر ـ بينى وبين نفسى ـ ما ينبغى ان يكون عليه موقفى من الوصية . وبعد روية وتفكير ، عزمت على قبولها ، مهما تكن ، وأن اعبر بهذا

عن تكريمى لرجل امين ، حمل لى ودا صادقا ، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر ابنائها قط . على أننى اعفيت من هذا الواجب ، إذ أننى لم أسمع إطلاقا عن الوصية مرة اخرى ، سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة . ولقد كان من الشاق على نفسى ـ فى الحقيقة ـ أن اهدر مبدأ من مبادئى الخلقية الكبرى ، إذ أفيد من موت امرىء كان جد عزيز لدى. ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا « موسار » ، أن عرض « لينييب » على أن نستغل امتنانه لودنا ، وعرفانه لعنايتنا به، فنقترح عليه ان يترك لنا فى وصيته شيئا . فما كان منى إلا ان قلت له : « آه ، يا عزيزى لينييب ! . . ما ينبغى أن ندنس ـ بافكار عن المصلحة الذاتية ـ الواجبات المحزنة ، ولكنها مقدسة ، التى يجب علينا ان نؤديها لصديقنا المحتضر ! » .

وانى لآمل الا اذكر قط فى وصية اى امرىء ، لا سيما إذا كان صديقا . ولقد تحدث إلى سيدى المارشال ـ حوالى هذه الفترة ـ عن وصيته ، وما كان يعتزم ان يفعله من اجلى، فأبديت فى هذه المناسبة الرد الذى ذكرته فى الجزء الأول من اعترافاتى(١) .

* * *

وكانت الخسارة الثانية التى حاقت بى ، اكثر إيلاما واعز من أن تعوض . . تلك هى فقدان خير النساء والأمهات ، التى كانت السنون قد اثقلت كاهلها ، ثم اعياها حمل العلل والمحن،

---

(١) صفحة ٩٤ ـ الكراسة الثانية ـ الجزء الأول من الترجمة .

Looloo www.dvd4arab.com

فهجرت هذه الحياة ـ وادى الدموع ـ لتنتقل إلى ملاذ الطيبين والصالحين ، حيث تكون ذكرى الخير الذى أسديناه فى هذه الدنيا ، هو خير جزاء نكافأ به عنه . فاذهبى ايتها الروح الوادعة المحسنة ، إلى جوار فينولون ، وبرنيكس ، وكاتينا ، وكل أولئك الذين حذوا حذوهم، ففتحوا قلوبهم للخير والإحسان الحقيقيين ، برغم تواضع ظروفهم !.. اذهبى فتذوقى ثمرة إحسانك ، ومهدى لتلميذك المكان الذى يأمل ان يشغله يوما ، إلى جوارك ! .. وما أسعدك وسط كل مصائبك ، فان السماء ـ حين وضعت لها نهاية ـ قد جنبتك قسوة مرأى مصائبى!.. ذلك لأننى لم اكتب إليها إطلاقا ، عقب وصولى إلى سويسرا ، خشية ان ادخل الأسى على فؤادها بذكر مصائبى الأولى . بيد أننى كتبت إلى السيد دى كونزييه ، أنشد انباءها . ومنه علمت أنها قد كفت عن أن تواسى آلام الغير ، وأن آلامها هى قد انقضت ! .. ولسوف اكف انا الآخر عن التألم ، عما قريب . ولو لم اكن أؤمن بأننى سأراها ثانية ، فى العالم الآخر ، لأبى خيالى الواهن على نفسه ان تفكر فى الهناء الكامل الذى اتطلع إليه هناك !

اما المصاب الثالث والأخير ـ إذ لم يعد لى بعده أصدقاء أمنى فيهم ـ فهو فقدان سيدى اللورد المارشال . وما فقدته بالموت ، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين ، هجر نيوشاتيل ، فلم يقدر لى ان اراه بعد ذلك . وهو ما يزال على قيد الحياة ، وآمل ان يعيش بعدى .. إنه ما يزال على قيد الحياة ، ومن ثم فان الروابط التى تربطنى بالأرض ، لم تتقطع

عن آخرها ، بفضله .. فما يزال باقيا على الأرض رجل جدير بصداقتى .. الصداقة التى تتمثل قيمتها الحقيقية فى الود الذى يحس به المرء ، اكثر منها فى الود الذى يوحيه للغير . غير أننى فقدت البهجة التى كانت صداقتى تملأ بها نفسى ، ولم اعد اليوم أملك اكثر من ان أعده بين أولئك الذين ما أزال على حبهم، وإن كانوا لم يعودوا على اتصال بى . فلقد ذهب إلى إنجلترا ليلتقى العفو من الملك ، وليسترد ثروته التى كانت قد صودرت . ولم نفترق دون أن ندبر للقاء جديد ، بدا أن توقعه كان يوحى إليه بقدر ما كان يوحى إلى من سرور .

وكان قد اعتزم الإقامة فى قصر (كييث هول) ـ على مقربة من (ابردين) ـ فتم الاتفاق على أن أزوره هناك . ولكن هذا الاحتمال كان أكثر بهجة من أن اطمع فى تحققه يوما . ولم يطل مكث السيد المارشال فى سكتلندا ، فان الإلحاح الرقيق الذى لاحقه به ملك بروسيا ، لم يلبث ان رده إلى برلين . وسيتبدى ـ فيما يلى ـ كيف حيل بينى وبين ان أنضم إليه .

فعندما رأى ـ قبيل رحيله ـ أن العاصفة كانت توشك ان تهب على مرة أخرى ، ارسل إلى ـ من تلقاء نفسه ـ وثائق إثبات تجنسى بالجنسية البروسية . وقد بدا هذا احتياطا جد مأمون ، حتى يصبح من المستحيل طردى من البلاد . ولقد حذا اتحاد مدينة (كوفيه) ـ فى فال دى ترافير ـ حذو الحاكم ، وكفل لى حقوق المواطن ، دون ما مقابل ، كما حدث إزاء الوثائق الأولى . وإذ أصبحت مواطنا كاملا ـ من جميع الاعتبارات ـ غدوت فى حمى من أى إقصاء قانونى عن البلاد.

www.dvd4arab.com

ولو صدر هذا الإقصاء عن العاهل ذاته . ولكن أعدائى لم يتبعوا يوما الوسائل المشروعة فى اضطهاد رجل كان دائما يفوق سواه احتراما للقوانين !

ولست أرى من الواجب أن أحصى بين الخسائر التى منيت بها ــ فى تلك الفترة بالذات ــ وفاة الراهب «دى مابلى» . فان إقامتى فى دار أخيه ، مكنتنى من أن أكون على تعارف بسيط معه ، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة . ولدى من الأسباب ما يحملنى على أن أعتقد أن مشاعره نحوى قد تبدلت مذ ظفرت بصيت ذائع ، يفوق صيته . على أننى لم أفطن إلى أولى بوادر سوء نيته ، إلا بعد نشر « رسائل من الجبل » . فلقد روج فى جنيف خطابا إلى السيدة «سالادان» ، عزى إليه أنه كاتبه ، وقد وصف فيه مؤلفى بأنه ضجيج مضلل، صادر عن تعصب شعبى جامح . ولم يمكننى الاحترام الذى كنت أكنه للراهب « دى مابلى » ، وما كان لدى من رأى فى تنوره وسعة ذهنه ، من أن أصدق لحظة أنه كاتب ذلك الخطاب المتحامل .

ورأيت أن أتصرف وفق ما أملته على صراحتى ، فأرسلت إليه نسخة من الخطاب ، وأنبأته بأنه كان معزوا إليه . ولكنه لم يجب . وقد أذهلنى هذا الصمت منه ، ولكن فى الوسع تصور دهشتى عندما أنبأتنى السيدة دى شينونسو بأنه هو الذى كتب الخطاب حقا ، وأن رسالتى قد أحرجته أشد الإحراج . . ذلك لأنه إذا كان على صواب ، فكيف كان يستطيع أن يبرر خطوة رنانة، علنية، صدرت عن طيب خاطر وطواعية،

دون ما غضب أو إلزام ، ودون ما ضرورة ، ودون أن يكون لها أية غاية ، سوى الإساءة إلى رجل فى أشد محنة . . رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة ، ولم يقصر يوما فى تقديره؟

ولقد ظهرت ــ بعد ذلك بقليل ــ «محاورات فوسيون»(١)، التى لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتى ، أعدت فى جراءة ، ودون استحياء . وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب ، بأن المؤلف كان قد بت فى أمرى ، وأننى لم يعد لى من ألد منه عداء ، منذ ذلك الحين . وأعتقد أنه ما كان ليملك أن يغفر لى يوما أن كتبت « العقد الاجتماعى » ــ الذى كان فوق طاقة مواهبه ــ ولا « السلام الدائم » . . وأنه لم يكن يرجو ــ على ما بدا لى ــ سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراهب «سان بيير» ، لأنه ظن أننى لن أوفق فيها(٢) .

* * *

كلما أوغلت فى قصتى ، قلت قدرتى على تنسيقها وترتيب سياقها ، فان الاضطراب الذى ساد بقية حياتى ، لم يدع

---

(١) كان « فوسيون » قائدا وخطيبا أثينيا فى القرن الرابع قبل الميلاد . وكان داعية للسلام ، بقدر ما كان جنديا باسلا . وقد عرف بانكار الذات ولباقة الحوار ، والقدرة على الافحام .

(٢) كان الراهب « دى ما بلى » قد عرض على « روسو » مراجعة مؤلفات الأب دى سان بيير ، واختيار أصلحها للنشر . ولكن « روسو » عمد ــ الى جانب الاختيار ــ الى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بصدد كتابات الأب دى سان بيير ، ضمنها كتابيه : « العقد الاجتماعى » و« السلام الدائم » .

Looloo

للأحداث وقتا لتنظم ذاتها فى رأسى . إذ أنها كانت من الكثرة ، ومن الامتزاج ، ومن الازعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب . ولقد كان الطابع القوى الوحيد الذى خلفته هذه الأحداث فى ذهنى ، هو ذلك الغموض الرهيب الذى أحاط بسببها ، والحال الداعية للرثاء ، التى هوت بى إليها !.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وفقا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتى . واذكر اننى ــ فى الفترة التى اتحدث عنها ، وأثناء استغراقى فى « الاعترافات » ــ كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها إلى كل امرىء ، دون ان اتصور مرة واحدة ان لأحد ما مصلحة ، أو رغبة ، او قدرة على أن يلقى العراقيل فى طريق هذا المشروع .. وحتى لو أن هذا خطر لى لما كان بوسعى ان ابدى مزيدا من التكتم ، إذ أن طبيعتى تجعل من المستحيل تماما على أن أخفى شيئا من افكارى ومشاعرى . ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع ــ بقدر ما بوسعى أن أحكم ــ هو السبب الحقيقى للعاصفة التى أثيرت لإقصائى عن سويسرا ، وللإلقاء بى بين الأيدى التى كانت خليقة بأن تمنعنى من تنفيذه !

وكان لدى مشروع آخر ، لم يكن يحظى من أولئك الذين كانوا يخشون المشروع الأول ، بمزيد من الرضى .. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتى . فقد تراءى لى أن مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت إلى حقا من تلك الكتب التى كانت تحمل اسمى ، ولجعل الجمهور فى وضع يمكنهم من أن يميزوها ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التى كانت تحمل أسماء مستعارة ، وكان أعدائى يعزونها إلى ، لكى يشوهوا

سمعتى ويحطوا من قدرى . وفضلا عن ذلك ، فان هذه الطبعة كانت كفيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للعيش . بل إنها ــ فى الواقع ــ كانت الطريقة الوحيدة ، إذ اننى كنت قد هجرت تأليف الكتب ، وما كان فى الوسع نشر مذكراتى أثناء حياتى ، ولم اكن اكسب « سو » واحدا بأية طريقة أخرى ، فى حين اننى كنت أنفق باستمرار .. ومن ثم فقد ايقنت من انتهاء مواردى بمجرد استنفاد إيراد مؤلفاتى الأخيرة . ولقد حملنى هذا السبب على أن اتعجل ظهور كتابى: « الموسوعة الموسيقية » ، وإن لم يكن قد اكتمل . وقد در على مائة « لوى » نقدا ، ومائة « ايكو » سنويا ما حييت . ومع ذلك ، فقد ظل من الواجب توقع نفاد المائة « لوى » سريعا ، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويا .. كما أن المائة « ايكو » كانت بمثابة لا شىء ، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله ــ دون انقطاع ــ كالعصافير !

وعرضت شركة من تجار نيوشاتيل ، أن تتعهد مشروع مجموعة المؤلفات . واستطاع صاحب مطبعة ــ أو تاجر كتب ــ من (ليون) ، يدعى « ريجيا » أن يندس بينهم ، بطريقة لا أدريها ، ليتولى توجيههم . وعقدت اتفاقية ، وفقا لشروط معقولة ومرضية ، لتحقيق بغيتى خير تحقيق . وكانت مؤلفاتى المطبوعة ، وتلك التى ظلت بخط اليد ، تكفى لأن تملأ ستة مجلدات من حجم « ربع القطع » أو « الكوارتو » . وقد تعهدت ــ فوق ذلك ــ بأن أشرف على الطبعة ، فى مقابل أن يؤدوا إلى معاشا لدى حياتى ــ قدره ألف وستمائة ليرة فرنسية ــ ومبلغا يدفع نقدا ، لمرة واحدة ، قدره ألف « ايكو » .

Laloo www.dvd4arab.com

سـنة ١٧٦٥

كانت الاتفاقية قد عقدت ، ولكنها لم تكن قد وقعت ، عندما ظهر كتاب « رسائل كتبت من الجبل » ، فاذا السخط الفظيع ــ الذى انصب على هذا الكتاب الجهنمى وعلى مؤلفه المقيت ــ يفزع الشركة ، ومن ثم انفض المشروع . وبوسعى ان اشبه اثر هذا المؤلف الأخير ، باثر « رسالة عن الموسيقى الفرنسية » ، لولا ان هذه الرسالة وإن جلبت على السخط وعرضتنى للخطر ، إلا انها تركت لى الاعتبار والاحترام ، على الأقل . اما بعد هذا المؤلف الأخير ، فقد تبدت الدهشــة فى (جنيف) وفى (فرساى) ، من ترك وحش مثلى ، يتنفس ويعيش . وإذا المجلس الصغير ــ بتحريض من الوزير الفرنسى المقيم ، وبتوجيه من المدعى العام ــ يصدر بيانا عن الكتاب ، أعلن فيه ، بعد وصفه باقذع النعوت ، انه غير جدير بأن يحرق بيدى منفذ الأحكام .. واضاف إلى هذا ــ فى دهاء ، يكاد يثير الضحك ــ ان لا سبيل لامرىء إلى الرد على هذا الكتاب ، بل إلى مجرد ذكره ، دون أن يشين نفسه !

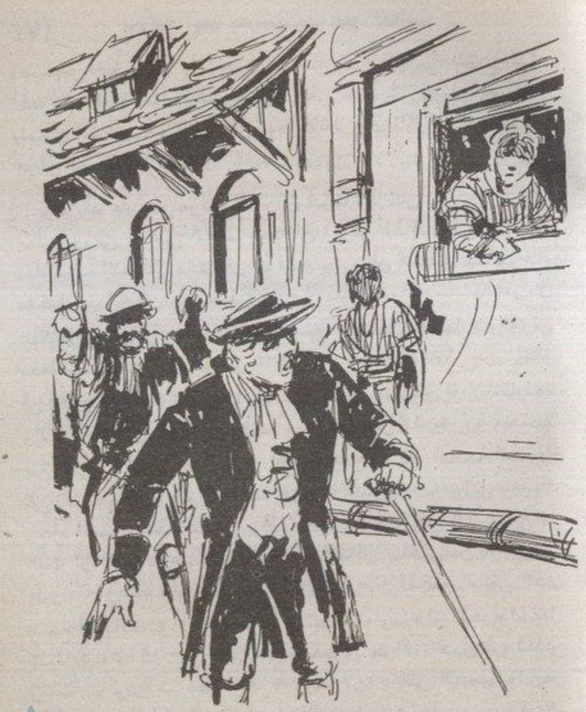
ولكم اتمنى لو استطعت أن انقل هنا هذا البيان العجيب ، ولكنى ــ لسوء الحظ ــ لا أملك نسخة ، ولا اذكر كلمة واحدة منه . وشد ما ارجو ان يتفضل احد من قرائى ــ بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة ــ على إعادة قراءة « رسائل من الجبل » باكمله . واستطيع أن اقول إنه سيلمس الاعتـدال الشديد الذى ساد هذا الكتاب ، بعد الإهانات العنيفة القاسية ، التى تبارى الناس فى صبها على المؤلف . ولكن اعدائى ــ إذ

عجزوا عن الرد على السباب ، لأن الكتاب لم يحو شيئا منه .. ولا على الحجج ، لأنها كانت مفحمة ــ عمدوا إلى التظاهر بأنهم اكثر ترفعا من أن يجيبوا .. ومن الصحيح حقا ، انهم إذا حملوا الحجج المفحمة على أنها إهانات ، لحق عليهم أن يشعروا بأنهم اوذوا اشد الإيذاء !

أما فريق المتذمرين، فانهم بدلا من أن يثيروا اية شكوى من هذا البيان البشع ، سلكوا الطريق التى رسمها لهم .. وبدلا من أن يمجدوا « رسائل من الجبل » كغنيمة ظفروا بهـا ، إذا بهم يستترون خلفها كدرع .. فكانوا من الجبن بحيث انهم لم يؤدوا اى تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلف الذى وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم .. بل إنهم لم يذكروه ، ولا نقلوا عنه ، وإن كانوا قد اقتبسوا عنه ــ فى الخفاء ــ كل حججهم .. وكانت الدقة التى اتبعوا بها النصيحة التى اختتم بها هذا المؤلف ، هى السبب الوحيد فى خلاصهم وانتصارهم ! .. لقد فرضوا على هذا الواجب ، وقد اديته .. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم إلى النهاية . ولقد توسـلت إليهم ان يتخلوا عن قضـيتى ولا يفكروا إلا فى انفسهم، فى مشاحناتهم. وقد اخذونى بكلمتى ، فلم اتدخل فى شئونهم باكثر من أن رحت أستحثهم على السلام، دون انقطاع . وما من ريب لدى فى انهم لو كانوا قد مضوا فى عنادهم لأنفسهم ، لسحقتهم فرنسا . وهذا ما لم يحدث .. وانى لأدرك السبب ، ولكن هذا ليس مجال الإفضاء به !

ولقد كان الأثر الذى أحدثه كتاب « رسائل من الجبل » فى نيوشاتيل ، يتسم بالهدوء فى البداية . ولقد ارسلت نسخة

Looloo
www.dvd4arab.com



فراحو يسبوننى علنا فى رائعة النهار ، لا فى الريف ، أو فى الطرق الخلوية فحسب ، بل وفى الشوارع الرئيسية

Looloo www.dvd4arab.com

منه إلى السيد دى مونمولان ، فسره أن حصل عليها ، وقرأها دون أن يجد فيها مأخذا . وكان مريضا - مثلى - فلما استرد صحته ، قام بزيارة ودية لى ، ولم يقل شيئا عن الكتاب . ومع ذلك ، فان الهياج كان قد دب ، وأحرق الكتاب حيث لا أدرى(١) . ومن (جنيف) ، ومن (بيرن) ، وربما من (فرساى) ، لم يلبث مركز الفوران أن انتقل إلى (نيوشاتيل)، وإلى (فال دى ترافير) - بوجه خاص - حيث بدىء ، حتى قبل أن تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة ، فى تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية . ومن حقى أن أقول إننى كنت خليقا بأن أكون محبوبا من أهل هذه البلاد ، كما كنت من جميع أولئك الذين عشت بينهم . وكنت أغدق الصدقات بسخاء ، ولا أدع محتاجا ممن يحيطون بى دون معونة ، ولا أرفض أن أؤدى أية خدمة فى نطاق مقدرتى ، ما دامت تتمشى مع العدالة.. بل لعلنى كنت أسرف فى التآلف مع كل الناس ، أكثر مما ينبغى .. كما أننى اعتدت - بقدر ما وسعنى - أن أرفض كل تمييز فى المعاملة ، قد يثير الغيرة ! .. ومع ذلك ، فان كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا ، دون أن أدرى محرضهم ، ومن أن يوغروا تدريجا ضدى ، حتى بلغوا درجة الهياج ، فراحوا يسبوننى علنا فى رائعة النهار ، لا فى الريف، أو فى الطرق الخلوية فحسب ، بل وفى الشوارع الرئيسية .. وكان أشدهم تحرشا بى ، هم أولئك الذين أسديت إليهم أكبر

(١) فى باريس ، مع « الموسوعة الفلسفية » لفولتير ، وبنفس القرار المؤرخ فى ١٩ مارس سنة ١٧٦٥

قسط من الخير .. بل ان من الناس ـ الذين واصلت إسداء المعروف إليهم ـ من لم يجرؤوا على التحرش علنا ، فراحوا يثيرون الباقين ، وكانما كانوا بهذه الطريقة يثارون لانفسهم من هوان أن يكونوا مدينين بالفضل لى ! .

ولم يبد على مونمولان انه راى شيئا مما كان يجرى ، لا ولم يعد يزورنى . على انه لم يلبث ان زارنى ـ إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان ـ لينصحنى بأن اتفادى حضورها، مؤكدا لى انه لن يعارضنى فى غير ذلك ، وانه سيدعنى فى سكينتى . والفيت هذه المجاملة منه غريبة فى نوعها . وذكرنى بخطاب السيدة دى بوفلير ، فلم استطع ان افقه أن من الممكن أن يكون لأى احد شأن بما إذا كنت أتناول القربان أو لا اتناوله. وإذ وجدت ان قبول اقتراحه بعد جبنا من ناحيتى ، فضلا عن اننى لم اكن راغبا فى أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كى يصيحوا فى وجهى : « ها هو ذا الكافر ! » ، فاننى رفضت رجاء القس رفضا باتا ، وإذا به يستاء ويوحى إلى باننى لن البث ان اندم . على انه لم يكن يملك ان يمنعنى من التناول بامر منه وحده ، بل كان لا بد من قرار من المجمع الدينى الذى سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة . وما دام المجمع لم يقل شيئا ، فقد كان من حقى أن أتقدم فى جراة ، دون أن اخشى رفضا . ومن ثم فقد عمد « مونمولان » إلى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتى للمثول امام المجمع ، لأقدم حسابا عن إيمانى ، على أن اجازى بالحرمان ، إذا أنا ابيت أن البى الدعوة .

على أن الحرمان بدوره لم يكن ميسورا ما لم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء . ولكن الفلاحين الذين الفوا هذه الهيئة ـ تحت اسم الشيوخ الحكماء ـ كانوا تحت رئاسة القس ، وبالتالى تحت نفوذه ، كما هو مفهوم . فلم يكن لهم ـ بطبيعة الأمر ـ رأى سوى رايه ، لا سيما فى المسائل اللاهوتية ، التى كانوا أقل إدراكا لها منه . ومن ثم فقد قررت أن ألبى الدعوة، عندما أعلنت بها !

* * *

اى ظرف سعيد ، واى نصر لى ، لو اننى عرفت كيف اتكلم ـ فى هذه المناسبة ـ عن نفسى ، وأن أضع قلمى فى فمى، كما ينبغى أن يقال ! .. باى تفوق جائح ، وبأى يسر كان فى وسعى أن اهزم القس البائس ، وسط فلاحيه الستة ، أعضاء المجمع ! .. كان الطمع فى السلطان قد انسى رجال الدين البروتستانت مبادىء الإصلاح الدينى ، وكان كل ما يعوزنى لتذكيره بهذا ، ولإفحامه ، هو ان اشرح الرسائل الجبلية الأولى، التى كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيبونها على . وهكذا كان موضوعى معدا ، ولم يكن ينقصنى سوى المثول امام المجمع ، فاذا غريمى يفحم ! .. وما كنت من الغباء بحيث اقتصر على الدفاع ، بل كان الجو ممهدا لان انقلب مهاجما ، دون أن يفطن هو ، ودون أن يقوى على صد الهجوم . ذلك لأن الحمقى التافهين من رجال الدين ، كانوا عاطلى العقول بقدر ما كانوا جهلة ، وقد وضعوا انفسهم ـ بالنظام الذى ابتدعوه ـ فى انسب وضع كنت اشتهيه ، لكى ادحضهم كما يحلو لى !

Loloo

ولكن مهلا ! .. كان لا بد لى من ان أتكلم ، ومن أن أتكلم فى الموضوع، ومن أن أعثر على الأفكار ، وأن أقلبها على كل جانب، وان اجد الكلمات فى لحظة الحاجة إليها ، وان أحتفظ دائما بحضور بديهتى ، وأن أكون هادىء الأعصاب باستمرار ، فلا أضطرب لحظة واحدة .. فما الذى كنت أملك ان أرجوه من نفسى ، وأنا الذى كنت ألمس تماما عجزى عن أن أعبر عن نفسى للفور ؟ .. لقد اضطررت إلى أن ألزم أزرى حالات الصمت ، فى (جنيف) ، أمام لجنة كانت محابية لى كل المحاباة، وكانت قد عقدت العزم مقدما على أن تحبذ كل ما أقول(1) . أما هنا ، فقد كان الأمر على النقيض .. كان على أن أنازل شخصا مشاكسا ، وضع الدهاء فى موضع المعرفة ، وفى وسعه أن ينصب لى مائة شرك ، قبل أن ألمح واحدا منها ، وقد عقد عزمه على أن يظهرنى مخطئا ، مهما يكبده هذا من ثمن ! .. وكنت كلما فحصت موقفى هذا ، ازددت شعورا بخطره . فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن أنتزع نفسى من هذا الموقف بنجاح ، فكرت فى حيلة أخرى . ورحت أفكر فى خطاب اعتزمت أن ألقيه أمام المجمع ، لكى أطعن فى اختصاصه ، فأحل نفسى من ضرورة الإجابة . وكان الأمر غاية فى السهولة ، فكتبت الخطاب ، وشرعت أستذكره عن ظهر قلب فى تحمس لا مثيل له . وإذ سمعتنى « تيريز » وأنا أتمتم لنفسى ـ بلا انقطاع ـ مكررا نفس العبارات ، محاولا أن أحشرها فى رأسى ، راحت تضحك منى . وكنت آمل أن أستوعب الخطاب فى النهاية .

(1) وردت هذه المناسبة فى صفحة ١٨٩ ـ الجزء الثالث .

فقد كنت أعرف أن حاكم المقاطعة ـ كمندوب من العاهل ـ سيحضر جلسة المجمع ، وأن معظم الشيوخ كانوا ـ بالرغم من مناورات مونمولان وزجاجات الخمر التى وزعها ـ طيبى الشعور نحوى . وكان يناصرنى المنطق ، والحق ، والعدالة ، وحماية الملك ، وسلطان مجلس الدولة ، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تأثروا بتقرير هذا التحقيق .. كان كل شىء يساهم فى تشجيعى ، فى الواقع !

وما أن حان اليوم السابق على الموعد المحدد ، حتى كنت قد حفظت خطابى عن ظهر قلب ، ورحت أردده دون ما خطأ . ورحت أسترجعه ثانية ، فى ذهنى ، طيلة الليل . ولكننى فى الصباح .. نسيته ! ورحت أتردد عند كل كلمة .. وتمثلت نفسى أمام المجلس الموقر ، فإذا بى أرتبك ، وأتلعثم . وإذا بفكرى يتشتت ! .. وأخيرا ، خذلتنى شجاعتى تماما ، فى لحظة الانطلاق ، فبقيت فى البيت ، وعزمت على أن أكتب إلى المجمع ساردا ـ فى عجلة ـ أسبابى ، ناسبا عدم ذهابى إلى توعك صحتى التى كانت ـ فى حالتى تلك ـ تجعل من المستحيل على حقا ، أن أمكث طيلة الجلسة !

وأحرج خطابى الوزير ، فأرجأ القضية إلى جلسة أخرى . وفى تلك الأثناء ، راح يبذل ـ هو وأذنابه ـ ألف حيلة وجهد، لإغراء أولئك الذين لم يتبعوا سوى إيعازات ضمائرهم دون إيعازاته ، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين . وبالرغم مما كان للحجج ـ المستمدة من قبو الخمور فى داره ـ من تأثير على أناس من هذا القبيل ـ إلا أنه لم يستطع

Laolao www.dvd4arab.com

ان يكسب أحدا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل ، والذين عرفوا باسم « شياطينه اللعينة » !.. واستطاع مندوب الملك والكولونيل «دى بورى» ـ الذى ابدى كثيرا من الهمة فى هذه المسألة ـ ان يحملا بقية الأعضاء على ان يلزموا نطاق الواجب . فلما أراد « مونمولان » ان يدفع قرار حرمانى من الكنيسة قدما ، رفض اقتراحه رفضا باتا بأغلبية الأصوات . ولم يبق امامه سوى إثارة الناس ـ كحيلة أخيرة ـ فشرع يعمل جهارا ، بمساعدة زملائه وغيرهم ، واستطاع ان يوفق إلى درجة اننى اضطررت فى النهاية ـ بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك ، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة ـ إلى مغادرة البلاد ، حتى لا اعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفاع عنى .

ولست احتفظ لهذه القضية كلها ، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل على معها ان ابث اى ترتيب أو روابط بين الأفكار التى تعاودنى عنها . ولست املك سوى أن أعرضها متفرقة ، متباعدة ، كما تتوارد على ذهنى . وانى لأذكر أن شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين ، وكان مونمولان وسيطا فى ذلك . ذلك لأنه كان قد تظاهر بالخشية من أن تؤدى كتاباتى إلى قلقلة هدوء البلاد ، الأمر الذى كان يعتبر نفسه مسئولا عنه إذا ظل يبيح لى حرية الكتابة ! .. ومن ثم فقد عمد إلى الإيعاز إلى بأن من الممكن التجاوز عن الماضى ، إذا انا ألقيت القلم من يدى . وكنت قد انتهيت إلى هذا ـ فيما بينى

وبين نفسى ـ من قبل ، فلم اتردد على أن انتهى إليه مع فريق رجال الدين ، ولكن بشرط ، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب . وتعمد مونمولان أن يعد صيغتين من الاتفاق ، بسبب تعديلات ادخلها على الصيغة الأولى . وحدث ان قوبل الشرط بالرفض من حزب رجال الدين ، فطلبت رد الاتفاق المكتوب ، وإذا مونمولان يرد إلى إحدى النسختين ويحتفظ بالأخرى ، زاعما انه اتلفها ! .

وعمد الجمهور ـ بعد ذلك ، وبتحريض رجال الدين ـ إلى السخرية من تعليمات الملك ، ومن أوامر مجلس الدولة ، ولم يعودوا يقفون عند حد ، فى جموحهم . وكانت الهجمات تشن على خلال المواعظ ، من فوق المنابر ، فلقبت بى « عدو المسيح » ، وطوردت فى الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا . وكانت ثيابى الأرمنية سمة كافية كى يعرفنى الناس بها . فأحسست أقسى الإحساس بعدم ملاءمتها ، ولكن نبذها ـ فى مثل هذه الظروف ـ كان ، فى رأيى ، بمثابة الجبن . فلم أستطع ان احل هذه المشكلة ، وظللت أتمشى فى كل مكان بهدوء ، وأنا فى القفطان ، وقد ارتديت القلنسوة الفرو ، تتبعنى سخريات الغوغاء وصياحهم .. وقطع الحصى التى كانوا يقذفوننى بها أحيانا ! .. وكم من مرة سمعت ـ وأنا أمر بالمنازل ـ أصوات ساكنيها وهم يصيحون : « ناولونى بندقيتى ، حتى أرديه فى مكانه ! » . ولم أكن أسرع الخطى ، فكان هذا يضاعف من حنقهم ، ولكنهم اقتصروا دائما على

Looloo
www.dvd4arab.com

التهديد والوعيد .. فيما يتعلق بالأسلحة النارية ، على الأقل !

* ** *

على أننى ــ خلال هذا الهياج كله ــ لم أعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمرأته كل الاستمراء . وكانت أولاهما التى استطعت أن أعرب عن عرفانى بالصنيع ، بفضل سيدى اللورد المارشال . ذلك أن جميع ذوى المكانة من أهالى نيوشاتيل ، استنكروا المعاملة التى كنت ألقاها ، والمكائد التى كنت ضحية لها ، مما أوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين ، إذ فطنوا إلى أنه كان منصاعا لنفوذ أجنبى ، وأنه لم يكن سوى أداة للغير ، ممن كانوا يتوارون فى المؤخرة وهم يستحثونه على التصرف . ومن ثم فقد بداوا يخشون ألا تؤدى حالى إلا إلى إنشاء محكمة للتفتيش حقا(١) ! .. وبذل رجال الحكومة ــ لا سيما السيد مورون، الذى خلف السيد دانفيرنوا فى منصب المدعى العام ــ كل ما فى وسعهم لحمايتى . ومع أن الكولونيل بورى لم يكن سوى فرد عادى ، إلا أنه فاقهم جهدا، وكان أكثر منهم توفيقا . فهو الذى ابتكر الوسيلة لخذلان

---

(١) كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة ، أنشئت لأول مرة فى (تولوز) فى سنة ١٢٢٩ ، ثم انتشرت فى القرون الوسطى فى فرنسا وايطاليا واسبانيا ــ بوجه خاص ــ واستفحل نفوذها فكثر جورها ، وغدت أداة سياسية أكثر منها دينية . وكانت محاكماتها تجرى سرية ، وتستخدم فيها أبشع طرق التعذيب لحمل السجين على أن يقر بالذنب الذى يتهم به !

مونمولان فى المجمع ، بإلزام الشيوخ حدود الواجب . وإذ كان واسع السمعة ، فقد استخدم مكانته فى القضاء على الفتنة . ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون ، والعدالة ، والمنطق ، فى مواجهة نفوذ المال والنبيذ ! .. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين ، فأحرز مونمولان نصرا عليه ، فى هذه الناحية . ومع ذلك فاننى كنت مقدرا جهوده وتحمسه من أجلى ، وكنت تواقا إلى أن أقدم له جميلا ، فى مقابل جميله ما استطعت .. وأن أرد له الفضل بطريقة ما . وكنت أعرف أنه كان يصبو إلى أن يصبح مستشارا فى مجلس الدولة ، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكى ــ فى قضية القس بيتيبيير ــ باء بعدم رضى العاهل والحاكم . فجرؤت على أن أكتب فى صالحه ــ بالرغم من ذلك ــ إلى السيد المارشال .. بل وتجاسرت على أن أذكر المنصب الذى كان يشتهيه ، وكنت موفقا كل التوفيق ــ بالرغم مما توقعه كل الناس ــ حتى أن المنصب خلع عليه فورا بأمر ، الملك .

وهكذا ظل القدر ــ الذى اعتاد دائما أن يرفعنى عاليا ، وأن يخفضنى إلى الحضيض ، فى آن واحد ــ يتقاذفنى بين هذين النقيضين. وفى الوقت الذى كان الناس يلطخوننى فيه بالوحل، استطعت أن أعين مستشارا للدولة !

وكانت ثانية المناسبات التى حظيت فيها بأعظم سرور ، هى زيارة تلقيتها من السيدة دى فيرديلان وابنتها ، التى كانت تصطحبها إلى حمامات بوربون ، التى أقبلتا منها ، فقضيتا يومين أو ثلاثة معى . ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وما تجشمته من أجلى ، أن تتغلب على نفورى الطويل منها ، فإذا قلبى ـ وقد غزته مجاملاتها ـ يبادلها كل الود الذى ظلت طويلا توليني إياه . ولقد تأثرت بهذه الزيارة ، لا سيما فى الظروف التى كنت أعانيها ، وعندما كنت فى أشد الحاجة إلى مواساة الصداقة ، كى أحتفظ بشجاعتى . ولقد خشيت أن تتأثر أبلغ التأثر بالإهانات التى كنت أعانيها من الأهالى ، وكم وددت أن أجنبها المنظر ، حتى لا يملأ فؤادها أسى . ولكن هذا لم يكن فى طوقى ، ومع أن وجودها كبح قليلا البذاءات ـ أثناء نزهاتنا ـ إلا أنها رأت ما يكفى لأن تحدس ما كان يجرى فى الأوقات الأخرى .

والواقع أننى بدأت أتعرض لأول مرة لحملات ليلية ، فى عقر دارى ، أثناء وجودها . ففى صباح أحد الأيام ، وجدت وصيفتها نافذتى محجوبة بأحجار قذفت عليها فى المساء . وكان ثمة مقعد عريض ، ثقيل ، مثبت تثبيتا قويا فى الطريق ، إلى جوار بابى . فإذا به قد نزع من مكانه ، ونقل ، وأقيم على أحد أطرافه مستندا إلى الباب ، بحيث كان من المقصود ـ لولا أن اكتشف ـ أن يهوى على رأس أول شخص يفتح الباب ليخرج. ولقد ألمت السيدة دى فيرديلان إلماما تاما بكل ما كان يجرى . فإلى جانب ما كان بوسعها أن تراه بنفسها ، أخذ خادمها الخاص يتعرف أهل القرية ، ويستدرجهم إلى الحديث . بل إنه رؤى وهو يجاذب مونمولان الحديث . ومع ذلك ، فإنها لم تبد أنها انتبهت إلى شىء مما كان يجرى لى ، ولم تحدثنى عن مونمولان، ولا عن أى شخص، ولم تجب بغير كلمات موجزة

على ما كنت ـ أحيانا ـ أرويه لها عن نفسى . على أنها لاحت مقتنعة بأن إقامتى فى إنجلترا ، أكثر ملاءمة لى من أية إقامة أخرى . وأسهبت فى الحديث إلى عن السيد « هيوم » ـ الذى كان ، إذ ذاك ، فى باريس ـ وعن وده لى ، ورغبته فى أن يكون ذا نفع لى فى بلاده . وقد آن لى أن أذكر شيئا عن السيد هيوم .

كان هذا السيد قد اكتسب فى فرنسا صيتا ذائعا ، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف، بفضل الرسائل التى ألفها فى الشئون التجارية والسياسية ، ثم ـ أخيرا ـ بفضل كتابه فى : « تاريخ آل ستيورات » ، وهو الوحيد من مؤلفاته ، الذى اطلعت على نسخ منه ، مترجما بقلم الراهب بريفو . ومع أننى لم أكن قد قرأت مؤلفاته الأخرى ، إلا أننى اقتنعت ـ على ضوء ما قيل لى عنه ـ بأن السيد « هيوم » كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية ، تميل ـ بفضل الأهواء الإنجليزية ـ إلى تحبيذ الترف . وعلى ضوء هذا الرأى ، اعتبرت كل المعاذير التى ساقها ـ لتبرير تصرفات تشارلس الأول ـ أعجوبة فى الرأى المحايد ، ومن ثم فإننى أكبرت فيه صدقه ونزاهته ، أكثر مما أكبرت عبقريته . وكثيرا ما ضاعفت الرغبة فى التعرف إلى هذا الرجل النادر واكتساب وده، من المغريات التى أثارها فى نفسى إلحاح السيدة دى بوفلير ـ صديقته الحميمة ـ والتى كانت تدفعنى إلى الانتقال إلى إنجلترا .

ولقد تلقيت منه ـ عن طريقها ـ عند وصولى إلى سويسرا ، خطابا مطيبا للخاطر إلى أقصى حد . وبعد أن قدم أعظم آيات

Loolooo
www.dvd4arab.com

الإطراء لعبقريتى ــ فى هذا الخطاب ــ وجه دعوة ملحاحة كى انتقل إلى إنجلترا، وتطوع بكل ماله من مكانة، وبكل أصدقائه، لجعل إقامتى هناك مستحبة ومريحة . وقد سعيت لفورى إلى استشارة السيد المارشال ــ الذى كان مواطنا وصديقا للسيد هيوم ــ فأكد لى حسن ظنى بهذا السيد . وروى لى نادرة أدبية عنه ، ادهشتنى بقدر ما أدهشته . تلك هى أن « ولاس » ــ الذى وضع كتابا يعارض فيه آراء « هيوم » بشأن سكان العالم القديم ــ كان متغيبا عندما طبع كتابه ، فتطوع « هيوم » بمراجعة « البروفات » ، وبالاشراف على إصدار الكتاب . وكان هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسى ، إذ أننى كنت ــ بنفس الروح ــ قد توليت بيع نسخ من أغنية كانت قد نظمت ضدى، فى مقابل ستة «سو» للنسخة !..

ومن ثم فقد كنت محقا فى ان أكون لنفسى كل فكرة طيبة عن « هيوم » ، قبل أن تأتى السيدة دى فيرديلان ، وتحدثنى فى حرارة عن الود الذى قال انه يكنه نحوى ، وعن تشوقه إلى أن يؤدى لى كل تكريم فى إنجلترا .. فهذا عين ما ذكرته لى !

ولقد الحت كثيرا لحملى على الإفادة من هذه الشهامة ، وعلى الكتابة إلى « هيوم » . ولما لم أكن بطبعى ميالا إلى إنجلترا ، ولم أكن راغبا فى اتخاذ هذا القرار ــ اللهم إلا عند الضرورة القصوى ــ فقد رفضت أن اكتب ، أو أن اعد بالكتابة ، بيد أننى تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذى تراه صالحا ، لاستبقاء ميل « هيوم » نحوى . وعندما غادرت (موتيير) ، خلفتنى وأنا مقتنع تماما ــ من كل ما قالته لى عن

هذا الرجل الجليل ــ بأنه كان فى عداد أصدقائى ، وبأنها كانت من أقرب أصدقائه إليه !

* * *

ولقد مضى مونمولان قدما فى مكائده ــ بعد رحيلها ــ واصبح القوم لا يقفون عند حد فى جموحهم ، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتى على القدمين فى هدوء وسط صخبهم . واضفت هواية النباتات ــ التى كنت قد شرعت فى ممارستها بفضل الدكتور دانفيرنوا ــ طرافة جديدة على رياضتى ، وحملتنى على أن أهيم فى الريف ، أجمع النباتات ، دون أن أتأثر بصيحات الغوغاء ، الذين لم يكن هدوء أعصابى ليزيدهم إلا هياجا ! ولقد كان من الأشياء التى حزت فى نفسى ، أن رأيت أسرات أصدقائى(١) ، أو من كانوا يسمون انفسهم كذلك ، ينضمون

---

(١) عقب روسو على هذا بقوله : « بدأت هذه الظاهرة المشئومة ، منذ اقامتى فى (ايفردون) ، اذ أن السيد الاقطاعى روجان توفى بعد رحيلى عن هذه المدينة بعام أو اثنين ، فاذا أبوه الشيخ يجد من الامانة ما يحمله على أن يخبرنى ــ وهو آسف ــ انه قد ثبت من أوراق ابنه أنه قد اشترك فى مؤامرة اقصائى عن (ايفردون) وولاية (بيرن) . وقد دل هذا بجلاء ، على أن المؤامرة لم تكن فرية ــ كما رغب الناس فى أن يصدقوا ــ وانما كانت مجرد مظاهرة كاذبة ، اذ إن الاقطاعى « روجان » ، لم يكن بعيدا عن التقوى فحسب ، وانما كان يمعن فى ماديته وكفره الى درجة التعصب والتهوس . والى جانب ذلك ، لم يكن فى (ايفردون) من استولى على ودى ، وغمرنى بالمجاملات المفرطة ، وبالملق والرياء ، كما فعل الاقطاعى روجان المذكور . فكان وفيا فى اتباع الخطة المحببة لدى مضطهدى » .

Looloo
www.dvd4arab.com

جهارا إلى صفوف مضطهدى .. كآل دانفيرنوا .. ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتى « ايزابيل » .. و «بوى ديلاتور» قريب الصديقة التى اقمت فى دارها ، والسيدة «جيراردييه» زوجة اخيها . ولقد كان هذا الـ « بيير بوى » شديد الغباء ، وبلادة الذهن ، وكان عنيفا فى طباعه ، حتى اننى أبحث لنفسى أن اضحكه ، لكى اتفادى هياجه . ووضعت ـ بالأسلوب الذى انتهجته فى « النبى الصغير » ـ كتيبا من بضع صفحات ، أسميته « رؤيا بيير الجبلى ، الملقب بالبصير » !.. ولقد وجدت فى هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات ، اتخذ ـ فى ذلك الحين ـ حجة رئيسية لاضطهادى . ولقد عمد « دو بيرو » إلى طبع هذا الكتيب فى (جنيف) ، فلم يظفر ـ فى تلك البلاد ـ باكثر من نجاح متوسط ، إذ أن أهالى نبوشاتيل لا يميلون كثيرا إلى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعابات الضاحكة ، برغم ما اوتوا من لماعية !

ولقد بذلت قدرا أكبر من الجهد ، فى كتاب آخر ، فى عين تلك الفترة . وقد عثرت على مخطوطه بين اوراقى ، فجدير بى أن اذكر شيئا بصدده :

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات فى عنفوانها ، بز أهل (جنيف) سواهم ، بأن راحوا يطلقون صيحاتهم بأعلى ما فى طاقتهم من صوت . واختار صديقى « فيرن » تلك الفترة بالذات ـ فى كرم جدير برجال الدين حقا ! ـ لينشر بعض رسائل ضدى ، حاول فيها أن يبرهن زورا على اننى لم اكن مسيحيا .. على ان هذه الرسائل ـ التى صيغت فى اسلوب

مقنع ـ لم تجد نفعا ، بالرغم مما قيل من أن الطبيعى (المؤمن بالطبيعة دون الله) بونيه ، قد ساهم فيها . ذلك لأن «بونيه» هذا ، كان ماديا ، ولـكنه لم يكن ليتوانى عن ان ينقلب إلى متعصب دينى متعنت ، إذا ما كان الأمر يتعلق بى . ومن المحقق أننى لم اشعر بميل إلى أن ارد على هذا الكتيب ، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه ، فى « رسائل من الجبل » ، فأوردت فى سياقه إشارة مترفعة ، اهاجت حنق « فيرن » ، فراح يملأ جنيف بصيحات غيظه ، وقال لى دانفيرنوا انه فقد حجاه . وبعد فترة ، ظهرت وريقة لا تحمل اسم كاتبها ، وكأنما كتبت بمياه (فليجيتون) ـ احد أنهار الجحيم ـ لا بمداد . واتهمت فى هذه الوريقة بأننى القيت بأبنائى إلى عرض الطريق ، واننى كنت أجر ورائى إحدى مومسات جنود الحرس ، وأن الافراط فى الملاذ قد انهك قواى ، واننى موبوء بالزهرى .. وما إلى ذلك من أوصاف « مهذبة » !

ولم يشق على ان أعرف كاتب هذا المنشور . وكان أول ما خطر لى ، عند قراءة هذا التشهير ، هو ان اقدر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة ، فقد رايت رجلا يتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذى لم يرتد يوما دار فسق ، وكان أعظم عيوبه دائما ، هو انه فى حياء العذراء وخجلها .. رايتنى أوصف بأن « الزهرى » كان يفرى كيانى ، وأنا الذى لم اصب يوما بأتفه الأمراض التناسلية ، بل إن اهل الاختصاص انفسهم أكدوا أننى أوتيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض !

وبعد أن قلبت الرأى ، انتهيت إلى ان خير طريقة لدحض هذا

looloo
www.dvd4arab.com

الافتراء ، هى أن أنشرها فى المدينة التى أقمت فيها أكثر من سواها . لذلك أرسلت المنشور إلى « دوشين » ليقوم بطبعه بنصه ، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيد فيرن ، وبعض سطور موجزة لإيضاح الوقائع . على أننى لم أقتنع بنشر هذا المنشور، فأرسلته بنفسى إلى عدة أشخاص، بينهم الأميرلويس دى فيرتمبيرج ، الذى كان قد أظهر لى مجاملات غاية فى الكرم، والذى كنت أبادله الرسائل ، فى ذلك الحين .. ولاح أن الأمير، ودو بييرو ، وغيرهما ، كانوا فى شك من أن دى فيرن هو مؤلف هذا التشهير ، وعتبوا على أن ذكرت اسمه دون تحر كاف . وبناء على ملاحظاتهم ، ندمت على ما فعلت ، وكتبت إلى « دوشين » كى يوقف نشر هذه الوريقة ، فكتب إلى « جاى » بأنها أوقفت . ولست أدرى ما إذا كان هذا حقا ، فقد عهدت « جاى » كثير الكذب ، فى مناسبات كثيرة ، حتى أن صدور أكذوبة جديدة منه ، ليس بالأمر المستغرب !.. ولقد كنت ـ إذ ذاك ـ محوطا بهذه الظلمات الدامسة ، التى كان من المستحيل على أن أنفذ خلالها إلى أى شىء من الحقيقة !

ولقد احتمل السيد ديفرن هذا الاتهام فى رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذى أبداه من قبل ، لا سيما إذا صح أنه لم يكن يستحق هذا الاتهام ! .. ولقد كتب لى رسالتين أو ثلاثا ، فى أسلوب جد حذر ، بدا لى أنه كان يرمى بها إلى محاولة الوصول ـ خلال ردودى ـ إلى مدى ما كنت أعرفه ، وما إذا كان لدى دليل ضده . على أننى أجبت بخطابين قصيرين، جافين ، خشنى المعنى دون نبو فى العبارة،

فلم يغضب منهما إطلاقا . ولكنى لم أجب عن خطابه الثالث قط ، إذ تبينت أنه كان يستدرجنى إلى مراسلته .. وقد أرسل دانفيرنوا ليحدثنى بهذا الصدد . وكتبت السيدة « كراميه » إلى « دو بييرو » أنها كانت واثقة من أن التشهير لم يصدر عن فيرن . ولم يزحزحنى هذا كله عن اقتناعى . على أنه لما كان من المحتمل أن أكون مخطئا ـ فأكون مدينا لفيرن باعتذار علنى، فى هذه الحال ـ فقد قلت له ، عن طريق دانفيرنوا ، أننى على استعداد لأن أقدم له اعتذارا يرضيه ، إذا هو استطاع أن يبين لى الكاتب الحقيقى لهذا التشهير ، أو أن يبرهن لى ـ على الأقل ـ على أنه لم يكن هذا الكاتب . بل إننى ذهبت إلى أبعد من ذلك ، إذ شعرت بأنه ـ على أية حال ـ ليس من حقى أن أطالبه بأن يثبت لى أى شىء ، إذا لم يكن مذنبا . فعزمت على أن أكتب ـ فى مذكرة مسهبة ـ الأسباب التى حملتنى على اعتقادى ، وأن أعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع فيرن أن يطعن فى ذمته . وما كان أحد ليحدس هذا الفيصل الذى اخترته ، فقد وقع اختيارى على : مجلس جنيف !

ولقد أعلنت فى نهاية المذكرة ، أنه إذا قضى المجلس ـ بعد فحصها وإجراء التحريات التى يراها لازمة ، والتى كان من السهل إجراؤها بنجاح ـ أن السيد فيرن لم يكن كاتب التشهير، فاننى على استعداد لأن أكف صادقا ، منذ تلك اللحظة ، عن اعتقادى بأنه الكاتب ، ولأن أذهب فأرتمى على قدميه ، وأظل أناشده الصفح ، حتى أظفر به !.. وبوسعى أن أقول إن تأجج غيرتى من أجل العدالة ، واستقامتى وكرم نفسى ، وثقتى

Loloo www.dvd4arab.com

فى هذا الحب ـ الدفين فى قلبى ـ نحو العدالة . . استطيع ان اقول ان هذه لم يقدر لها يوما ان تتكشف اكثر وضوحا وكمالا مما تكشفت فى هذه المذكرة . . ولا اكثر حكمة ونفاذا إلى القلوب مما تمثل فى اننى لم اتردد فى قبول الد اعدائى ليفصلوا بينى وبين من ذمنى !. . ولقد قرأت هذه المذكرة على « دوبيرو » فنصحنى بأن أعدمها ، وقد فعلت . وأشار على بأن أرتقب ما قد يظهره « فيرن » من ادلة . فانتظرت ، ولا ازال انتظر !. . كذلك نصحنى بأن التزم الصمت أثناء الانتظار، فلزمت الصمت، وسأظل صامتا بقية عمرى ، ملوما على اننى وجهت إلى فيرن اتهاما خطيرا ، زائفا لم يقم عليـه دليل . . وإن كنت ما ازال موقنا ، ومقتنعا ـ فى دخليتى ـ بأنه كاتب ذلك الهجو ، يقينى واقتناعى بوجودى !. . إن مذكرتى فى حوزة السيد دوبييرو ، فإذا قـدر لها يوما ان ترى النـور ، فستتبدى فيها حججى وأسبابى . . وآمل أن تجد روح جان جاك التى ابى معاصرى أن يفهموها ، من يفهمها إذ ذاك !

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الاخيرة فى (موتيير) ، ورحيلى عن (فال ـ دى ـ ترافير) ، بعد إقامة دامت سنتين ونصف السنة . . وبعد ثمانية اشهر من جلد لم يهن ، فى احتمال ازرى المعاملات !. . ان من المستحيل ان اذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة ، من حياتى . ولكنها ستوجد فى المسيرة التى نشرها « دو بيرو » ، والتى سأتكلم عنهـا فيما بعد .

***

اشتد الهياج عنفا ، منـذ رحيل السيدة دى فـيرديلان . وبالرغم من الانذارات المتكررة ـ من الملك ـ وبالرغم من الاوامر المتابعة من مجلس الدولة ، وبالرغم من الجهود التى بذلها سيد المقاطعة ، ورجال الحكومة فى المنطقة ، فقد ظل الناس يعتبروننى ـ فى جد واعتقاد حازم ـ عدوا للمسيح !. . وإذ رأوا ان كل صخبهم لم يؤد إلى جدوى ، بدا أنهم تهيأوا اخيرا للاقدام على تصرفات عنيفة !. . فبدأت الأحجار تتطاير خلفى فى الطرق ، وهى تلقى من بعد لم يكن يمكنها من أن تصيبنى .

واخيرا . . وفى ليلة سـوق (موتيير) ، التى تقام فى بداية شهر سبتمبر ، هوجمت فى عقر دارى ، التى كنت أقيم فيها ، بطريقة عرضت حياة ساكنى الدار للخطر !

ففى منتصف الليل ، سمعت جلبة فى البهو الذى كان يمتد بطول الجزء الخلفى للدار . وانهال سيل من الأحجار ـ التى صوبت إلى النافذة والباب المفضى إلى البهو ـ فراحت تهوى فى ضجيج قوى ، حتى أن كلبى ، الذى اعتاد النوم فى البهو ، بدأ يعوى ، ثم أخرسه الذعر ، وهرع إلى احـد الأركان ، وراح ينبش الأرض الخشبية ويقرضها ، بحثا عن مفر !. . واستيقظت على الضجة ، وفيما كنت اهم بمغادرة مخدعى ، لأنتقل إلى المطبخ، إذا بحجر ـ طوحت به يد قوية ـ يهشم نافذة المطبخ، ويطير فى جوه ثم يصدم باب غرفتى فيفتحه ، ويقع عند مؤخر فراشى . ولو أننى تعجلت الخروج لحظة ، لكان قـد أصاب بطنى !. . وحـدست أن هـذه الضجة كانت تهـدف إلى

Looloo www.dvd4arab.com

استدراجى ، وان الحجر ألقى لكى يستقبلنى وأنا أغادر غرفتى .

واندفعت إلى المطبخ ، فوجدت « تيريز » ، التى كانت قد استيقظت ـ هى الأخرى ـ والتى جرت إلى ، وهى ترتجف . ووقفنا ملتصقين بالجدار ، بعيدين عن مستوى النافذة ، لنتجنب الإصابة بالطوب ، ولنتدبر ما فى وسعنا أن نفعله .. فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا . ولحسن الحظ ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا ، مجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة ، الذى كان بابه مجاورا لبابنا . فقفز من فراشه ، وألقى عباءته (الروب دى شامبر) على كتفيه فى عجلة ، وأقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين ـ فى تلك الليلة ـ بسبب السوق ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد . وكان جزع حاكم المنطقة بالغا ، حين رأى الخسائر ، حتى أن وجهه شحب .. وعند مرأى الحصى الذى امتلأ به البهو ، صاح : « يا إلهى !.. كأننى فى محجر ! » . وإذ هبطنا إلى الطابق الأسفل ، وجدنا أن باب فناء صغير قد اقتحم ، وأن محاولة بذلت للنفاذ إلى داخل البيت ، عن طريق البهو . وعند التحرى عن سبب عدم انتباه الحراس إلى هذا الشغب ، وعدم حيلولتهم دون حدوثه ، ظهر أن حراس (موتيير) ألحوا فى القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة ، برغم أنها لم تكن نوبتهم ، إذ كان الدور على حراس من قرية أخرى !

وفى اليوم التالى ، أرسل حاكم المنطقة تقريرا إلى مجلس الدولة ، الذى انتدبه ـ بعد يومين ـ للقيام بتحقيق فى الأمر .



وانهال سيل من الأحجار ـ التى صوبت إلى النافذة والباب المفضى إلى البهو ـ فراحت تهوى فى ضجيج قوى ..

Lqqlqq www.dvd4arab.com

وبأن يعد بمكافأة ، وبكتمان سر أولئك الذين يشون بالجناة . وكان عليه فى الوقت ذاته ، أن يقيم حارسا ـ على نفقة الحكومة ـ ليحرس دارى وداره ، التى كانت ملاصقة لها . وفى اليوم التالى ، اقبل لزيارتى الكولونيل دى بورى ، ومورون المدعى العام ، ومارتينيه حاكم المنطقة ، وجوينييه محصل الضرائب ، ودانفيرنوا امين خزانة المنطقة ، وابوه .. وقصارى القول ، ان كل ذوى المكانة فى المنطقة ، جاءوا لزيارتى ، واجمعوا على الإلحاح على لإغرائى على أن انحنى للعاصفة ، وأن أرحل ـ ولو إلى فترة من الزمن ـ عن ابرشية لم يعد بوسعى ان أعيش فيها آمنا او مكرما . بل إننى لاحظت أن حاكم الاقليم ـ فى ذعره من ثورة الأهالى الساخطين ، وفى جزعه من أن تمتد إليه ـ كان على استعداد لان يبدى اغتباطه إذا رآنى أرحل فورا ، حتى يتخفف من مسئولية حمايتى ، وحتى يستطيع ان يبرح المنطقة هو الآخر .. وهذا ما حدث فعلا ، بعد رحيلى .

ورضخت لهم .. بل إننى انصعت دون عناء تقريبا ، لان منظر حقد الجمهور مزق قلبى بدرجة لم أعد أقوى معها على احتمال الألم !

وكان ثمة عدة أماكن اتخير منها ملاذى . فلقد ذكرت لى السيدة دى فيرديلان ، فى عدة خطابات ـ منذ عودتها إلى باريس ـ سيدا يدعى « ولبول » ، كانت تلقبه باللورد ، وكان شديد الاهتمام بأمرى ، فعرض على مقاما فى إحدى ضياعه ، التى صورتها لى السيدة ابدع تصوير ، وتناولت التفصيلات

الخاصة بإقامتى ، وسكناى .. مما أوحى لى بمدى اهتمام اللورد والبول معها بهذا المشروع . ولقد كان اللورد مارشال يوصينى باستمرار بأن الجأ إلى إنجلترا او ايقوسيا ، حيث عرض على ـ هو الآخر ـ أن اقيم فى إحدى ضياعه . ولكنه عرض على كذلك ملجأ آخر فى (بوتستدام) ، كان اكثر إغراء لى ، لانه كان مجاورا لمقره . وكان قد اطلعنى ـ من عهد قريب ـ على اقتراح ابداه الملك له بشأنى ، كان بمثابة دعوة موجهة إلى ، وقد ابدت السيدة دوقة ساكس ـ جوتا ارتياحها البالغ إلى هذا ، حتى أنها كتبت إلى ملحة فى ان ازورها ، فى طريقى ، وان اقيم اياما معها . ولكننى احسست بميل شديد إلى سويسرا ، حتى اننى لم اكن اقوى على ان احزم أمرى على مغادرتها ، طالما كان من الممكن أن أعيش فيها . ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالى منذ عدة أشهر ، ولم أستطع ـ قبل الآن ـ أن أتحدث عنها ، حتى لا أقطع استطراد القصة .

كانت هذه الخطة هى أن أذهب فأقيم فى جزيرة (سان بيير) ، وهى من أملاك مستشفى (بيرن) . وكنت قد زرت مع « دو بييرو » هذه الجزيرة ، أثناء إحدى جولاتنا ، ففتنت بها حتى أننى ـ من ذلك الحين ـ لم أكف عن التفكير فى وسيلة للإقامة بها . وكانت أعظم عقبة هى أن الجزيرة كانت ملكا لأهل (بيرن) الذين طردونى من اراضيهم ـ قبل ثلاث سنوات ـ فى ظلم مهين . وفضلا عن أن كرامتى كانت خليقة بأن تتأذى من العودة إلى الإقامة بين قوم أساءوا وفادتى ، فقد كان لدى

Looloo www.dvd4arab.com

ما يبرر الخوف من أنهم لن يدعونى أعيش فى هذه الجزيرة ، فى هدوء يفوق ذاك الذى كنت فيه فى (ايفردون) . ولقد استشرت السيد المارشال فى هذا الأمر ، فراى ــ كما رأيت ــ أن اهل (بيرن) خليقون بأن يشيروا بنفيى إلى هذه الجزيرة ، وبأن يستبقونى رهينة إزاء اية مؤلفات جديدة قد أصبوا إلى وضعها ، فقد أشتم منهم هذه الرغبة ، عن طريق سيد يدعى « ستيرلر » ، كان جارا قديما له فى (كولومبيه) .

ولقد خاطب السيد ستيرلر ــ فى هذا الشأن ــ كبار رجال الدولة ، وأكد للسيد المارشال ــ استنادا إلى الإجابة التى تلقاها ــ ان اهل (بيرن) لم يكونوا يرجــون ، فى خجلهم من مسلكهم السابق ، أفضل من ان آوى إلى جزيرة (سان بيير) ، وأن يدعونى أعيش هناك فى سلام. وإمعانا فى الحيطة، سعيت ــ قبل أن أجرؤ على الذهاب للإقامة هناك ــ إلى الحصول على مزيد من المعلومات ، بوساطة الكولونيل « شاييه » ، الذى أكد لى هذه الأمور بالذات . وإذ ظفر محصـــل الضرائب فى الجزيرة ، بإذن من رؤسائه بأن يستضيفنى فى داره ، فقـــد خيل إلى ألا مخاطرة فى الذهاب إلى هناك ، بعد هذا القبـــول الضمنى من الحكام والملاك (الشعب) ، فما كنت لأطمع فى أن يعترف سادة (بيرن) جهارا بالظلم الذى أوقعوه على ، فيخرجوا على أشد المبادىء مناعة لدى كل أصحاب السلطان . .

* * *

وتقع جزيرة (سان بيير) ــ وتسمى فى نيوشـــاتيل بجزيرة (لاموت) ــ وسط بحيرة (بيين) . ويبلغ محيطها حـــوالى

نصف فرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة . ففيها حقول ، ومروج ، ومراع ، وبساتين ، وغابات ، وكروم . وهذه جميعا موزعة ــ بفضل الأرض المتباينة والجبلية ــ بشكل مستحب جدا إذ أن مناظرها المختلفة ، لا تتكشف جميعا فى وقت واحد ، وإنما تتعاقب فى توال متبادل ، فتوحى بأن الجزيرة اكبر مما هى فى الواقع . ويتألف الجانب الغربى منها ــ المواجه لجليريس وبونفيل ــ من مرتفع شاهق ، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة ، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب ، كأنه قاعة ، يجتمع فيـــه الوافدون من كل الشطآن المجاورة ــ فى أيام الآحاد من موسم حصاد العنب ــ ليرقصوا ويلهوا . وليس فى الجزيرة سوى دار واحدة ، يقيم فيها محصل الضرائب . ولكنها كبيرة ، رحبة تقع فى منخفض يحميها من الرياح .

وعلى خمسمائة أو ستمائة باردة من (سان ــ بيير) ــ من الناحية الجنوبية ــ جزيرة اخرى ، اصغر منها مساحة بكثير ، غير مزروعة ولا ماهولة ، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى ــ فى زمن ما ــ بفعل العواصف العاتية . . وهى لا تنبت بين حصبائها سوى الصفصاف ، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوة بالحشائش ، وذات حسن بديع . ويكاد شكل البحيرة أن يكون بيضاويا مكتمـــل التكوين . ومع ان شطآنها ليست خصبة كشواطىء بحيرتى (جنيف) و (نيوشاتيل). إلا أنها ذات منظر زخرفى بديع للغاية ، لا سيما فى الجـــانب الغربى الكثير السكان ، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة

Looloo www.dvd4arab.com

من الكروم كتلك التى تحف بـ (كوت – روتى) – فى منطقة الرون – وإن لم تشبهها فى جودة النبيذ الذى تدره . وتوجد فى الطريق من الجنوب إلى الشمال ، المناطق التابعة لقضاء (سان جان) و (بونفيل) و (بيين) و (نيداو) عند طرف البحيرة ، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر .

هكذا كان الملجأ الذى دبرته لنفسى ، والذى قررت أن أستقر فيه إذ أبارح (فال – دى – ترافير) . ولعله ليس من اللغو غير المجدى ، أن أذكر أننى خلفت هناك عدوا ألد ، تمثل فى السيد « دو تيرو » – عمدة فيربير – الذى لم يكن يحظى بكثير احترام فى المنطقة ، ولكنه أوتى شقيقا قيل انه رجل أمين كريم، كان يعمل فى مكاتب السيد دى سان فلورنتان . ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذى جرى لى بوقت قصير .. مثل هذه الملاحظات البسيطة – التى لا قيمة لها فى حد ذاتها – قد تساعد فيما بعد ، فى الكشف عن كثير من الحوادث المستترة .

ولقد كان اختيارى هذا الملجأ متمشيا تماما مع أهوائى وطباعى الميالة إلى العزلة والخمول ، حتى أننى أعده بين الأحلام العذبة التى كنت مشغوفا بها كل الشغف . ولاح لى أننى سأغدو – فى هذه الجزيرة – أكثر بعدا عن مجتمع البشر ، وفى مزيد من الأمان من إهاناتهم ، وأشد ما أكون بعدا عن ذاكرتهم .. وقصارى القول ، أننى سأكون أكثر تحررا فى الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل . ولقد كنت أتمنى أن أعزل تماما – فى هذه الجزيرة – فلا يعود لى أى اتصال بأى إنسان حى . ولقد اتخذت – بلا شك – كل

التدابير الممكن تصورها ، لأعفى نفسى من ضرورة الإبقاء على هذه الحال .

* * *

على انه لم يكن ثمة بد من القوت ، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدا ، من جراء ارتفاع أسعار المؤن ، وصعوبة المواصلات . فضلا عن أن المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب . ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد دوبيرو بإجرائه معى ، حل بمقتضاه محل الشركة التى كانت قد تعهدت بانتاج طبعة شاملة لمؤلفاتى ، ثم تخلت عن المشروع. فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة ، وتعهدت بتنسيقها وتوزيعها . كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتى ، وجعلته الوصى العام على كل أوراقى ، مع اشتراط خاص بألا يستغلها إلا بعد وفاتى ، إذ كنت قد آليت على نفسى أن اختتم حياتى العملية فى سكينة ، دون أن أذكر الرأى العام بوجودى على قيد الحياة . وكان المعاش السنوى – الذى تعهد بدفعه فى مقابل ذلك – كاف لحاجاتى . كذلك عرض على السيد المارشال – الذى كان قد استرد كل ثروته – معاشا سنويا قدره ألف ومائتا فرنك ، لم أتقبل سوى نصفه . ولقد رغب فى أن يرسل إلى مجموع المبلغ دفعة واحدة ، فرفضت ، إذ حرت فى أمر استثماره ، ومن ثم فانه أرسله إلى دو بيرو ، فظل بين يديه، وانه ليسلمنى الفائدة السنوية، على أساس الفئة المتفق عليها. ومن ثم فبضم اتفاقى مع دوبيرو ، إلى المعاش الذى وهبنيه السيد المارشال – على أن يؤول ثلثاه إلى التونتين عقب وفاتى –

Loolbo www.loolbo.com

إلى الثلاثمائة فرنك التى كنت أتسلمها سنويا من « دوشين »، أصبح فى وسعى أن أرتكن إلى دخل محترم لنفسى ، ولتيريز بعد مماتى . إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويا ، من معاش « ريى » ومن معاش السيد المارشال .

وهكذا لم يعد خوف لدى من أن تفتقد « تيريز » خبزها يوما ، أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة !.. بيد أنه كان قد كتب لى أن أضطر إلى أن أنبذ كل الموارد التى ساقها إلى يدى الحظ أو جهدى ، وأن أموت ــ كما عشت ــ فقيرا ! .. وسيكون فى الوسع تبين ما إذا كان فى وسعى ــ دون أن أتردى فى أدنى مهاوى الهوان ــ أن أتشبث بتدابير حرص الغير دائما على أن يجعلوها مذلة لى ، إذ عمدوا ــ فى عناية ــ إلى تجريدى من أية موارد أخرى ، لكى يقسرونى على أن أرضى بالهوان . فكيف خالجهم الشك فى القرار الذى كنت خليقا بأن أتخذه ، إذا ما خيرت بين الفقر ، وبين الرخاء مع الهوان ؟ .. لقد كانوا دائما يحكمون على قلبى ، بالقياس إلى قلوبهم .

* * *

وإذ ارتاح بالى إلى موارد عيشى ، لم يعد لدى أى شاغل آخر . ومع أننى كنت قد تركت الميدان ــ فى الدنيا ــ خاليا لأعدائى ، إلا أننى خلفت فى الحماس النبيل الذى أملى على مؤلفاتى ، وفى استمرار صمود مبادئى وتماسكها ، شاهدا على روحى التى كانت مسئولة عن كل النهج الذى اتخذته شخصيتى فى مسلكها . ولم أكن فى حاجة إلى دفاع فوق هذا ، ضد من سعوا بمذمتى وتشويه سمعتى . أنهم قد يصورون ــ تحت

اسمى ــ رجلا آخر يختلف عنى تماما ، ولكنهم لا يملكون أن يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون فى أن يكونوا مخدوعين! .. لقد كان بوسعى أن أترك لهم حياتى لينتقدوها ، من أولها إلى آخرها . فلقد كنت مطمئنا إلى أنهم خليقون دائما بأن يجدوا ــ وراء كل أغلاطى ومواطن ضعفى ، وعدم طاقتى على احتمال أى نير ــ رجلا كان عدلا ، وصالحا ، وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة ، على استعداد دواما لأن يعترف بأغلاطه الظالمة ، وأكثر استعدادا لأن ينسى مظالم الآخرين .. رجلا كان ينشد كل سعادته فى عواطف الحب واللطف ، وكان يكشف فى كل شىء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجرد من الذاتية !

وعلى هذا ، فإننى ــ بشكل ما ــ ودعت القرن الذى كنت أعيش فيه ، وودعت معاصرى ، وودعت مجتمع البشر ، وأويت إلى هذه الجزيرة لأقضى ما تبقى لى من أيام .. فهكذا كان عزمى ، وهناك كنت أعول على أن أنفذ ــ أخيرا ــ مشروعى الكبير .. مشروع الحياة الخاملة ، التى كرست لها عبثا ــ حتى ذلك الحين ــ كل الطاقة المتواضعة التى أودعتها السماء فى . لقد كانت هذه الجزيرة جديرة بأن تغدو لى كجزيرة بابيمانى(١)، تلك البلاد السعيدة ، التى ينام فيها المرء :

« فهناك عمل جديد .. أتيان لا شىء البتة »(١) !

---

(١) اسم ابتكره « رابيليه » للأرض التى أوت إليها حاشية البابا .

(٢) من شعر لافونتين ، ويقصد بالعمل الجديد .. عدم العمل .

Looloo www.dvd4arab.com

هذا « العمل الجديد » كان هو كل شيء لدى ، لأننى لم أتحسر كثيرا على النوم ، بل كانت البطالة تكفينى . فاذا ما قدر لى الا اعمل شيئا ، فاننى اوثر أحلام اليقظة على النعاس . وإذ كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت ، وبخور المجد الباطل قد أغثى نفسى أكثر مما استهوى غرورى ، فلم يبق لى ـ كأمل أخير ـ سوى حيـــاة طلقة من كل قيـــد ، تقضى فى فراغ دائم . فهذه هى حيـــاة المرضى عنهم فى العالم الآخر .. ومنذ ذلك الحين ، قصرت سعادتى فى عالمى الراهن، على هذا اللون من الحياة !

إن الذين يلوموننى على كثرة متناقضاتى ، لن يغفلوا أن يعتبوا على ـ هنا ـ تناقضا جديدا . فلقد قلت ـ من قبل ـ أن البطالة فى المجتمعات ، كانت عبءا لا أطيقه . ومع ذلك ، فها أنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد ، هو أن أسلم نفسى للبطالة . ومع ذلك ، فهكذا هى طبيعتى . وإذا كان ثمة تناقض فى هذا ، فهو من عمل الطبيعة ، وليس من صنعى . ولكن هنا فارق جد صغير .. وبهذا الفارق الصغير تمتـــاز شخصيتى الحقيقية . إن بطالة المجتمعات ممضة ، لأنها مفروضة بحكم الضرورة ، أما بطالة الوحدة ، فبهيجة لأنهـــا طليقة ، وصادرة عن رضى ورغبة .. إن التعطل عن عمل شيء ـ إذا كنت بين الناس ـ مهمة شـــاقة ، لأننى اكون فى ذلك مضـــطرا . فانا مضطر إلى أن ابقى بينهم ، مسمرا إلى مقعدى ، أو واقفـــا منتصب القامة كالعسكرى فى الحراسة ، دون أن احرك يدا أو قدما .. لا أجرؤ على أن أجرى ، أو أن اقفز ، أو أن أغنى،

أو أن أصرح ، أو أن أشير ، إذا ما خطر لى ان افعل .. بل إننى لا أجرؤ على أن أحلم ! .. فأشعر لفورى بالسأم من البطالة ، وبكل عذاب الضيق وضبط النفس . ذلك لأننى مضطر إلى أن اصيخ السمع لكل السخافات التى تقال ، وكل المجاملات التى تتبادل ، وأن اعتصر قريحتى باستمرار ، حتى لا اخفق فى أن أقدم ـ بدورى ـ سخافتى أو اكذوبتى . وهذا ما يسمى بالتبطل . إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد !

اما البطالة التى احبها ، فليست بطالة المتعطل الذى يبقى مكتوف الذراعين فى حالة توقف تام عن النشاط ، فلا تفكير ولا حركة .. البطالة التى احبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذى لا يكف عن الحراك دون ما عمل ، وبطالة المخرف الذى يهيم من موضوع إلى آخر ، وذراعاه ساكنتان !.. إننى احب أن اشغل نفسى بالتوافه ، وأن اشرع فى مائة شيء ، ولا اتم شيئا ، وأن اجيء واروح كما يحملنى هواى ، وأن ابدل خططى فى كل دقيقة ، وأن اتتبع ذبابة فى كل حركاتها ، وأن احاول أن أقلقل صخرة لاتبين ما تحتها ، وأن اضطلع فى تحمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات ، ثم أهجره ـ دون ما ندم ـ بعد عشر دقائق .. وقصارى القول ، إننى احب أن أقضى نهارى كله على غير نظام ، ودون ما تبعة ، والا اتبع ـ فى كل شيء ـ سوى هوى لحظته ، ونزوة دقيقته !

لقد كان علم النبات ـ كما عهدته دائما ، وكما وجدته إذ بدأ يتملكنى الشغف به ـ هو الدراسة الملائمة حقا للبطالة ، والصالحة لملء فراغ أوقاتى ، دون أن تدع مجالا للشطحات

Loeloo www.dvd4arab.com

الخيال ، او لسآمة التعطل الكامل .. فالضرب فى الغابات والريف على غير مقصد ، والإقبال الآلى على اقتطاف زهرة من هنا ، او فرع من هناك ، والتهام الطعام دون موعد تقريبا . وتأمل الأشياء الف والف مرة — وهى هى لم تتغير — بنفس الاهتمام ، لأننى كنت انساها جميعا أولا بأول .. كل هذه تؤلف الطريقة لانفاق الزمن السرمدى ، دون لحظة واحدة من السأم . ان تركيب النباتات — مهما يكن دقيقا ، ومهما يكن بديعا ، ومهما يكن متباينا — قل أن يسترعى العين الجاهلة إلى الدرجة التى تحملها على الاهتمام به .. إن التجانس الشامل المستطرد ، مع — وفى ذات الوقت — التباين الواسع النطاق، الذى يميز اعضاء النباتات ، لا يبهجان سوى أولئك الذين أوتوا فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات . اما غير هؤلاء ، فانهم لا يشعرون — حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعبة — بغير إعجاب جامد ، متواتر على نسق واحد .. إنهم لا يرون شيئا — بتفصيله او دقائقه — لأنهم لا يكادون يعرفون اين يجب أن تتجه نظرتهم .. ثم إنهم لا يرونه فى مجموعه كذلك — لأنهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التى تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتأمل . ولقد كنت — وكانت ذاكرتى الكليلة خليقة بأن تستبقينى دائما — فى تلك الحال المريحة .. الحال التى لم اكن اعرف فيها عن الشىء سوى القدر الضئيل الذى لا يبديه فى عينى جديدا .. ولكن هذا القدر كان كافيا لأن يحملنى على التفكير ! . وكان تباين انواع التربة الموزعة فى ارجاء الجزيرة ، بالرغم من صغر مساحتها ، يتيح لى تباينا فى نباتاتها ، كافيا للدراسة والتأمل بقية عمرى .. فعزمت على

الا ادع عرقا واحدا من عشب ، دون أن افحصه . وبدأت بالفعل اتخذ التدابير لأكتب عن مملكة النبات(١) ، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة !

* * *

وارسلت فى طلب « تيريز » وكتبى وأمتعتى ، فأقمنا فى دار محصل الضرائب . وكانت شقيقات زوجته — اللائى كن يقمن فى (نيداو) — يفدن لزيارتها ، كل بدورها ، فكان فى هذا إيناس لتيريز . وهناك احسست بحياة ناعمة كنت اتمنى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتى ، ولكن الشغف الذى تولانى بها ، لم يؤد إلا إلى زيادة إحساسى بمرارة تلك الحياة التى كانت موشكة على أن تعقبها .

لقد اعتدت دائما أن احب الماء حب المشغوف ، حتى ان مرآه يلقى بى إلى احلام عذبة ، برغم انها كثيرا ما تفتقد الغاية المحددة . فلم اغفل يوما عند يقظتى ، أن اهرع إلى الشرفة — عندما يكون الطقس معتدلا — لأعب من هواء الصباح الصحى العليل ، ولأطلق نظراتى إلى افق البحيرة الجميلة ، التى كانت الجبال تحيط شطآنها ، فتؤلف منظرا فاتنا . ولم اكن اجد تحية جديرة بالذات الإلهية اكثر من الإعجاب الصامت ، الذى ينبع من تأمل خلقها ، والذى يعجز عن ان يعبر عن ذاته، بتصرفات ظاهرة .. ان بوسعى أن أدرك السر فى أن سكان المدن — الذين لا يرون سوى الجدران والطرقات والجرائم —

---

(١) Flora Petrinsularis

Looloo
www.dvd4arab.com

لا يؤتون سوى القليل من الإيمان . ولكنى لا استطيع أن افهم السر فى أن أولئك الذين يعيشون فى الريف ـ لا سيما فى الأماكن المنعزلة ـ يستطيعون ان يضلوا الطريق إلى الإيمان ! .. كيف يتسنى لأرواحهم ألا تسمو فى غيبوبة نشوانة ، مائة مرة فى اليوم ، نحو مبدع العجائب التى تذهلهم ؟ .. اما انا ، فقد أعتدت من أمد طويل أن أنساق عقب اليقظة بوجه خاص ـ وانا بعد كليل الجسم لحرمانى من النوم طيلة ليلى ـ إلى تلك النوبات التى يسمو فيها قلبى محلقا ، والتى لا تفرض على عناء التفكير . على انه لا بد ـ لحدوث ذلك ـ من أن يصافح عينى سحر منظر الطبيعة ! .. أما فى حجرتى ، فان صلواتى لا تنبعث بمثل هذه الكثرة أو الحرارة ، ولكنى اشعر ـ إذا ما رايت منظرا طبيعيا جميلا ـ بتأثر عاطفى لا ادرى مأتاه . واذكر اننى قرأت عن أسقف حكيم ، صادف أثناء زيارته لأبرشيته ، عجوزا لم تكن تملك فى صلاتها أن تقول اكثر من : « أواه ! » . فقال لها الأسقف : « واصلى صلاتك على هذا النحو ، أيتها الأم الصالحة ، فان صلاتك هذه خير من صلواتنا » .. وهذه الصلاة ـ التى هى خير من سواها ـ هى صلاتى انا الآخر !

وكنت أسرع ـ بعد الفطور ـ إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة ، وانا متجهم ، ضيق الصدر ، متلهف إلى اللحظة السعيدة التى لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة . وكنت اقلب كتبى وأوراقى لبضع لحظات ، ورغبة فى فرزها وترتيبها ، أكثر منى فى قراءتها . وكانت هذه المهمة تتيح لى متعة التأمل الفكرى للحظات قلائل ، أمل بعدها العمل ، فأقضى الساعات الثلاث أو

الأربع المتبقية من فترة الصباح ، فى دراسة علم النبات ، لا سيما منهج « ليناوس » ، الذى تملكنى الشغف به ، حتى اننى لم أقو على التحول عنه تماما ، حتى بعد ان تبينت عيوبه فان هذا المدقق العظيم ، هو ، فى رايى ، الوحيد بعد «لودفيج» ـ حتى يومنا هذا ـ الذى نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف . ولكنه افرط ـ اكثر مما ينبغى ـ فى الاعتماد فى دراسته على مجموعات الأعشاب المجففة وعلى الحدائق ، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل . اما انا ، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لى ، وما أن أحتاج إلى أن أتأمل أو أتحرى شيئا ، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج ، متأبطا كتابا .. وهناك ، كنت انطرح على الأرض بجانب النبات الذى اقصده ، فأفحصه فى مكانه ، على مهل . ولقد اعانتنى هذه الطريقة أكبر العون ، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهى فى وضعها الطبيعى ، قبل أن تستنبتها يد الإنسان وتنأى بها عن طبيعتها ! .. ويقال ان « فاجون » ـ الطبيب الأول للملك لويس الرابع عشر ـ كان ملما بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية ، وعلى معرفة تامة بها . ولكنه بقدر علمه هذا ، كان جاهلا بنفس النباتات ، فى الريف ، حتى انه كان يعجز عن معرفة شىء منها . وهذا على النقيض منى تماما ، فانى أعرف شيئا عن نتاج الطبيعة ، ولكن لا أعرف البته عن نتاج البستانى !

أما الأوقات التى كانت تعقب الغداء ، فقد اعتدت أن أستسلم فيها تماما لميلى للبطالة وعدم الاكتراث بشىء ، وكنت

Loofoo www.dvd4arab.com

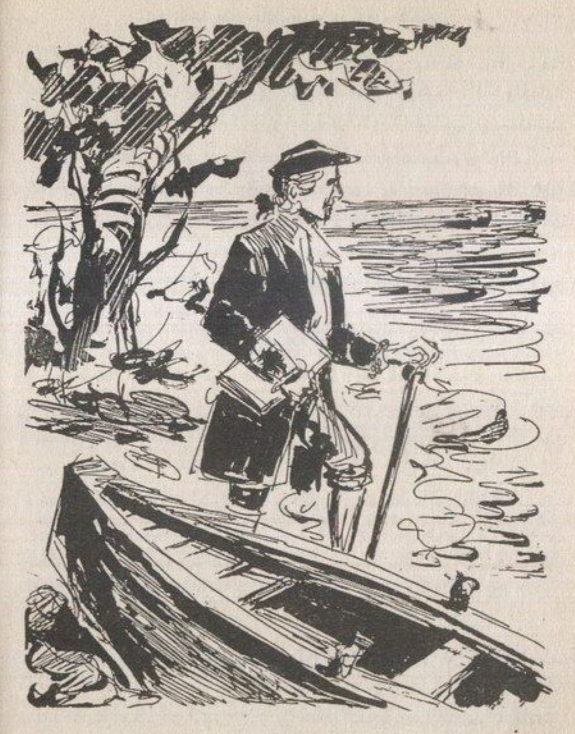
أتبع وحى لحظتى ، دون ما قاعدة أو نظام . وفى كثير من الأحيان كنت أبادر فور مغادرتى المائدة ــ عندما يكون الهواء ساكنا ــ إلى القفز وحيدا إلى قارب صغير ، علمنى محصل الضرائب كيف أتسلط عليه بمجداف واحد ، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة . وكانت لحظة انطلاقى تبعث فى نفسى فرحة يختلج لها قلبى . ومن المستحيل على أن أصف هذا الشعور ، أو أن أعلله .. اللهم الا أن يكون اغتباطا مستترا بأننى ــ فى هذه الحال ــ بمنأى عن الأشرار ! .. وكنت أجدف فى البحيرة وحيدا ، اقترب من الشاطىء أحيانا ، ولكنى لم أكن أرسو عليه قط . وكثيرا ما تركت قاربى لرحمة الماء والهواء ، وأسلمت نفسى لخواطر شاردة ، قد تكون منطوية على غباء ، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها . وكنت اهتف أحيانا ، فى انفعال : « أواه ، أيتها الطبيعة ! .. أواه ، يا أمى ! ها أنذا فى حمايتك وحدك ! .. ما من إنسان لئيم خبيث هنا ، ليحول بينى وبينك ! » . وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ ، وأنا اتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطا !.. على أننى ــ رغبة فى إرضاء كلبى المسكين ، الذى لم يكن شديد الحب مثلى لهذه النزهات المائية الطويلة ــ اعتدت أن أجعل لنزهتى غاية .. تلك هى أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة ، فأتمشى على أرضها ساعة أو ساعتين ، أو أستلقى على الحشائش ، على قمة البقعة المرتفعة فيها لأستمرىء لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها ، ولأعكف على فحص وتشريح كل النباتات التى تقع عليها يدى ، ولأبنى لنفسى مسكنا

خياليا، على هذه الجزيرة الصغيرة، وكأننى «روبنصن كروزو» جديد ! .. ولقد تعلق قلبى بهذه البقعة المرتفعة ! . وعندما كنت أصحب « تيريز » وزوجة محصل الضرائب وشقيقاتها للنزهة ، كان الزهو يستخفنى بأن أكون دليلهن ومرشدهن !.. ولقد نقلنا ــ فى موكب بهيج ــ بعض الأرانب لنعمر بها هذه البقعة ، فكان هذا عيدا من أعياد جان جاك ! .. ولقد أضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدا من الرواء والقيمة، فى نظرى . فأصبحت أكثر من التردد عليها فى مزيد من السرور، لأتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد !

***

ولقد أضفت إلى هذه الملاهى ، ملهاة أخرى ذكرتنى بالحياة البهيجة فى (ليه شارميت) ، وحفزنى إليها ، ذلك الفصل من السنة . تلك هى ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر ، التى كنت وتيريز نسر أن نتقاسمها مع محصل الضرائب وأسرته . وأذكر أن شخصا من أبناء (بيرن) ــ يدعى السيد كيرشبيرجر ــ جاء يوما لزيارتى ، فوجدنى محشورا فوق فروع شجرة عالية ، وقد ربطت إلى خاصرتى كيسا امتلأ بالتفاح إلى درجة تعذرت على معها الحركة ! .. ولم أستأ لهذا اللقاء ، ولا للقاءات أخرى على شاكلته ، بل إننى رجوت أن يكف أهل (بيرن) عن أن يعكروا صفو فراغى ــ بعد أن رأوا كيف كنت أستغله ــ وأن يدعونى فى عزلتى آمنا . ولقد كنت أوثر أن أكون حبيس هذه الجزيرة بإرادتهم ، وليس بإرادتى . لأننى كنت خليقا بأن أكون ــ فى هذه الحال ــ أكثر اطمئنانا إلى عدم تعكير صفو راحتى !

Looloo www.dvd4arab.com



وكأننى « روبنصن كروزو » جديد !.. ولقد تعلق قلبى بهذه البقعة المرتفعة !..

إن فى هذا اعترافا من تلك الاعترافات ، التى اشعر ــ مقدما ــ بأنها لن تلقى تصديقا من أولئك القراء الذين يصرون دائما على أن يحكموا على بالقياس إلى انفسهم ، بالرغم من انهم قد رأوا مرغمين ــ فى سياق حياتى بأسره ــ الف إحساس داخلى لا يشبه البتة أحاسيسهم فى شىء !.. واغرب ما فى الأمر ، انهم فى الوقت الذى ينكرون على فيه كل شعور طيب او مبرأ لم يؤتوه هم ، إذا بهم على أتم الاستعداد لأن يخلعوا على من خبيث المشاعر ما لا قبل لهم بأن يبثوه ــ لو شاءوا ــ فى أى قلب بشرى ! .. فهم يجدون من البساطة ان يصوروننى على نقيض الطبيعة ، وان يرسموننى كوحش هائل لا يمكن ان يكون له وجود . ذلك لأنهم يرون أن ليس ثمة سخافة تجل على التصديق ، ما دامت موجهة إلى تشويه سمعتى .. وليس من شىء خارق يبدو لهم محتملا ، طالما كان فيه تمجيد لى .

ولكننى سأمضى بنفس الإخلاص الصادق ــ بالرغم مما قد يقولون أو يعتقدون ــ فى عرض ما كان عليه «جان جاك روسو»، وما كان يفعله ، وما كان يطوف بخاطره ، دون ما إيضاح او تبرير لغرابة مشاعره وآرائه ، ودون أن اتحرى عما إذا كان سواه قد فكر على نسقه . ولقد استهوتنى جزيرة (سان بيير)، وكنت جد مرتاح إليها ، حتى اننى لفرط تركيز رغباتى على هذه الجزيرة ، عزمت على الا ابرحها إطلاقا . فلقد ضقت ــ بينى وبين نفسى ــ بالزيارات التى كنت مضطرا إلى ادائها فى المناطق المحيطة ، والرحلات التى كنت مجبرا على القيام بها

Looloo
www.dvd4arab.com

إلى (نيوشاتيل) و (بيين) ، و (أيفردون) ، (نيداو) .. كان اليوم الذى اقضيه خارج الجزيرة ، يبدو لى بمثابة انتقاص من سعادتى . كما أن تجاوز نطاق البحيرة ، غدا بالنسبة لى بمثابة تحول عن طبيعتى الفطرية . وفضلا عن ذلك، فان تجاربى الماضية جعلتنى هيابا فما إن كنت اصادف شيئا يرتاح إليه قلبى ، حتى اتوقع ان افقده .. وغدت رغبتى الحارة فى أن أختتم عمرى فى هذه الجزيرة ، مرتبطة ـ ارتباطا لا انفصام له ـ بالخوف من أن اقسر على مغادرتها !

واعتدت ان اذهب كل مساء ، فأجلس على الشاطىء ، لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة الأمواج .. كنت أحس بلذة فذة إذ أرى الأمواج تتكسر عند قدمى ، فقد كانت تمثل لى اصطخاب الدنيا ، وسكينة معقلى . وكانت هذه الفكرة تهفو بعواطفى أحيانا ، حتى أشعر بالدموع تتساقط من عينى ! .. ولم يكن يعكر هذه السكينة ـ التى اعتدت أن أستمتع بها بكل عواطفى ـ سوى توجس فقدانها .. على أن هذا التوجس بالذات ، كان يفسد سحرها على ! .. كنت اشعر بوضعى متأرجحا إلى درجة لا تمكننى من ان اجرؤ على أن اعول عليه ، او اطمئن إليه !.. وكنت اقول لنفسى « آه ! .. كم اتمنى راضيا أن أستبدل حريتى فى مغادرة الجزيرة ـ الأمر الذى لا احفل به إطلاقا ـ بضمان تمكنى من البقاء فيها دائما ! .. لماذا لا استبقى هنا قسرا ، بدلا من أن ابقى تفضلا ؟ .. إن أولئك الذين يدعوننى هنا ـ من قبيل التفضل ـ يستطيعون ان يطردوننى فى اية لحظة ، فكيف لى ان أجرؤ على الأمل فى ان

يدعنى مضطهدى أواصل هناءتى ـ التى يروننى عليها ـ هنا؟ .. آه ! ان السماح لى بالعيش هنا ، اقل مما اصبو إليه .. إنما اتمنى أن يقضى على بالبقاء .. أن اقسر على البقاء فى هذه الجزيرة ، حتى لا أغضب على مبارحتها ! » .. وكنت أرمق بحسد ذلك السعيد « ميكيلى دوكريه » ، الذى كان يعيش آمنا فى قلعة (داربيرج) ، دون أن ينقصه ـ لكى يكون سعيدا ـ سوى أن يرغب فى السعادة !!

وأخيرا ، انتهيت ـ لفرط استسلامى لهذه الخواطر ، وللهواجس المزعجة التى كانت تجعلنى دائما فى خوف من انقضاض عواصف جديدة على راسى ـ إلى ان اتمنى ، فى لهفة تفوق كل تصور ، أن يعدل ظالمى عن مجرد التساهل معى إزاء مقامى فى الجزيرة ، وان يجعلوها سجنا يقسروننى على ملازمته طيلة حياتى .. وبوسعى أن أقسم إننى لو كنت املك السلطة على أن أحصل على حكم بهذا الصدد ، لفعلت بأقصى اغتباط ، إذ كنت أوثر ـ ألف مرة ـ أن أضطر اضطرارا إلى قضاء بقية عمرى هناك ، على أن أتعرض لخطر الطرد منها !

* * *

ولم تبق هواجسى طويلا ، دون تحقيق .. فقد تلقيت ـ وأنا اقل ما أكون توقعا لذلك ـ خطابا من حاكم (نيداو) ، الذى كانت جزيرة (سان بيير) فى نطاق سلطانه .. وفى هذا الخطاب ، ابلغنى ـ نيابة عن حكومته ـ بالأمر بمغادرة الجزيرة والأراضى التابعة لهذه الحكومة !

Looloo www.dvd4arab.com

وخيل إلى ، عندما قرأت الخطاب ، أننى كنت أحلم ، فما كان ثمة ما هو أبعد عن الطبيعى ، ولا ما هو ابعد عن المنطق ، ولا ما هو أبعد عن التوقع ، من مثل هذا الأمر . ذلك لأننى كنت قد نظرت إلى هواجسى على انها قلق رجل ازعجته مصائبه ، أكثر منها توقعات تستند إلى اتفه أساس . وكانت الخطوات التى اتخذتها لأطمئن نفسى إلى القبول الضمنى الذى صدر من السلطات ، وإلى الأسلوب الوادع الذى أبيح لى بمقتضاه أن أستقر فى الجزيرة ، وإلى الزيارات التى تلقيتها من عديد من اهل (بيرن) ومن الحاكم نفسه ـ الذى اذهلنى بما أبداه نحوى من ود ورعاية ـ وإلى قسوة الطقس ، التى كانت تجعل من العنف الوحشى طرد رجل معلول من مأواه .. كل هذه الاعتبارات ، جعلتنى ـ وجعلت كثيرين غيرى ـ يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر ، وأن ذوى النوايا السيئة نحوى ، قد تعمدوا اختيار وقت جنى العنب وتغيب اعضاء مجلس الشيوخ ، كى يوقعوا بى هذه الضربة نجاة ، وبحدة !

ولو أننى أصغيت لأول إيعاز من كرامتى ، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فورا . ولكن ، إلى اين كنت أذهب ؟ .. وماذا يجرى والشتاء قد اقبل ، وليس لى من مقصد ، ولا اتخذت عدة ، وليس ثمة مرشد ، ولا عربات للنقل ؟ .. وما لم أترك ورائى كل شىء ـ أوراقى ، وأمتعتى ، وكل شئونى ـ فقد كنت بحاجة إلى وقت كى اعدها للنقل .. ثم ان الأمر لم يذكر ما إذا كان يسمح لى بأخذها أو لا يسمح !

وبدأت ملاحقة المصائب توهن جلدى .. ولأول مرة فى حياتى ، شعرت بكبريائى الفطرية تنحنى تحت وطأة الضرورة . وبالرغم من تذمر قلبى ، لم يكن ثمة بد من ان أتنزل فاطلب إمهالا . وإلى السيد دى جرافنرييه ـ الذى ارسل إلى الأمر ـ وجهت مسعاى . وكان فى خطابه قد عبر عن استهجانه الشديد لهذا الأمر ، وأنه ما ابلغنى إياه إلا فى أسف بالغ . فلاح لى مما ملأ الخطاب من مظاهر الألم والتقدير ، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مترفقة ، متلطفة ، إلى أن افاتحه بما فى صدرى .. وهذا ما فعلته . ولم اشك فى ان خطابى خليق بأن يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرد من الإنسانية ، وأنهم ـ ولو لم يلغوا مثل هذا الأمر القاسى ـ سيمنحوننى مهلة معقولة ، قد تشمل الشتاء كله ، لكى أستعد للرحيل ، ولكى أختار مكانا ألجأ إليه .

وأخذت ـ فى انتظار جوابه ـ أفكر فى موقفى ، وأتدبر القرار الذى كان على أن اتخذه . ورأيت كثيرا من الصعاب فى كل ناحية . وكان الحزن قد اثر على أشد تأثير ، كما كانت صحتى ـ فى تلك الآونة ـ فى أسوأ حال ، فأسلمت نفسى للتداعى ، وإذا ثبوط همتى يجردنى مما تبقى لى من قوى عقلية متواضعة ، كان من الممكن أن تساعدنى على ان أبت فى موقفى المحزن .. كان من الواضح أننى لم اكن أملك أن أتفادى ـ فى أى مكان قد ألوذ به ـ أن أتعرض للأسلوبين اللذين استخدما، حتى ذلك الحين ، فى طردى .. وأولهما : إثارة الناس ضدى، بالدسائس المتوارية .. فى حين أن الثانى ، هو : نفيى بالقوة الصريحة ، دون إبداء أى سبب أو مبرر لذلك

looloo www.dvd4arab.com

ومن ثم فانني لم أكن أملك ان أعول على أى ملجأ ، واطمئن إلى أنه مأمون ، اللهم إلا إذا ذهبت إلى ابعد مما كانت قواى ، وموسم الشتاء ، تسمح به ، على ما تراءى لى !.. ولقد عادت بى كل هذه الاعتبارات ، إلى عين الأفكار التى كانت تشغل بالى منذ البداية . ورحت اشتهى لو اننى سجنت طيلة العمر ، بدلا من أساق إلى أن أضرب فى الأرض ، بلا انقطاع ! وأن أطرد من كل مكان ألوذ به ، على التعاقب !

وبعد رسالتى الأولى بيومين ، كتبت رسالة ثانية إلى السيد دى جرافنرييه ، اسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس .. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من (بيرن) . وكان أمرا صيغ فى أخشن عبارات رسمية ، بأن أغادر الجزيرة ، وكل الأراضى التى تتبع الجمهورية ــ مباشرة أو غير مباشرة ــ فى أربع وعشرين ساعة ، والا أعود إلى دخولها قط ، وإلا تعرضت لأقسى صنوف العقاب !

***

وكانت تلك اللحظة رهيبة .. ووجدت نفسى بعدها فى أقسى الهموم ، وليس فى أعظم حيرة !.. على ان أشد ما آلمنى هو أن اضطر إلى التخلى عن المشروع الذى كان يجعلنى أشتهى قضاء الشتاء فى الجزيرة . وقد حان الوقت كى أروى القصة الأليمة التى توجت مصائبى ، والتى استدرجت ــ إلى القضاء على ــ شعبا تعسا ، كانت فضائله المتزايدة تبشر بأنه سيعادل يوما شعبى (اسبارطة) و (روما) .

فلقد تحدثت فى « العقد الاجتماعى » عن الكورسيكيين كشعب جديد ، كان هو الشعب الوحيد ــ فى أوربا ــ الذى لم يستغله التشريع أو يفسده . وقد أوضحت ان ثمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم ، لو أنهم وجدوا مرشدا حكيما !

ولقد اطلع على كتابى بعض الكورسيكيين ، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذى تحدثت به عن شعبهم ، وإذ ألفوا أنفسهم مضطرين إلى أن يكرسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم ، فقد رأى بعض زعمائهم ان يستشيروننى فى هذا العمل الجليل. وكتب إلى ــ بهذا الصدد ــ سيد يدعى « بوتافوكو » ، كان ينتمى إلى إحدى الأسرات الكبرى فى الجزيرة ، وكان « كابتن » فى اللواء الملكى الإيطالى بفرنسا . وقد أمدنى بعدد من الوثائق التى كنت قد طلبتها منه ، لكى أزداد تعرفا على تاريخ الأمة ، وعلى أحوال البلد . كذلك كتب لى السيد « باولى » عدة مرات. ومع أننى شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواى ، إلا أننى رأيت ألا سبيل إلى أن أضن بمعونتى فى مثل هذه المهمة الجليلة السامية ، بعد أن حصلت على كل البيانات التى طلبتها . وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيدين ، وقد استمر تبادل الرسائل إلى أن غادرت (سان بيير) .

وفى تلك الفترة بالذات ، سمعت أن فرنسا كانت توفد جنودها إلى (كورسيكا) ، وانها عقدت معاهدة مع أهل (جنوا) . ولقد أثارت هذه المعاهدة ، وإيفاد الجنود ، قلقى ، ودون أن

Looloo www.dvd4arab.com

أتصور أن تكون لى أية علاقة بذلك ، قدرت أن من المستحيل ــ بل ومن العبث ــ أن أكرس اهتمامى لعمل يتطلب هدوءا وسكينة كاملين .. وأعنى به تنظيم شعب ، فى اللحظة التى كان يحتمل أن يكون فيها على شفا إخضاعه لنير الطغيان !

ولم أخف قلقى عن السيد « بوتافوكو » ، الذى طمأننى بأن أكد لى أنه ــ كمواطن صالح ــ ما كان ليبقى فى خدمة فرنسا ، كما كان فعلا ، لو أن هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده . والواقع أن تحمسه للتبريرات التشريعية لكورسيكا ، وعلاقته الوثيقة بالسيد (باولى) ، حالتا دون أن يخالجنى أى شك من ناحيته . وعندما سمعت أنه كان يكثر من التردد على (فرساى) و (فونتينبلو) ، وأنه كان يقابل السيد دى شوازيل ، لم أملك سوى أن أستنتج أنه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاط الفرنسى . وهو الأمر الذى تركنى أحدسه ، ولكنه لم يبد رغبة فى أن يشرح ما لديه بشأنه بجلاء ، فى خطاب !

ولقد طمأننى كل هذا ، إلى حد ما . على أننى لم أقو على أن أفهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين ، ولم أستطع أن أرى أى إغراء يوحى بتصديق أنهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين ، فقد كان هؤلاء جد قادرين على أن يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد أهل جنوا .. كذلك لم أكن أملك أن أشعر بارتياح تام ، إلى أن أوقف اهتمامى فى إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح ، ما لم يكن لدى الدليل المقنع بأنه لم يكن مجرد دعابة

للضحك منى !.. ولكم كنت أرجو أن أتحدث إلى السيد بوتافوكو ، فقد كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لكى أحصل منه على الإيضاحات التى كنت أنشدها . ولقد أبدى أمله فى أن يتاح لنا لقاء ، فرحت أنتظر هذا اللقاء بصبر جد نافذ . ولست أدرى ما إذا كان قد أعتزم حقا أن يتيح لى لقاء ، ولكن .. لو أن هذه كانت نيته حقا ، لكانت محنى خليقة بأن تمنعنى من أن أفيد من هذا اللقاء !

* * *

وكنت كلما أطلت التفكير فى المشروع المقترح ، وكلما أمعنت فى فحص الوثائق التى كانت بين يدى ، ازددت شعورا بالحاجة الملحة إلى أن أدرس ــ عن كثب ــ البلاد ، والشعب الذى كان التشريع يعد له ، والأرض التى يقيم عليها ، وكافة الوجوه التى كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيها . وكنت أزداد إدراكا ــ يوما بعد يوم ــ بأنه من المستحيل أن أظفر ــ وأنا بعيد ــ بكافة الأضواء اللازمة لإرشادى . ولقد كتبت عن هذه الأمور إلى « بوتافوكو » ، فاذا به كان يشعر بها . وإذا كنت لم أستقر تماما على قرار الانتقال إلى كورسيكا ، إلا أننى شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة . فتكلمت إلى السيد داستييه ، الذى كان خليقا بأن يلم بها ، إذ كان قد عمل حينا ــ فيما مضى ــ تحت رئاسة السيد دى مايبوا . ولكنه لم يدخر وسعا ، فى سبيل إثنائى عن نيتى ، وأعترف أن الصورة البشعة التى رسمها للكورسيكيين وبلادهم ، أخبت كثيرا من جذوة رغبتى فى الذهاب إليهم والإقامة بينهم !

Loolgo www.dvd4arab.com

على ان هذه الرغبـة عادت إلى التأجج ـ عندما ادى الاضطهاد الذى تعرضت إليه فى (موتيير) إلى أن أفكر فى مغادرة سويسرا ـ بفضل الأمل فى أن اجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذى حرمت منه فى كل مكان آخر . ولم يكن يزعجنى ـ بصدد هذه الرحلة ـ سوى امر واحد .. عدم قدرتى الصحية عليها ، والنفور الذى طالما تملكنى نحو الحياة النشيطة التى قد اضطر إلى ممارستها . ذلك لأن الطبيعة هيأتنى لكى أتأمل وافكر فى الوحدة ، وحسب هواى ، ومن ثم فاننى لم اكن مهيأ البتة للكلام ، والعمل ، وتوجيه الشئون والمسائل ، وسط الناس .. ان الطبيعة حين منحتنى الموهبة للحال الاولى ، ابت على الموهبة للثانية ! .. ومع ذلك فقد شعرت أننى خليق بأن أضطر بمجرد وصولى إلى كورسيكا ، بأن القى بنفسى فى غمار تلهف الشعب ، وان اعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التى تتولى الزعامة فى الجزيرة ، ولو لم اساهم بدور مباشر فى المسائل العامة . وكانت غاية رحلتى ذاتها ، تفرض على السعى ـ وسط هذه الأمة ـ إلى العثور على المعلومات التى كنت انشدها ، بدلا من السعى إلى الراحة والعزلة .. كان من الواضح اننى لن استطيع أن أظل بحريتى واستقلالى ، إذ اننى سأدفع ـ على الرغم منى ـ إلى دوامة من النشاط ، لم اكن بفطرتى مهيئا لها .. واننى سأمارس حياة تتعارض تماما مع اهوائى ، ولا توحى بنفع لى . وتكهنت بأننى لن احقق بوجودى ، الفكرة التى ربما كانت قد تكونت عن مقدرتى خلال كتبى .. وكان معنى ذلك ، أن افقد مكانتى لدى الكورسيكيين،

بعد الثقة التى اضفوها على ، والتى ما كنت لأملك بدونها أن أحقق العمل الذى كانوا يتوقعونه منى . ولقد شعرت بيقين من أننى إذ أخرج ـ بهذا ـ من الجو الذى خلقت به ، لن اغدو ذا نفع لهم ، وإنما سأعمل على إشقاء نفسى !

* * *

وكنت مكروبا ، معذبا ، حطمتنى العواصف من كل نوع ، واضنتنى التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة ، واصبحت أشعر شعورا طاغيا بالحاجة إلى الراحة التى اتخذ اعدائى ـ الغلاظ القلوب ـ ملهاة من حرمانى منها ! .. ورحت أتنهد حسرة ـ كما لم أتنهد من قبل ـ على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسى، وعلى تلك الدعة الناعمة التى تشمل عقلى وجسمى، والتى طالما صبوت إليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبى الذى شفى من أوهام الحب والصداقة !

لذلك تطلعت فى جزع إلى المهمة التى كنت أوشك أن أقدم عليها .. إلى الحياة الصاخبة التى كنت أوشك على أن انغمس فيها .. وإذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد أذكت عزيمتى، فان استحالة ارضاء نفسى بالنجاح ، وتعويضها عما كانت فيه، ثبط تلك المزيمة تماما ! .. إن عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل ـ فى وحدة ـ كانت أقل عناء ، فى نظرى ، من ستة اشهر اقضيها فى حياة حافلة بالنشاط ، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها !

وفكرت فى حيلة لاحت لى جد مناسبة لتسوية كل شىء .. ذلك لأننى ـ وقد كانت تتعقبنى ، فى كل مكان ، المؤامرات

looloo www.dvd4arab.com

الخفية التى كان يبذلها ظالمى المستترون ــ لم أر سوى (كورسيكا) مكانا أستطيع أن أتطلع إليه فى شيخوختى ، للحصول على الراحة التى أبوها على فى كل مكان ، فقررت أن أذهب إلى هناك ، وفقا لتعليمات « بوتافوكو » ، بمجرد أن يتسنى لى ذلك . ولكننى عقدت عزمى ــ لكى أعيش فى هدوء هناك ــ على أن أطرح عنى مهمة التشريع ، ولو فى الظاهر ، على الأقل . ولكى أرد إلى مضيفى كرمهم ، بطريقة ما ، قررت أن أعكف على كتابة تاريخهم ، فى مسرحه .. على أن أجمع ــ فى هدوء ــ المعلومات اللازمة التى تجعلنى ذا نفع كبير لهم ، إذا ما لاح لى أى أمل فى النجاح . وداخلنى الأمل بأن أستطيع ــ إذا لم أقيد نفسى بشىء ، على هذا النسق ــ أن أفكر فيما بينى وبين نفسى ، وأنا مطلق الحرية ، فى مشروع مناسب ، دون أن أنبذ آمالى المشتهاة فى العزلة ، ودون أن أنتهج أى أسلوب للحياة لا أقوى على احتماله ، ولا أنا مهيأ له !

غير أن هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق ، فى وضعى الراهن . فعلى ما أنبأنى به السيد داستييه عن (كورسيكا) ، لم أتوقع أن أجد هناك أبسط أسباب الراحة فى الحياة ، ما لم أصحب هذه الأسباب معى : من أقمشة ، إلى ملابس ، إلى أطباق وصحاف ، إلى آنية المطبخ ، إلى الورق والكتب .. كان لابد للمرء من أن يحمل كل هذه معه . ولكى أنتقل إلى هناك مع « تيريز » ، كان من الضرورى اجتياز جبال الألب ، وأن أجر خلفى متاعى مائتى فرسخ .. وكان لا بد من اجتياز أراضى عدة حكومات ، وعلى ضوء المعاملة التى لقيتها من أوربا كلها ،

كان من الجدير أن أستعد ــ بطبيعة الوضع ، وبعد المحن والنكبات ــ لأن أصادف عقبات فى كل مكان ، ولأن أجد كل امرىء فخورا بأن يعذبنى بمحنة جديدة ، وبأن يمتهن ــ فى شخصى ــ كل حقوق الشعوب والإنسانية . ولقد اضطرتنى فداحة نفقات رحلة كهذه ، ومتاعبها ، وأخطارها ، إلى أن أتدبر مقدما كل صعابها ، وأن أزنها وأقدرها فى عناية .

وفيما كنت مترددا ــ بهذا الشكل ــ حدثت اضطهادات (موتيير) التى اضطرتنى إلى الانسحاب . ولم أكن مستعدا لرحلة طويلة ، لا سيما إلى (كورسيكا) ، فقد كنت أرتقب ردا من « بوتافوكو » ، ومن ثم فقد لذت بجزيرة (سان بيير) ، التى طردت منها فى بداية الشتاء ، على ما ذكرت من قبل . وكان الجليد الذى اكتست به (الألب) يجعل من المستحيل على أن أبرح البلاد ــ عن ذلك الطريق ــ لا سيما بعد إنذار قصير الأمد . والواقع أن تطرف أمر كهذا ، جعل الصدوع به مستحيلا فلقد كان من العسير أن أطيعه وأنا فى مقامى المنعزل المحوط بالماء ، وليس أمامى سوى أربع وعشرين ساعة ــ بدأت منذ إخطارى بالأمر ــ لأقوم باستعداداتى للرحيل ، ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التى أغادر بها الجزيرة والمنطقة .. كان من العسير أن أنفذ الأمر ، ولو أوتيت أجنحة !

ولقد أنبأت حاكم (نيداو) بذلك فى ردى عن خطابه ، ثم رحت أتعجل ما استطعت ، فراق هذه البلاد ، التى لم ألق بها سوى الاضطرابات .. وهكذا اضطررت إلى العدول عن مشروعى الغالى .. وهكذا أيضا قررت ــ إذ عجزت ، فى

Loolao www.dvd4arab.com

تنوطى وثبوط عزيمتى ، عن أن أحمل أعدائى على أن يترفقوا بى — أن أرحل إلى برلين ، بدعوة من السيد المارشال ، تاركا « تيريز » لتقضى الشتاء فى جزيرة (سان — بيير) مع متاعى وكتبى ، بعد أن أودعت أوراقى بين يدى دوبييرو . ولقد بذلت كل تعجل ، حتى أننى غادرت الجزيرة فى الصباح التالى لوصول الأمر ، فبلغت (بيين) قبيل الظهر . وقد كادت رحلتى تنتهى هناك تقريبا ، بحادث يجب عدم إغفال ذكره .

فما أن تردد أننى تلقيت أمرا بمغادرة مقرى ، حتى تدفق على الزائرون من المناطق المجاورة ، لا سيما من أبناء (بيرن) الذين جاءوا ليراءونى ويطيبوا خاطرى ، فى أبشع آيات النفاق ، وليؤكدوا لى أن فرصة العطلات وغياب كثير من أعضاء مجلس الشيوخ ، قد استغلت لإصدار هذا الأمر — الذى استنكره كل « المانتين » ، على ما قالوا — وإنذارى به . وكان بين هـذا الحشد من المواسين ، بضعة أشخاص من مدينة (بيين) ، وهى ولاية صغيرة حرة ، تحيط بها أراضى جمهورية (بيرن) .. وكان بين هؤلاء شاب يدعى « فيلدرميه » ، كانت أسرته تحتل الصدارة ، وتستمتع بأرفع سمعة فى هذه المدينة الصغيرة . ولقد ألح على « فيلدرميه » فى حرارة — باسم مواطنيه — كى اتخذ ملجئى بينهم ، مؤكدا لى أنهم كانوا تواقين ومتحمسين لاستقبالى .. وانهم يعتبرون مساعدتى على أن انسى المظالم التى عانيتها ، شرفا وواجبا .. وأننى لن أجد ما أخشاه من نفوذ أهل (بيرن) بينهم ، فان (بيين) كانت مدينــة حرة ،

لا تخضع لسلطان أحد ، وقد أجمع مواطنوها — عن بكرة أبيهم — على ألا يصغوا إلى أى طلب يسىء إلى !

وعندما رأى فيلدرميه أن ليس بوسعه أن يزعزع إصرارى ، أهاب بعدة أشخاص آخرين من (بيين) والمناطق المجاورة — بل ومن (بيرن) ذاتها — أن ينضموا إليه ويؤيدوه .. وكان بين هؤلاء « كيرشبيرجر » — الذى سبق لى أن تحدثت عنه — الذى زارنى مع فيلدرميه ، وراح يستحثنى فى إلحاف على أن يجتذب اهتمامى إليه بفضل مواهبه ومبادئه . ولقد كانت أبعد الرجاوات عن توقعى ، وأشدها إلحاحا ، هى تلك التى راح يبذلها السيد « بارثيه » — سكرتير السفارة الفرنسية — الذى زارنى مع فيلدرميه ، وراح يستحثنى فى إلحاف على أن أقبل دعوته . وقد أدهشنى بما أبداه لى من اهتمام كريم وحار . ولم أكن أعرف السيد « بارثيه » إطلاقا ، ولكنى — مع ذلك — لمست فى كلماته حرارة وحمية الصداقة ، ورأيت أنه كان تواقا حقا إلى إقناعى بالإقامة فى (بيين) . ولقد امتدح — فى أسلوب رفيع ، طلق — تلك المدينة وأهلها ، الذين بدا أنه كان على وئام بالغ معهم ، حتى أنه كان يدعوهم ، فى كثير من المناسبات — فى حضورى — رعاته وأهله !

ولقد قوضت هذه الخطوة — من « بارثيه » — كل تكهناتى . فلقد اعتدت دائما أن ارتاب فى أن السيد دى شوازيل ، كان المصدر السرى لكل الاضطهادات والمظالم التى تعرضت لها فى سويسرا . ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسى المقيم فى جنيف ، والسفير الفرنسى فى (سلور)، إلا إلى تعزيز هذه الشكوك بقوة.

Looloo www.dvd4arab.com

كنت ارى النفوذ الخفى لفرنسا فى كل ما حدث لى فى (بيرن) و (جنيف) و (نيوشاتيل) ، وقد خيل إلى ان عدوى القوى الوحيد فى فرنسا ، هو الدوق دى شوازيل . فكيف كان خليقا بى أن أرى زيارة (بارثيه) والاهتمام الكريم الذى بدا منه نحو مصيرى ؟ .. لم تكن مصائبى قد قوضت ما كان يعمر قلبى من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية ، ولم تكن التجربة قد علمتنى كيف أتبين فى كل مظهر للود والعطف فخا للايقاع بى ! .. واخذت ابحث فى دهشة عن سبب هذا الكرم من بارثيه ، فما كنت من الغفلة بحيث أصدق انه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه . ولمحت فى مسلكه دعاية ، بل وتظـاهرا ، ينمان عن مقصد مستتر ، وكنت بعيـد البال عن ان ابصر فى كل هذه العناصر الثانوية البسيطة ، تلك الشهامة الكريمة التى كانت كفيلة بأن تجعل قلبى يغلى غليانا ، لو اننى كنت فى مركز مشابه لمركز محدثى !

وكنت قد تعرفت ـ فى الماضى ـ بالشفالييه دى بوتفيل ، معرفة بسيطة ، فى قصر لوكسمبورج ، حيث ابدى لى بعض الكرم . ولقد حرص ـ منذ تعيينه سفيرا ـ على ان يظهر انه لم ينسنى ، حتى لقد دعانى إلى ان ازوره فى (سلور) . ومع اننى لم البِّ الدعوى ، إلا اننى تأثرت بها ، إذ اننى لم أعتد ان اعامل بمثل هذا الكرم ، من أصحاب هذه المراكز الرفيعة . ومن ثم فقد حدست ـ من مسلك بارثيه ـ ان السيد دى بوتفيل ، وإن كان مضطرا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشئون جنيف ، إلا انه اشفق على فى محنتى ، واعد لى ـ بما له من نفـوذ

شخصى ـ هذا الملجأ فى (بيين) ، حتى أستطيع ان اعيش هناك فى سلام ، تحت رعايته . ولقد شعرت بامتنان لهـذه اللفتة ، وإن لم ار ان افيد منها . ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى (برلين) ، فاننى رحت أتطلع فى لهفة إلى اللحظة التى انضم فيها إلى السيد المارشال ، وأنا موقن من اننى لن أحظى بالراحة الحقيقية ، والسعادة الباقية ، إلا معه .

* * *

ورافقنى كيرشبيرجر ـ عند رحيلى عن الجزيرة ـ حتى (بيين) ، حيث ألفيت فيلدرميه ، وبعض البيينيين الآخرين ، فى انتظارى . وتناولنا الغداء معا فى فندق البلدة ، وكان أول ما فعلته ـ عند الوصـول ـ هو البحث عن محفة ، إذ كنت معتزما الرحيل فى الصباح التالى . ولقد عاد أولئك السادة ـ أثناء الغداء ـ إلى تجديد إلحاحهم على بالبقاء بينهم ، فى حرارة ، وفى تاكيدات مؤثرة ، حتى أن عواطفى لانت لهم بالرغم من كل إصرارى ، ومن قلبى . وما أن راوا اننى بدات اتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم ، ووفقوا فى ذلك ، حتى اننى ارتضيت ـ فى النهاية ـ أن اغلب على أمرى ، ووافقت على البقـاء فى (بيين) .. حتى الربيع المقبل ، على الأقل .

ويادر فيلدرميه ـ لفوره ـ إلى البحث لى عن مسكن، وراح يطرى لى فى تحمس غرفة صغيرة تعسـة ، فى مؤخرة طابق ثالث من مبنى ، تطل على فناء أستطيع ان أمتع بصرى فيه ، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة ، فى مدبغة للجلود . وكان

www.dvd4arab.com

صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم ، وغدا وضيعا ، لا ضرر منه . وقد سمعت عنه ــ فى اليوم التالى ــ انه كان سكيرا مقامرا ، سيىء السمعة جدا فى المنطقة . ولم تكن له زوجة ولا اطفال ولا خدم . وإذ احتبست نفسى ــ فى غرفتى المنعزلة ــ فى وحدة كئيبة ، شعرت اننى ــ فى ابهج بلد فى العالم ــ قد انسقت فى سكناى ، لأفضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابا وغما ، فى بضعة ايام قلائل. وكان اشد ما احزننى أننى ــ بالرغم من كل ما قيل لى عن تلهف الاهالى على أن أقيم بينهم ــ لم أكن الاحظ ، عندما اسير فى الطرقات، اى كرم فى السلوك ، او اى ود فى النظرات ! .. ومع ذلك فإننى كنت قد عقدت عزمى تماما على ان امكث هناك ، عندما علمت ــ فى اليوم التالى بالذات ــ ورايت ، ولاحظت بنفسى ، ان المدينة كانت فى اضطراب فظيع من اجلى . وبلغ الكرم بعدد من الناس ، أن اسرعوا إلى إنبائى بأننى سأخطر ــ فى اليوم التالى ، وبأخشن الأساليب ــ بأن اغادر لفورى البلاد .. اعنى البلدة !

ولم اجد من استطيع أن اعتمد عليه ، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد الحوا على فى البقاء .. فاختفى فيلدرميه، ولم اعد اسمع شيئا عن بارثيه ، ولم يلح لى ما ينم عن ان توصياته قد اكسبتنى رضى « رعاته واهله » ، الذين كان يفخر بهم . على أن سيدا من أبناء (بيرن) ، يدعى السيد دى « فو ــ ترافير » ، كان يمتلك بيتا بديعا بالقرب من المدينة ، فعرض على أن يأوينى ، أملا فى أن أنجو ــ كما قال ــ من

الرجم بالطوب . ولم يبد هذا العرض كافيا لإغرائى على ان اطيل مقامى بين هؤلاء القوم المضيافين .

وإذ كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة أيام ، فإننى كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة ــ التى أمهلتنيها سلطات (بيرن) لأغادر أراضيها ــ بأمد كبير . ولما كنت اعرف غلظة القوم ، فإننى لم اخل من قلق بشأن الطريقة التى قد يعاملوننى بها فى مرورى بأراضيهم . وأعفانى من هذه الحيرة حاكم (نيداو) ، بتصرف كان أبعد ما يخطر بالبال . فقد اعرب جهرا عن عدم رضائه عن الأساليب العنيفة التى انتهجها اعضاء مجلس نلشوخ ، وذكر ــ بكرامة نفس ــ أنه يرى أن واجبه يقتضيه ان يشهد الملأ على انه لم يكن ذا علاقة بالأمر . ولم يتورع عن ان يغادر منطقته ، ليفد لزيارتى فى (بيين) !

ووصل فى اليوم السابق على رحيلى ، غير مستخف ، بل فى كثير من المظاهر ، فقد جاء فى زيه الرسمى وعربته ، مصطحبا سكرتيره . وحمل إلى جواز سفر صادر منه ، يمكننى من عبور أراضى حكومة (بيرن) ، دون ما خوف من اعتداء . ولقد اثرت الزيارة فى نفسى ، اكثر مما اثر جواز السفر . وما كان شعورى بهذا التأثر ليقل ، لو ان هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيرى، فلست اعرف شيئا أعظم نفوذا على القلب من الشهامة التى تؤدى فى لحظتها المناسبة ، من اجل شخص مستضعف ، اضطهد ظلما !

Looloo
www.dvd4arab.com

واستطعت ـ اخيرا ـ ان استأجر محفة ، بعد عناء ، فانطلقت فى الصباح التالى ، مغادرا هذه الأرض القاتلة ، قبل وصول الوفد الذى اريد به تكريمى .. بل قبل ان اتمكن من رؤية « تيريز » مـرة اخرى . إذ اننى ـ حين ظننت اننى سأمكث فى بيين ـ كنت قد كتبت إليها لتلحق بى.. بل إننى كدت لا اجد وقتا كافيا لاكتب لها بضعة سطور ، انبئها فيهـا بسوء طالعى الجديد ، ولسـوف يتبدى فى الجزء الثالث من « اعترافاتى » ـ إذا قدر لى أن أوتى القوة كى أكتبه ـ كيف أننى كنت فى الواقع منطلقا إلى إنجلترا ، وانا اظننى منطلقا إلى برلين .. وكيف أن السيدتين اللتين كانتا تواقتين إلى ان تتحكما فى حركاتى ـ بعد ان طاردتانى بمؤامراتهما من سويسرا . حيث كنت فى قبضة نفوذهما تماما ـ افلحتا ، فى النهاية ، فى أن تسوقانى إلى أيدى أصدقائهما !

* * *

ولقد اضفت ما يلى ، عند قراءتى هذه « الاعترافات » على السيد والسيدة كونته ديجمون ، والسيد الأمير بيجناتيللى ، والسيدة المركيزة دى ميم ، والسيد المركيز دى جيينيه :

« إنما قلت الحق ، فان عرف أحد أشياء تناقض ما عرضت ، فإنما يعرف اكاذيب وافتراءات ، ولو قام عليها الف دليل .. وإذا هو أبى أن يتحرى صحتها ، وأن يمحصها معى ، وانا بعد على قيد الحياة ، فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة .. أما انا، فإننى اعلن بصوت عال ، ودون ما خوف : ان اى امرىء ،

يستطيع ـ ولو لم يقرأ مؤلفاتى ـ أن يصدق بعد أن يتبين بعينيه طباعى ، وخلقى ، ومسلكى ، وميولى ، ومسراتى ، وعاداتى ، اننى رجل عديم الشرف والاستقامة .. فإنما هو رجل جدير بأن يخنق » !

بهذا اختتمت قراءة « اعترافاتى » ، والجميع سكوت .. وكانت السيدة ديجمون هى الوحيدة التى بدا عليها التأثر ، فراحت ترتجف بوضوح .. ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ولاذت بالصمت ، كبقية الجماعة .

وهكذا كانت النتيجة التى خرجت بها من هذه القـراءة ومن بيانى .

تمت هذه الترجمة . وهى اول ترجمة عربية امينة ، كاملة ، لـكتاب « اعترافات جان جاك روسـو »

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية محفوظة لدار « كتابى »







مطبوعات كتابى
إصدار جديد



عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فاليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

«واعترافات چان چاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...» .

كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقى» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولاتتبدل» .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «چان چاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، أنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة :

حلمى مراد